أخلاق المهنة
في
الإســـــلام

إعداد الدكتور

محـمد عبد الرحـيم البيـومـي

أستاذ مساعد بقسم العقيدة والفلسفة

كلية أصول الدين – بالزقازيق

جامعة الأزهر

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خير خلق الله وسيد المرسلين، سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين، **أما بعد،،**

فإن النظام الإجتماعى هو التعبير الظاهر عن الميزان الخلقى الذى يسيطر على عقول الأفراد فيه، وإذا كان الخلود قد يكتب لأمة من الأمم نظراً لسمو الغاية الخلقية فيها، فإن الأمة الإسلامية تبقى ما بقيت عقيدتها التى يتولد عنها أخلاق الأجيال فيها، والتى لأجلها امتدح الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بأنه على خُلق عظيم، وسواء كان الخلق ملكة راسخة فى النفس أو هو مكتسب، فإنه متى قام على ميزان صحيح فهو المحمود، وإلا فهو المذموم.وإذا كانت المذاهب الأخلاقية تعد امتداداً طبعياً لتصورات أصحابها فى المزاج و المعرفة، فإن الإنسان المسلم فى حقيقة أمره إنما يتخلق بأخلاق أرادها الله تعالى له، إذ هو سبحانه العالم بمكنونات الضمائر، وخفايا النفوس، ومن اتخذ من ربه وخالقه مرجعية لخلقه فإنه يرى الخير فى طبيعة الأفعال التى يأتيها، ومن يستند إلى منفعة لا يرى الخير إلا فى نتيجة عمله. فإن جاء على غير مراده ودون ما ينبغى ندم وتأسف، وهذا الصنف من البشر غايته مؤجلة وجزائه موقوت. أما من بذل الجهدفى مهنته وسائر مجرايات حياته لقاء وجه ربه، فإن جزاؤه عاجل وكفى من جزاء ربه له أن رضيه أهلاً لذلك العمل.ومما ينبغى إدراكه أن العمل من أجل الله فى مجال المهنة وغيرها لا ينافى الغاية الشخصية له، كحرص المؤمن على فوزه برضاء ربه عنه، وكذلك لا ينافى حريته فى أن يفعل وأن لا يفعل، وهو بهذه الحرية يشعر وقت العمل وكأنه الملزم لنفسه بهذا العمل حيث اختاره لنفسه ورضى به، لذا يسهل مزاولته والإتيان به ولا يشعر بثقل عبء التكاليف فيه.والإرادة الحرة للمتهن تعمل بموجب قوانين لا تفرض من خارج عليها، وإلا خضعت الإرادة للضرورة الطبعية، بل تخضع لقوانين مفروضة من أعماق النفس وقرار الذات.إذالحرية واستقلال الإرادة وجهان لعملة واحدة. وإن الغاية تقوم فى مطابقة السلوك للقانون الأخلاقى فى طاعة الله والاستجابة لأوامره. وهذه الغاية هى المقصودة قبل كل شىء.وقصد الفلاح والنجاح مرتب عليها.إن هدف الحياة وأقوى بواعثها فى مجال الإبداع المهنى وغيره من المجالات يبدو فى تحرك كل كائن حي نحو اكتماله، ويشهد بذلك علم وظائف الأعضاء ويسمى ذلك صحة، وعلم الأخلاق ويسميه كمالاً، وعلم النفس ويسميه تحقيقاً للذات بالتوفيق بين قواها العديدة، ودين الإسلام ويسميه إيماناً، والخلاص من التوتر النفسى بالإعلاء والتسامى يحول مجرى الغرائز إلى جهة لا تعمل على كبتها، بل على إنمائها وتوجيهها. ومن تجاهل الميول الاجتماعية الكامنة فى طبيعته افتقد الشعور الكامل بالسعادة، ولا سعادة إلا فى الإيمان الذى هو حرية صحيحة تعصم من دروب الذلل كلها، ومنفعة خالصة تقيم حداً بين النفس وشهواتها، وعزاء نافع يلهم صاحبه الحكمة فيما يلم به من

عمل، ويلهمه الثقة بالحكمة فيما يجهل سببه أو قصرت إرادته فيه.من أجل هذا وغيره رأى الإسلام فى المهنة صحيفة لها الأخلاق كالعنوان، وبدونها تتحول الكفاءات والمواهب المهنية إلى مردة وشياطين تعصف بالإنسانية ومواثيقها لقاء تحقيق غايتها، وإشباع لذاتها وشهواتها. لهذا نظر الإسلام فى نصوصه وتراث مفكريه إلى المهنة والعمل فى إطار من الأخلاق والفضيلة تحفها كفاءة قادرة، وأمانة مانعة، وإحسان يختزل أسمى المعانى الإنسانية فى سياق حروفه ومفرداته.موقناً أنه لو كان للفضيلة عبادة تعبد الله بها لكان لها من أخلاق كل ممتهن صح إيمانه، وخلصت سريرته فى مجال مهنته وتخصصه مسجد تعبد الله فيه.والصفة الأخلاقية التى يريد الإسلام من خلالها أن يحقق مثالية الواقع فى المجال المهنى وغيره ليست إلا قطعة العمل التى ينسجها الفرد من خيوط أيامه، وقطرات كده وعرقه فى ثوب التاريخ، تحيكه الأمة لنفسها من أعمار أبنائها لتتخذ منه عماداً لبلوغ عزها ومجدها موقنة أن قوة خلق الإنسان فى مهنته هى التى تجعله ثابتاً فى مركز تاريخه، لا متقلقلاً فى تواريخ الناس وترهاتهم وفى الوقت ذاته يكون محدداً بعظائم شخصيته الخالدة لا بمنافع شخصه الفانى، ناظراً فى الحياة من خلال تفاعله مع أحداثها إلى الوضع الثابت للحقيقة لا إلى الوضع المتغير إلى المنفعة.وبهذا تكون معايير وأخلاق المهنة مادة تستلهم منها الأمم مادة سموها ونهضتها. تغير بها ما اغبر من وجه الزمان فى إطاره المادى، خالعة عليه حلل الأخلاق والفضيلة، ملبسة إياه تاج الأمانة والإحسان، ولعل ما يحويه هذا البحث من مادة عبرت عن عظمة الشخصية المسلمة فى الجانب المهنى للأخلاق، مفتاحاً يعين على الوصول إلى ذلك فى ضوء تعاليم الإسلام وتراث علماءه ومفكريه.

والله الموفق وهو الهادى إلى سواء السبيل...

المبحث الأول
أخلاق المهنة مفهومها ونظرة الإسلام إليها

يرى المهتمون بدراسة الأخلاق المهنية أن هذا المجال يمثل "حقلاً جديداً من حقول علم الأخلاق فى العالم الإسلامى حيث إنه يتناول بالدراسة والتحليل الأخلاقيات المتعلقة بالمهن المختلفة وهذا مجال – فى نظرة المهتمين به من الحداثيين – جديد فى الكتابات الأخلاقية الحديثة لم يتم تناوله من منظور متكامل باللغة العربية حيث إن المؤلفات العربية المهتمة بالدراسات الأخلاقية حتى الآن لاتزال تدور فى فلك فلسفة الأخلاق النظرية التى تكتفى بعرض النظريات الفلسفية العامة عبر التاريخ الإنسانى دون تطرق لأرض الواقع العملى، ودون الدخول فى المشكلات الأخلاقية الحقيقية التى تمس الإنسان المعاصر، وإذا كان علماء الأخلاق فى أوروبا وأمريكا قد تجاوزوا هذه المرحلة النظرية فى الدراسات الأخلاقية، وتعرضوا للأخلاق العملية الواقعية لاسيما فى مجال عالم الأعمال الاقتصادية والمهن والوظائف العامة فإننا فى الوطن العربى لانزال نفتقر إلى مثل هذا النوع من الدراسات"(١).

والواقع أن مجال الأخلاق العملية فى العالم الإسلامى ليس كماً مهملاً كما يتصور البعض بل إننا لنجد الاهتمام به فى تراثنا الإسلامى من خلال كتابات ابن مسكويه، وابن حزم والإمام الغزالى، والإمام الماوردى، والإمام السيوطى، وغيرهم من أعلام الأمة. ولانعدم الاهتمام بهذا الجانب أيضاً عند أساتذتنا المعاصرين الذين ولجوا هذا الجانب من الدراسات الأخلاقية واهتموا به اهتماماً بالغاً ٢ كذلك أيضاً نجد الاهتمام بأخلاق المهنة متناثراً فى بطون الكتب التراثية المهتمة بالمهن المختلفة، فكتب الطب القديمة لانعدم فيها حديثاً عن أخلاقية مهنة الطب وهكذا الحال فى المجالات والمهن الأخرى ومن قبل هذا نجد الرسالة الجامعة من الفاروق عمر إلى أبى موسى الأشعرى رضى الله عنهما والتى يبين له فيها ما يجب أن يتحلى به القاضى من أخلاقيات فى مهنته وعمله وكذا كتب الفقه التى تناولت هذا الجانب بالبحث والدراسة، بل إننا نجد دراسات حديثة وقد أفردت هذا الجانب بالتأليف والدراسة مثل ما كتبه د / هشام الخطيب وآخرون مما يحمل إسم " الطبيب المسلم وأخلاقيات المهنة " وما كتبه الدكتور محسن الحازمى فى مؤلفه " أخلاقيات الاسترشاد الوراثى فى المجتمعات الإسلامية " وكذا السفير محمد أمين جبر فى مؤلفه " الأخلاق والمال فى الإسلام " بيد أن هذه الكتابات قد

---

(١) ا.د عبد الرزاق المضرب مبادىء الأخلاقيات المهنية ص٢١ ط٢٠٠٣ جامعة الإمارات العربية المتحدة.

(٢) يدل على ذلك المؤلفات القيمة التى اهتمت بالجانب العملى للأخلاق إضافة إلى الجانب النظرى لعلماء الأزهر المعاصرين مثل الدكتور محمود حمدى زقزوق والدكتور ربيع جوهرى وأ.د على معبد فرغلى وأد طه خضير ود / سعد الدين صالح وغيرهم.

تناولت أخلاق المهنة بصورة تخصصية منفردة دون وضع إطار عام يمكن من خلاله الاسترشاد الأخلاقي في المهن المختلفة، مع أن الإسلام بما يحويه من كتاب وسنة وتراث علمائه يمكن أن نستخلص منه إطاراً أخلاقياً عاماً يحكم المهن المختلفة في الوقت ذاته يمكن أن ننفذ منه إلى صياغة أطر تخصصية تحكم كل مهنة على حده. وهذا ما سنعمل على بيانه من خلال هذا البحث بمشيئة الله تعالى.

مفهوم أخلاق المهنة

لقد رأينا فيما سبق كيف أن بعض المهتمين بالدراسات الأخلاقية قد ذهب إلى أن الاهتمام بأخلاق المهنة مصدره" علماء الأخلاق في أوربا وأمريكا الذين اهتموا بهذا الجانب من جوانب الدراسات الأخلاقية، ومن ثم اعتبروه حقلاً بكراً من حقول علم الأخلاق في البيئة الإسلامية، ولذا تناولوه بالدراسة والتحليل في ضوء النظرة الغربية التي خصت هذا الجانب من جوانب علم الأخلاق، ومن خلال هذه النظرة كان تعرضهم لمفهوم أخلاق المهنة بالبيان والتعريف فعرفوا الأخلاق المهنية بأنها " مجموعة من القواعد والمعايير الخاصة بالسلوك في المجتمع "[1] ورأو أن كل مجتمع عنده هذه الأخلاقيات، وذلك لأنها " تشكل القاعدة اللازمة لتبادل المنفعة بين أعضائه بعضهم البعض وبدون هذه القاعدة الأساسية لن توجد مجتمعات مستقرة "[2] وإذا كانت النظرة الغربية لأخلاقيات المهنة تقف عند حد صياغة مجموعة من القواعد التي يسير عليها الإنسان في تعاملاته الاجتماعية من خلال المهن المختلفة فإن النظرة الإسلامية لمفهوم أخلاق المهنة لاتقف عند حد وضع القاعدة أو المعيار بل تتعدى ذلك إلى جانب الالتزام الذاتي بهذه القواعد، ولكي نقف على تفصيل ذلك من خلال التصور الإسلامي لأخلاق المهنة فإنه ينبغي علينا أن نعرض لكلا الكلمتين بالتعريف.

أولاً: كلمة " أخلاق ":

الأخلاق جمع خلق – بضم الخاء واللام – كعنق وأعناق، أو بضم فسكون كصلب وأصلاب وكلاهما كما ورد في" لسان العرب "يعني السجية، يقال: خلق المؤمن، خلق الفاجر، وفي الأثر: " ليس شيء في الميزان أثقل من حسن الخلق " وحقيقته: أنه صورة الإنسان الباطنة، وهي نفسه، وأوصافها ومعانيها المختصة بها بمنزلة الخلق لصورته الظاهرة وأوصافها ومعانيها ولها أوصاف حسنة وقبيحة[3]، وفي معجم ألفاظ القرآن الكريم أن الخلق – بضم الخاء واللام – السجية والطبع وما يجري عليه المرء من عادة لازمة[4] هذا بالنسبة لأصل الاشتقاق اللغوي، أما بالنسبة للمعنى الاصطلاحي فقد عرف الخلق بعدة تعريفات منها:

(١) مبادىء الأخلاق المهنية ص٢٩.
(٢) المرجع السابق ص٢٩.
(٣) ابن منظور لسان العرب ج٢ ص١٢٤٥-ط- دار المعارف وكذا أبو بكر الآجري أخلاق العلماء ص١٣ تح أ. د / أحمد السايح ط الدار المصرية اللبنانية.
(٤) مجمع اللغة العربية معجم ألفاظ القرآن الكريم ج١ ص٣٦١ –ط- لجنة التراث القاهرة.

١- حال للنفس داعية لها إلى أفعالها من غير فكر ولاروية[١].
وهذا التعريف " لابن مسكويه " يرى من خلاله أن هذه الحال تنقسم إلى قسمين: منها ما يكون طبيعياً من أصل المزاج كالإنسان الذى يحركه شىء نحو الغضب ويهيج من أقل سبب، وكالذى يفرط فى الضحك من أدنى شىء يعجبه، وكالذى يحزن من أدنى شىء يناله.
ومنها ما يكون مستفاداً بالعادة والتدريب وربما بدأ بالفكر والروية ثم تكون المداومة عليه حتى يصير ملكة وخلقاً.

٢- وعرف الخلق أيضاً بأنه " ملكة فى النفس توجب سهولة صدور الأفعال الإرادية عنها بلا روية"[٢] ونلمح فى هذا التعريف تقييده للأفعال بالإرادية إذ الحكم الخلقى لا يتعلق إلا بها، كما أن التعبير بالملكة فى هذا التعريف أدق من التعبير بالحال عند ابن مسكويه فكلاهما وإن كان يعبر به عن الظواهر النفسية إلا أن الحال معنى يرد على القلب من غير تصنع ولاتكلف ويزول بظهور صفات النفس، فإذا دام صار ملكة[٣].

٣- وعرف الإمام الغزالى الخلق بأنه " هيئة فى النفس راسخة عنها تصدر الأفعال بسهولة من غير حاجة إلى فكر وروية "[٤] ويرى الإمام الغزالى أن هذه الهيئة إذا كان الصادر عنها" الأفعال الجميلة المحمودة عقلاً وشرعاً سميت تلك الهيئة خلقاً حسنا، وإذا كان الصادر عنها الأفعال القبيحة سميت الهيئة التى هى المصدر خلقاً سيئا"[٥] ونلاحظ فيما ذكره الإمام الغزالى من تعريف للخلق أنه ركز على الأساس النفسى للسلوك إذهو ينبع من هيئة راسخة فى داخل النفس البشرية.

٤- وعرف محيى الدين بن عربى الخلق بأنه " حال للنفس يفعل الإنسان به أفعال بلا روية ولا اختيار"[٦] ونلحظ هنا مشاركة ابن عربى لابن مسكويه فى التعبير بالحال، ومن ثم يتوجه إلى ابن عربى ما توجه إلى ابن مسكويه من مقارنة بين الحال والملكة.

وبالنظر إلى ما تقدم من تعريفات للفظ "الخلق" يمكن أن نقرر عدداً من الأمور منها:

أن الخلق صفة للجانب النفسى للإنسان.

---

(١) ابن مسكويه تهذيب الأخلاق ص٤١ –ط- المطبعة المصرية.
(٢) مختار الأخلاق الناصرية لوحة مخطوطة دار الكتب تحت رقم ٣٠٦٠.
(٣) يراجع فى معنى الحال والملكة المعجم الفلسفى ص٦٦، ١٩٢مجمع اللغة العربية وكذا الجرجانى التعريفات ص٥٦ ط صبيح وكذا دراسات فى التصوف والأخلاق د/ محمد البيومىالشيخ ص١٢ ط١٩٨٨.
(٤) الإمام الغزالى إحياء علوم الدين ج٣ص٥٨ط الريان.
(٥) المرجع السابق ج٣ص٥٨ ويراجع د/ سعد الدين صالح قضايا فلسفية فى ميزان العقيدة الإسلامية ص٢٦٦ ط جامعة الإمارات العربية المتحدة.
(٦) د/ عبد الرحمن بيصار المختصر فى العقيدة والأخلاق ص١٥ ط الأنجلوا.

أن هذه الصفة النفسية لابد أن تكون راسخة أى ثابته غير عارضة إذ هى تمثل عادة لصاحبها تتكرر كلما حانت فرصتها، فالكاذب الذى يصدع مرة بالحق فى حياته لايعد من الصادقين.

أن هذه الصفة النفسية الراسخة الثابته تصدر الأفعال عنها بسهولة ويسر أى من غير تعسف أو تكلف، فالفاجر الذى يتكلف الحياء والعفة ليس له من حقيقتها حظ أو نصيب.

كما أن صدور الأفعال عن هذه الهيئة أو الملكة النفسية يكون من غير فكر ولارويـة أى أن الفعل إنما يصدر عن صاحبه بلا تردد ولا تأخير عن وقته المناسب، إذ إن الخلق صار له عادة وسننا، يصدر عنه تلقائياً بدون جهد أو عناء ذهنى.و لاينفى هذا أن يهمل الإنسان عقله فى تخير جهة فعله وخلقه، فالكريم لايتردد عند نداء العطاء والبذل، بيد أنه يتخير جهة الخير أو نوعه، أو المبذول لأجله، أو الجهة التى تستحق العطاء، فالفكر يبذل لتوجيه الخير وجهة معينة دون أخرى[1].

وبالتأمل فيما سبق من تعريفات للفظ الخلق نجد أنها تلتقى- من وجهة النظر الأخلاقية – عند نقطة واحدة، وتكيف الخلق فى حقيقته وفى تكوينه تكيفاً متشابهاً، مما يدل على أن الجوانب المختلفة لتفكير المسلمين فى هذه الناحية لاتعكس صوراً مختلفة للسلوك الأخلاقى، وانما رغم اختلافها فى مناهجها أو فى موضوعات بحثها، فانها تنتج عنها أخلاق إسلامية موحدة، ونمط للسلوك المتسق.

ثانياً: تعريف المهنة:

أما بالنسبة لكلمة "مهنة" فقد ورد عنها فى المعجم الوسيط أنها "العمل، والمهنة: العمل الذى يحتاج إلى خبرة ومهارة وحذق بممارسته. وهو فى مهنة أهله فى خدمتهم "[2].

ونلحظ فى هذا التعريف تقيد كلمة المهنة" بالخبرة والمهارة والحذق" وهذه صفات مناسبة لمعنى الخلق حيث إن الخلق يلزم عنه صدور السلوك من الإنسان بلا تدبر ولا روية ولن يصل الإنسان إلى هذه المنزلة إلا من خلال تحليه بعدد من الصفات التى تجعله متمرساً ومتمكناً فى مهنته والتى من أهمها " الخبرة والمهارة والحذق ". كذلك نلحظ فى بيان معنى" المهنة" اقترانها "بالخدمة" وهذا الاقتران يضفى بعداً أخلاقياً تستشعره عند إطلاق الكلمة واستعمالها. وبالنظر إلى ما تقدم من بيان لمعنى كلمتى "الخلق، والمهنة" يمكن أن نعرف أخلاق المهنة بأنها: "

(١) ا.د / محمد ربيع جوهرى اخلاقنا ص٥٣ ط٢ دار الاعتصام بتصرف وكذا يراجع د/ محمد يوسف موسى مباحث فى فلسفة الأخلاق ص٥٩ ط دار الكتاب العربى ١٩٤٨.
(٢) المعجم الوسيط (مهن) –ط- مجمع اللغة العربية بالقاهرة ١٩٨٥م ص٩٢٦.

مجموعة من الصفات النفسية المستقرة فى نفس الإنسان يصدر عنها سلوكه لدى ممارسة المهن المختلفة بلا تدبر ولا روية "

ولكى يصل الإنسان إلى هذه الدرجة فى مهنته، والتحلى بالأخلاق المرتبطة بها، فإنه يمر بعدد من المراحل التى تسلمه فى النهاية إلى صدور السلوك المهنى المهذب أخلاقياً بلا تدبر ولاروية، هذه المراحل هى:

(١) { الخاطر }

وهو أول ما يرد على قلب الإنسان، ويمثل الخاطر حديث النفس، ونفس الإنسان تحدثه بأمور كثيرة قد يميل إلى إحداها.

(٢) { الميل }

وهو توجه الإنسان لخاطر من خواطره يتصوره، ويدرك الغرض منه، والغاية المترتبة عليه. فإذا تغلب ميل على سائر الميول الإنسانية، صار هذا الميل رغبة.

(٣) { الرغبة }

هى تغلب ميل على بقية الميول الموجودة فى النفس الإنسانية، فإذا فكر الإنسان فى هذه الرغبة ودرسها دراسة واعية، وعزم عليها، صارت هذه الرغبة إرادة.

(٤) { الإرادة الجازمة }

وهى صفة النفس التى تخصص رغبة من الرغبات التى مالت إليها النفس لكى تتحقق، فإذا ما تكررت الإرادة صارت عادة.

(٥) { العقل }

ويأتى فوق مستوى الإرادة الجازمة العادية، مستوى العقل وهو مستوى عال من الإرادة الجازمة القوية الكافية لعقل الإنسان وحجزه عن الاندفاع وراء أهوائه وشهواته، ومن ثم تكررت فى القرآن الكريم مادة "عقل-يعقل-نعقل" للدلالة على هذا المستوى من قوة الإرادة فى عدة نصوص، وللدلالة على فهم المعانى فهماً عميقاً صحيحاً مع تثبيت هذا الفهم وعقله فى القوة العاقلة للمعانى فى نصوص أخرى.فمن الأول قول الله تعالى لعلماء اليهود " أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ " البقرة(٤٤). فهم لا ينقصهم الفهم إنما لايملكون قوة إرادة تضبطهم وتعقلهم عن اتباع الهوى. ومن الثانى قول الله تعالى " وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ" العنكبوت (٤٣). فالعقل هنا يراد منه الفهم العميق الصحيح مع تثبيته فى الحافظة. وبالنظر للمعنى الأول وما دل عليه من آى القرآن الكريم يكون المراد من العقل الإرادة الجازمة القوية القادرة

على عقل النفس وأهوائها وشهواتها، وضبطها فى حدود الخير مع استنادها إلى معرفة الأمور، وبصيرة بما فيها من خير أو شر.

(٦) { العادة }

وهى الإرادة التى تتكرر وتصدر عن حالة راسخة، هى الخلق(١).

مما تقدم ندرك أن الإنسان كى يصل إلى خلق مهنى معين لا يتم له ذلك إلا إذا مر بعدد من المراحل التى تكون الخلق وتولد السلوك المعبر عنه، هذه المراحل هى:

"الخاطر، فالميل، فالرغبة، فالإرادة، فالعقل، فالعادة "

نظرة الإسلام إلى المهنة

مما اهتم به علم الأخلاق فى تراثنا الإسلامى علم الأخلاق العملى والذى من خلاله يبحث فى أنواع الملكات الفاضلة التى ينبغى على الإنسان أن يتحلى بها ويمارسها فى حياته العملية وذلك مثل الصدق، والأمانة، والوفاء بالعهد، والشجاعة، والعدل، والرحمة وغيرها من السلوكيات التى لها مثال واقعى فى الخارج، ومن ثم ندرك أن الهدف من الجانب العملى فى الأخلاق، هو الجانب التطبيقى الذى ينقلها من ابراجها العاجية إلى الممارسة والواقع فى المهن المختلفة، وهذه هى الغاية الحقيقية من الأخلاق فالمرء لا يكون فاضلاً لمجرد انه يعلم ما يجب عليه فعله، بل فضله وشرفه فى أن يعمل ما يجب عليه فعله وهو عالم لماذا يقوم بهذا العمل على هذا الوجه بعينه دون غيره من وجوه الفعل المختلفة، ومن هذا المنطلق نقول أن النظرة إلى المهن المختلفة وتقسيمها بحسب المرتبة إلى شريفة ووضيعة أمر لا يعرفه الإسلام، إذ الإسلام يرى أن الشرف والخسة فى مجال المهنة مدارها في وجود العمل وعدمه. فالعمل أيا كان نوعه -مع استصحاب مشروعيته والالتزام بأخلاقياته واتقانه- هو قمة الشرف والعظمة فى الإسلام. أما انعدام العمل، أو وجوده مع فقد مشروعيته، والتخلى عن اخلاقياته، فهو قمة الوضاعة والمهانة.وليس هذا فحسب بل إن صاحبه فى هذه الحالة -كما بين الإسلام -يستحق الذم والمقت والعقاب من الله ومن الناس. وقد تضافرت النصوص من- كتاب وسنة- على بيان هذا المعنى وتأكيده، أما من الكتاب فنجد قول الحق سبحانه" هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ " الملك(١٥). وقوله تعالى " فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ " الجمعة (١٠). فهاتين الآيتين قد ورد فيهما الأمر بالسعى واحتراف المهنة دون تحديد لمهنة بعينها، لأن المهن المختلفة فى نظر الإسلام سواء، غاية ما هنالك أن يلتزم الإنسان

(١) أخلاقنا ص٥٤ وكذا د/عبد الرحمن حسن الميدانى الأخلاق الإسلامية واسسها ج١ص١٠٠ ط دار القلم دمشق.

بمشروعيتها، والقيام بحقوقها والالتزام بأخلاقها وآدابها، وذلك لأنه لابد من العرض على العليم بخفايا النفوس، وماتكن الصدور، ليكون بين يديه سبحانه، الحساب على الإخلاص والالتزام بآداب وحقوق الأعمال والمهن المختلفة. ومن ثم يقول سبحانه: "وَقُلِ اعْمَلُواْ فَسَيَرَى اللّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ " التوبة (١٠٥) ولعلنا نلحظ ذكر "المؤمنين" بعد الأمر بالعمل مما يوحى معه إلى مراعاة الأبعاد الاجتماعية فى الإتيان بالمهن والأعمال المختلفة.

أما من السنة:

فإننا نجد قول النبى صلى الله عليه وسلم " ما أكل أحد طعاماً قط خير من أن يأكل من عمل يده، وإن نبى الله داود كان يأكل من عمل يده"[١] وعد رسول الله صلى الله عليه وسلم الممتهنين الذين يسعون لسد حاجاتهم، وحاجة من يعولونهم فى سبيل الله، حيث مر على رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل، فرأى الصحابة من قوته وجلده ونشاطه فقالوا: لو كان هذا فى سبيل الله، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن كان خرج يسعى على ولده صغارا فهو فى سبيل الله، وإن كان خرج يسعى على أبوين شيخين كبيرين فهو فى سبيل الله، وإن كان يسعى رياء ومفاخرة فهو فى سبيل الشيطان "[٢] ولعلنا لاحظنا فى نص الحديث ما يفيد أن العمل إذا خلا من الخلق القويم، وحفة الرياء والمفاخرة، كان مآله إلى بوار، وصاحبه إنما يسير على طريق الشيطان، وهذا حث صريح من النبى صلى الله عليه وسلم على الالتزام بأخلاق المهنة والعمل.ويبين لنا النبى صلى الله عليه وسلم فى حديث آخر كيف أن الشرف والرفعة فى امتهان الحرف والتزام العمل، والدونية والخسة فى انعدام الحرفة والمهنة لأن بانعدامها مد لليد بالسؤال وهذا ما يأباه الإسلام لأتباعه، يقول صلى الله عليه وسلم " والذى نفسى بيده لأن يأخذ أحدكم حبله، فيحتطب على ظهره، خير له من أن يسأل رجلاً أعطاه أو منعه"[٣] وفى رواية " فيحتطب، فيبيع، فيأكل ويتصدق خير له من أن يسأل الناس "[٤]. ويقول صلى الله عليه وسلم فى فضل المتاجرة المقترنة بالالتزام بأخلاق المهنة وآدابها "التاجر الصدوق الأمين مع النبيين، والصديقين، والشهداء"[٥]

وعلى النقيض من ذلك بين النبى صلى الله عليه وسلم أن عدم الالتزام بأخلاق المهنة والعمل، من شأنه أن يحجب إجابة الدعاء حيث ذكر الرسول صلى الله عليه وسلم " الرجل يطيل السفر أشعث أغبر، ومطعمه حرام، وملبسه حرام، وغذى من حرام فأنى يستجاب له "[٦] وفى الاهتمام بالعمل دون تمييز عنصرى لنوعه أو جنسه نجد النبى صلى الله عليه وسلم يقول " إن الله يحب العبد المحترف

(١) رواه البخارى فى صحيحه كتاب البيوع.
(٢) رواه الطبرى، الترغيب والترهيب للمنذرىج٢ص٥٢٤
(٣) صحيح البخارى:٤٣٣/٣ رقم ١-١٤٧.
(٤) البخارى: ٤٣٣/٣ رقم ١٤٨٠.
(٥) رواه الترمزى كتاب البيوع وحسنه، والدارمى كتاب البيوع.
(٦) رواه الإمام أحمد عن أبى هريرة كنز العمال ٣٢٣٦

"[1] ويفاخر النبى صلى الله عليه وسلم بيد علاها الكد من عناء العمل فيرفعها ويقول " هذه يد يحبها الله ورسوله "[2] وفى رواية أنه قبلها. وعلى نفس الدرب سلك المسلمون نهج نبيهم صلى الله عليه وسلم فها هو الفاروق عمر يقول: " يعجبنى الرجل فأسأله عن حرفته فإذا لم أجد له حرفة سقط من نظرى " وكما سبق وأشرنا ليس مدار الشرف والخسة فى الإسلام يعود بالنسبة للعمل وعدمه فحسب، بل إلى آدائه على وجهه الأكمل، وهيئته الأتم مع الالتزام بأخلاقه وآدابه، وهذا ما يشير إليه قول النبى صلى الله عليه وسلم " إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه "[3] ومما يدل على تأكيد تلك المعانى السابقة أن كثيراً من أنبياء الله ورسوله كانوا أصحاب مهن وحرف، فما قصروا فى عملهم ومهنهم، بل أدوا واجبهم نحوها على أكمل ما يكون ملتزمين بآدابها وأخلاقها ليقدوا القدوة للبشرية جمعاء.وإذا كان ما تقدم يعبر بوضوح عن تصور الإسلام للمهنة أو العمل واحتفاءه بها فإن هذه النظرة الإسلامية نبعت من كون البشر خلق الله تعالى، ومن رحمته أن يسر لكل منهم حرفته ومهنته، فلا تفاضل بين مهنة وأخرى بالشرف أو الخسة، ما دام يأتيها صاحبها بحقها، ومن ثم كان قول النبى صلى الله عليه وسلم " اعملوا فكل ميسر لما خلق له "[4]. يقول الدكتور محمود حمدى زقزوق " إن كل عمل يسهم فى دفع عجلة الحياة وجلب الخير للمجتمع هو عمل شريف وصاحبه إنسان شريف يستحق كل التقدير ولا يجوز لنا أن نستهين بأى مهنة أو حرفة مهما بدت ضئيلة فإنها فى النهاية لها أهميتها فى حركة الحياة ككل، ولاتستقيم الحياة بدونها، والعمل الذهنى مثله مثل العمل العضلى كلاهما ضرورى لحركة الحياة ولايمكن الاستغناء بأحدهما عن الآخر وقد كان أنبياء الله تعالى جميعاً يمارسون بعض الحرف وفى مقدمتها رعى الغنم ولم يقلل ذلك من قيمتهم ومكانتهم"[5]، ومن هذا المنطلق تناول علماء الإسلام المهن المختلفة، وبيان أحكام الإتيان بها، والالتزام بآدابها دون تفرقة بين مهنة وأخرى. ولا أدل على ذلك من قول الإمام ابن تيمية " قال غير واحد من الفقهاء من أصحاب الشافعى وأحمد وبن حنبل وغيرهم كأبى حامد الغزالى وأبى الفرج بن الجوزى وغيرهما: إن هذه الصناعات: كالفلاحة والنساجة والبناية، فرض على الكفاية، فإنه لا تتم مصلحة الناس إلا بها "..... – ويقول فى موضع آخر- " إن هذه الأعمال التى هى فرض على الكفاية متى يقم بها غير الإنسان صارت فرض عين عليه، ولاسيما إن كان غيره عاجزاً عنها، فإذا كان الناس محتاجين إلى فلاحة قوم أو نساجتهم أو بنائهم صار هذا العمل واجباً يجبرهم ولى الأمر عليه إذا امتنعوا عنه بعوض المثل، ولا يمكنهم من مطالبة الناس بزيادة عن

(١) أخرجه الطبرانى، والبيهقى عن ابن عمر كنز العمال ٩١٩٩
(٢) الراغب الأصفهانى محاضرت الدباء ص٢٢٥ ط بيروت
(٣) أخرجه الإمام البيهقى كنز العمال ٩١٢٨
(٤) رواه مسلم فى صحيحه عن على رضى الله عنه.
(٥) يراجع د/ محمود حمدى زقزوق الإنسان فى التصور الإسلامى ص٩١ وكذا د/ سعد الدين صالح الأخلاق فى ضوء الفكر الإسلامى ص١٣.

عوض المثل، ولايمكن الناس من ظلمهم "[1]، هكذا نظر الإسلام إلى المهنة فى مصادره التشريعية، وتراث مفكريه، فأبطل الازدرائية التى تسيطر على مخيلة بعض الناس ممن لهم تصور عنصرى لحرف ومهن معينة، فجعل كل مجد فى مهنته وملتزم بأخلاقها يتهادى فخراً بهذه النظرة التقديرية النابعة من الموضوعية الملهمة من تشريع السماء، الذى صدع به خاتم الأنبياء عليه الصلاة والسلام.

(١) الإمام ابن تيمية الحسبة ص٢٨، ٣٠ –ط-دار الكتب العلمية بيروت وكذا د/ عمر سليمان الأشقر نحو ثقافة إسلامية أصيلة ص٣٣٠ –ط- دار النفائس ويراجع السفير محمد جبر الأخلاق والمال فى الإسلام –ط- المجلس الأعلى للشئون الإسلامية.

المبحث الثانى

مقاييس أخلاق المهنة ومنبعها

إذا ما أراد الإنسان أن يأتى بسلوك معين فى مهنة من المهن فإنه يحتاج إلى شيئين:
الأول: منبع منه يستمد الفعل ومن خلاله يستلهم السلوك.
الثانى: مقياس به يزن ما وصل إليه من خلال فعله.

وحول هذا المنبع والمقياس تباين الناس واختلفوا فمنهم من احتكم إلى عرف قائم وتقاليد مرعية، ومنهم من لاذ إلى ضميره ورآى فى أحكامه ركناً شديداً به يبصر الخير والشر، ومنهم من رضى بالمنفعة حكماً ودليلاً بها يهتدى إلى أنواع الفعل والسلوك، ومنهم امتطى صهوة عقله ومتن فكره ورأى فى ذلك طريقاً قويماً منه يستمد شرعية العمل وبه يزن السلوك. هذه وغيرها روافد وموازين تباين الباحثون فى فهمها، واختلفوا فى سبر أغوارها، نعرض لها بمشيئة الله تعالى فى الصفحات التالية بالتعريف والبيان معقبين عليها بما يليق بها.

أولاً: العرف:

(١) تعريفه:

يطلق العرف فى اللغة ويراد به التتابع، يقال:جاء القوم عرفاً أى بعضهم خلف بعض[(١)]، ومنه قوله تعالى فى سورة المرسلات "وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا " أى متتابعين، فإذا كان العرف فى اللغة يعنى المتابعة فإن "ليتريه" يرى أن العرف فى اللغة يعنى "العادة " ومن ثم يعرفه بأنه " طرف السلوك والعادات والآراء المتسلطة التى تختلف من شعب إلى آخر ومن عصر إلى عصر "[(٢)] والواقع أن العرف والعادة ليسا من الألفاظ المترادفة إذ العادة أسبق فى التكون والوجود من العرف، فإذا ما اعتاد الناس شيئاً يمكن أن يصير بعض أو جميع ما اعتاده الناس عرفاً بالمحاكاة أو التقليد. وإذا كان العرف قد فسر فى اللغة "بالمتابعة " فإن هذا المعنى اللغوى يقودنا إلى الوقوف على المعنى الاصطلاحى، إذ يعرف بأنه " متابعة الناس بعضهم لبعض فى عادة أو عادات متتابعة متكررة حتى تصير ثابته راسخة"[(٣)] ويعرف أيضاً بأنه "مجموعة القواعد التى درج الناس عليها جيلاً بعد جيل، والتى يشعرون بضرورة احترامها خشية الجزاء الاجتماعى الذى يصيبهم إذا ما خالفوها"[(٤)]. وانطلاقاً مما تقدم يمكن أن نبين أن لكل أمة من الأمم أعرافاً

(١) مباحث فى فلسفة الأخلاق ص١٥٣.
(٢) د/ السيد بدوى الأخلاق بين الفلسفة وعلم الإجتماع ص٢٧٧ –ط- دار المعارف.
(٣) مباحث فى فلسفة الأخلاق ص١٥٣ وكذا مقدمة فى علم الأخلاق ص٦٤.
(٤) أخلاقنا ص١١ وكذا د/ على معبد فى الأخلاق الإسلامية والإنسانية ص١٣٦-ط- دار الطباعة المحمدية.

وتقاليد خاصة بها، يعبر عنها سلوك معين، تعتبر خيرها فى اتباعه وتربى ناشىء الفتيان فيها على احترامه، فإذا ما انتهك من أحد أفرادها قوبل ذلك باشمئزاز من الآخرين.

(٢) أصل العرف:

تبين لنا أن العرف مجموعة من العادات والتقاليد والسلوك درجت على متابعتها أمة من الأمم، أوجماعة من الجماعات ومن ثم فليس مرد العرف دائماً فى أحكامه إلى العقل بل قد يرجع فى كثير من الأحيان إلى أصول حثت عليها غريزة من الغرائز، وقد يرجع إلى الحظ، والمصادفة، والتفاؤل، وقد يرجع فى أصله إلى واقع تاريخي فى حياة أمة من الأمم، بيد أن بعض الباحثين يأصلون للعرف بالدين –ويمثلون لذلك- بما يقوم به المسلمون من التضحية فى عيد الأضحى إحياء لذكرى فداء إسماعيل عليه السلام[١]، والواقع أن هذه النظرة تؤدى إلى الخلط بين العرف وقانون الأخلاق الإسلامى كمقياس خلقى كما أن هذا المثال السابق ذكره ليس فى أصله عادة أو عرف وإنما هو فى أصله وحقيقته تشريع إلهى، ولولا أنه كذلك لأحجم كثير من الناس عن إحياء هذه السنة.

(٣) قوة العرف وسلطانه:

مما لاشك فيه أن للعرف سطوة وسلطان على سلوك الأفراد، حتى رآينا كثيراً من علماء الاجتماع من أمثال "دوركيم" ومن تابعه يرون فيه وحده المصدر للإلزام الخلقى، فقواعد الأخلاق عندهم تفرض على الأفراد داخل نطاق مجتمع معين، ولكل شعب قواعد خلقية تسود فيه فى حقبة من الزمن، وباسم هذه القواعد يظهر الرأى العام سخطه أو رضاه، والأفراد داخل نطاق المجتمع يجبرون على الالتزام بهذه القواعد ولولم ترق لهم " فمجموعة التصورات الجمعية التى نتجت عن تبلور العادات والتقاليد هى التى تحدد ضمير المجتمع وهذا الضمير الجمعى هو الذى يتردد صداه أو ينعكس فى ضمير الفرد"[٢] ومن ثم فللعرف سلطانه وهيبته على نطاق الفرد ونطاق الجماعة، أما نطاق الفرد فكثيراً ما نرى اناساً تأثروا بعادات أقوامهم وتقاليدهم، وإن كانوا فى قرارة أنفسهم وطوية صدورهم لايوافقون على ما شايعوا الجماعة فيه، وأما نطاق الجماعة فإننا كذلك نلمح للعرف سلطاناً كبيراً على الأمم والحكومات، فكثيراً ما تشيع مفسدة فى مجتمع ما، بيد أن الحكومات لا تجرؤ على التعديل فيها إلا بقدر، حذراً لما يكون من العامة وأشباههم من ردود أفعال ومع هذا فكم للعرف من حسنات، فكم من مصل، ومخرج للزكاة، وممتنع عن شرب الخمر، لا لشىء إلا خضوعاً لعرف أهله وبلده وخشية لوم من

(١) مباحث فى فلسفة الأخلاق ص١٥٤، ١٥٥ ،
(٢) الأخلاق بين الفلسفة وعلم الاجتماع ص٦٩ وكذا أخلاقنا ص١١ وكذا أخلاق العلماء ص٢١.

لهم سلطان عليه ، ولقوة سلطان العرف، للصالح كثيراً اعتبره فقهاء الحنفية حجة ورأوا أن المعروف عرفاً كالمشروط شرطاً حتى قال قائلهم:

والعرف في الشرع له اعتبار لذا عليه الحكم قد يدار[1]

(٤) عدم صلاحية العرف كمنبع ومقياس للأخلاق المهنية:

تبين لنا فيما سبق اشتمال العرف على العديد من الجوانب الإيمانية بيد أن ذلك ليس على سبيل الديمومة، فقد يشتمل فى كثير من الأحيان على جوانب سلبية يكون لها تأثيرها الضار على تطور المجتمع المتمسك بها، ومن ثم فلا يصلح أن يكون منبعاً للأخلاق، أو مقياساً لها، وذلك لعدد من الأمور منها:

١- يشترط فى المقياس الأخلاقى المهنى أن يكون عاماً لا يختلف باختلاف البيئة أو العصور، أما العرف فلا تقترن به هذه الصفة إذ هو متغير ومختلف باختلاف الزمان والمكان. إذ إن لكل أمة عرفها الذى يختص بها ولكل قوم إرثهم وتقاليدهم، بل إن العرف ليختلف كثيراً فى الأمة الواحدة إذا تقدم الزمن بها ، فثمة أعمال تمسك بها الأولون ليقين منهم أنها خير فى ذاتها ومقصدها، فلم يلبث من خلفهم إلا أن أداروا ظهورهم إليها ورأوا فيها شراً مستطيراً فمن ذلك " وأد البنات الذى كان عادة متعارف عليها لدى العرب الجاهليين، حتى جاء الإسلام فأبطلها وصار لا يفكر أحد فى إتيانها، والرق كان متعارف عليه عند الشعوب القديمة وبمجيء الإسلام وانتشار المدنية تبين ما فيه من مناقضة للإنسانية فقضى عليه "[2]. ألم يأتك نبأ من" قوم برنو"[3] حيث زين لهم العرف أعمالهم فوهموا أن أحداً لا يستحق أن يخطب فتاة إلا إذا ضحى بإنسان قرباناً إليها، غاسلاً بدمائه تحت قدميها. إن هذا القتل الذى يعد سمة وعنواناً للنبل والشجاعة يعد جريمة منكرة يعاقب عليها عند من يتحاكمون إلى الشرع الالهى والقانون الوضعى على حد سواء لذلك قيل أن العرف مثله كمثل الريح، يمر على مزرعة ورد فيحمل رائحة الورد، ويمر على مزرعة فل فيحمل رائحة الفل، ويمر على مزبلة فيحما رائحة المزبلة فهو متغير، تراه فى مصر غيره فى انجلترا، وتراه فى جنوب افريقيا غيره فى بلاد القطب الشمالى، وبين رجال الدين غيره بين رجال المال والأعمال وهكذا وليس فى استطاعة "أخلاقى" أن يقيس أعمال الناس بمقياس شأنه ذلك"[4] ومن ثم لا يستطيع أن يقنن لها من خلاله.

(١) مباحث في فلسفة الأخلاق ص١٥٦.
(٢) المرجع السابق ص١٥٧ وكذا مقدمة في علم الأخلاق ص٦٤ وكذا أخلاقنا ص١١.
(٣) هم قبائل غرب بحيرة شاد بأواسط إفريقيا.
(٤) تأملات فى فلسفة الأخلاق د/منصور رجب ص٢٨٤، ٢٨٥ نقلاً عن أخلاقنا ص١٢.

٢- يقوم العرف فى كثير من الأحيان على أسس خاطئة مخالفة للدين والعقل والأخلاق.

٣- أن اتباع العرف فى كثير من الأحيان قتل لحرية التفكير لأنه يفرض أوامره فى كثير من الحالات فرضاً ولو التزم الناس العرف ووقفوا عند حدوده لما تقدم العالم ولأصيب بالجمود وحيل بينه وبين النهوض والارتقاء(١).

٤- أن الإلزام الذاتى خاصية مهمة للأخلاق المهنية خاصة، والأخلاق عامة وهذه الخاصية كثيراً ما نفتقدها عند الالتزام بأحكام العرف فكثير ممن تابعوا أعرافاً معينة قد رأوا فيها أغلالاً قيدت حريتهم لذا سرعان ما يتفلتون منها عند ذهاب سلطة المجتمع عنهم، ودوران الأيام بهم فى مجتمعات أخرى.

٥- كذلك نجد الذين يشايعون العرف كمصدر للأخلاق عامة، والمهنة خاصة يغالطون فيأتون بأمثلة جزئية يزعمون أنها من الأخلاق، ثم يثبتون أنها أمور اعتبارية أو نسبية تتواضع الأمم عليها، وليس لها حقائق ثابتة فى ذاتها، ثم ينقضون بها ثبات الأخلاق نقضاً كلياً(٢) بطريقة تعميمية لا يقبل العلم بها، حتى ولو كانت هذه الأمثلة من الأخلاق فعلاً لأنه لا يجوز الحكم على النوع من خلال الحكم على بعض أفراده، ما لم يثبت أن سائر الأفراد مشتركة بمثل الصفة التى كانت علة صدور الحكم على بعض الأفراد.

٦- كذلك يقودنا العرف إلى الاعتراف بأن المعيار الأخلاقى فى مجال المهنة وغيرها يتحقق من خلال تجريد الإنسان نفسه من كل نوازعه الداخلية، ومن كل ميل أو رغبة نحو التمرد على المجتمع ونظمه، وعلى هذا الأساس كيف نفسر ظهور المصلحين الذين يدفعون بمجتمعاتهم إلى الخروج من هذه العادة الفاسدة والأسمال البالية.

من أجل هذا وغيره تحدث الإسلام على الذين يتخذون من العرف منهجاً وسنناً عنه يصدر سلوكهم وبه يقيسون أعمالهم.فيقول سبحانه " وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ " البقرة ١٧٠. وقال تعالى "وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَى مَا أَنزَلَ اللّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلاَ يَهْتَدُونَ " المائدة ١٠٤وقال سبحانه "بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ " الزخرف ٢٢:٢٤.ويقول النبى صلى

(١) مباحث فى فلسفة الأخلاق ص١٥٨ وكذا مقدمة فى علم الأخلاق ص٦٥ ويراجع فلسفة الأخلاق ص٢٤٦.
(٢) الأخلاق الإسلامية وأسسها ط١ ص٩٢.

الله عليه وسلم" لا يكن أحدكم امعة، يقول إنا مع الناس أن احسنوا احسنت وإن اساءوا اسأت ولكن وطنوا أنفسكم أن احسن الناس أن تحسنوا وإن اساءوا أن تجتنبوا اساءتهم"[1] وهذا برهان على الانتقائية المتبصرة وليس الذيلية الخانعة.

(١) الترمزى فى السنن ٢١٣٨، البر والصلة.

ثانياً: الضمير

وحديثنا عنه إنما يتم فى ضوء ما أطلق عليه الفلاسفة اسم "الضمير المطلق" وقصدوا به "ضمير الفرد المتروك لحريته ولظروفه وغير الخاضع لأية قيم أو تعاليم"(١).

(١) تعريفه:

١- عرف الضمير بأنه قوة تميز الخير من الشر وتأمر بالأول وتثيب عليه بالارتياح والطمأنينة وتنهى عن الثانى وتعاقب عليه بالتأنيب والندم(٢).

٢- كذلك عرف بأنه القوة الخفية النابعة من نفس الإنسان التى توضح له طريق الخير، وترفعه إلى سلوكه وتبين له سبيل الشر، وتحذره منه، ويشعر الإنسان براحة فى طاعة هذه القوة، وبتأنيب عند عصيانها(٣).

٣- كذلك أيضاً عرفه "بتلر" بأنه " قوة حدسية عقلية دراكة، متميزة عن غيرها من قوى النفس وتهيمن على أهواء الإنسان ودوافعه وشهواته ونوازعه، وإن كانت أحكامها لاتقوم على استدلال منطقى أو تفكير نظرى معقد، وتؤدى وظيفتها تلقائياً من غير حاجة إلى خبرة حسية أو تأمل استدلالى"(٤).

٤- وعرفه معجم "الالاند" الضمير الأخلاقى بأنه " خاصية العقل فى إصدار أحكام معيارية تلقائية ومباشرة على القيمة الأخلاقية لبعض الأفعال الفردية المعينة. وحين يتعلق هذا الضمير بالأفعال المقبلة فإنه يتخذ شكل صوت يأمر وينهى، وإذا تعلق بالأفعال الماضية، فإنه يترجم عن نفسه بمشاعر السرور أو الألم وهذا الضمير يوصف تبعاً للأحوال المختلفة بوصف: الواضح، الغامض، المريب، المخطىء"(٥).

والمتأمل فى التعريفات السابقة يلمح فى التعريف الأول أنه ذكر أن الضمير" قوة"، بيد أنه خلا من بيان مكمن تلك القوة، خلافاً للتعريف الثانى الذى بين أن منشأ تلك القوة هى النفس الإنسانية، أما التعريف الثالث فإننا نلمح فيه تناقضاً غريباً عند "بتلر" حيث وصف الضمير بأنه " قوة حدسية عقلية دراكة " ثم نراه يعود بعد ذلك واصفاً أحكام هذه القوة بأنها "لا تقوم على استدلال منطقى " ولست أدرى كيف يكون كذلك، فى حين أنه قوة عقلية دراكة، أما التعريف الرابع فرأى فى الضمير " أن منبعه العقل ومن ثم فهو خاصية له وليس للنفس ثم نراه وقد وصفه بعد ذلك بأنه يترجم عن نفسه بمشاعر السرور أو الألم...إلخ " وهذه صفات ألصق للنفس منها من العقل كذلك نلمح فى هذا التعريف التعبير بكلمة

(١) الأخلاق فى ضوء الفكر الإسلامى ص٣٩.
(٢) مباحث فى فلسفة الأخلاق ص١٣٥.
(٣) أخلاقنا ص١٤.
(٤) فلسفة الأخلاق الخلقية ص٣٤٢.
(٥) د/ عبد الرحمن بدوة الأخلاق النظرية ص٥٦-ط- دار القلم بيروت.

"صوت" وهذه الكلمة كانت محل اعتراض من أحد أعضاء الجمعية الفرنسية للفلسفة وهم الذين راجعوا معجم "لالاند" حيث رأوا أن هذه الكلمة "تؤذن بالإشارة إلى اللاهوت "[1] وذلك يجعل من الضمير أمراً مفروضاً من الخارج على الإرادة وكأنى بهم وقد أرادوا تجريد الضمير من أى معنى دينى ورده فى كافة أحكامه إلى معانى ذاتية.

(٢) ماهيته:

اختلفت الآراء حول ماهية الضمير على مذاهب شتى من أهمها:

١- أن الضمير غريزة فطرية تولد مع الإنسان وبها يستطيع التمييز بين الخير والشر وذهب إلى ذلك "جان جاك رسو" و"إيمانويل كانت " و"بتلر" وغيرهم ويحتج على ما ذهبوا إليه من كون الضمير "غريزة فطرية" بأنه موجود عند الحيوانات العجماء فمن باب أولى يكون موجوداً عند الإنسان[2].

٢- أما المذهب الثانى فيرى أن الضمير مكتسب من البيئة ومن عادات المجتمع وهذا الرأى مناقض للرأى السابق، وعليه فالإنسان يولد وليس عنده شىء يسمى الضمير مطلقاً، وإنما هو مجرد من كل قوة من هذا القبيل، وأشهر دعاة هذا الرأى "جون لوك" و"دوركيم" و"كونت" و"ديدرو" و"دى مونتينى" وغيرهم[3].

والمتأمل فى المذهبين السابقين يجد أنهما لا يسلمان من النقد، أما المذهب الأول فيثبت عليه أنه لا حاجة إلى التربية والتعليم، إذ القوة المهذبة والمعلمة موجودة فى ذاتية الإنسان ترنوا به نحو الخير وتمنعه من الشر، ولاشك أن ذلك مما يجافى الصواب ويجانبه، إذ نشاهد الضمائر وقد اختلفت فى أحكامها باختلاف الأشخاص، بل إنها تختلف بالنسبة إلى الشخص الواحد حسب الظروف والأحوال، فلو أن الضمير قوة فطرية وغريزة طبيعية لكان حكمه واحداً لدى الجميع، وفى كافة الأحوال والظروف. أما المذهب الثانى فإنه يؤدى إلى نسبية الخير والشر إذ الضمير فيه محكوم بظروف البيئة والمجتمع، إذاً فالخير والشر يكونان على حسب ما أدى إليه نظر الفرد حسب الظرف الذى هو فيه فى البيئة والمجتمع

(٣) الدور الذى يقوم به الضمير فى أخلاق المهنة:

إن المتتبع للمذهبين السابقين حول ماهية الضمير يجد أنهما مع اختلافهما يلتقيان فى أن الضمير بالمفاهيم والمعانى السابقة، لهو مصدر الأخلاق فى مجال المهنة وغيرها، ومقياسها وضابطها، فما يراه خيراً يكون خيراً وما يراه شراً يكون شراً، وما يراه حقاً يكون حقاً، وما يراه باطلاً يكون باطلاً، وما يراه عدلاً

(١) الأخلاق النظرية ص٥٦.
(٢) فى الأخلاق الإسلامية والإنسانية ص١٤ ويراجع الأخلاق النظرية ص٦٢ وما بعدها وكذلك فلسفة الأخلاق ص١٦١.
(٣) فى الأخلاق الإسلامية والإنسانية ص١٦ وكذا أخلاقنا ص١٤ ويراجع الأخلاق النظرية ص٦٥ وكذا فلسفة الأخلاق ص١٦١.

يكون عدلاً، وما يراه ظلماً يكون ظلما....، وهكذا فى سائر أحكامه وتقديراته، ويرون كذلك أن للضمير أدوراً يمثلها فى مجال الأخلاق المهنية وغيرها حيث تتمثل في:

١- **الاكتشاف والتمييز:** وفيه يفرق الضمير بين طريق الغى وطريق الرشاد، فإن أبرز نتيجة اكتشافه انتقل إلى الدور الثانى.

٢- **الناصح الأمين:** وهذا هو الدور الثانى للضمير فإذا أتم مهمته ودفع العمل الإنسانى الصحيح بالفعل انتقل إلى دور القاضى العادل.

٣- **القاض العادل:** وفى هذا الدور يقوم الضمير بالحكم على الفعل الإنسانى فإن كان مطيعاً فهو مستحق للثواب، وإن كان عاصياً فهو مستوجب للعقاب.

٤- **السلطة التنفيذية:** وفى هذا الدور ينفذ الضمير ما أصدره من أحكام فى المرحلة السابقة، فيسبغ على من أطاعه حلل السعادة النفسية والراحة والطمأنينة، ويزيق من عصى أوامره وتوجيهاته سوط العذاب من التعاسة والندم[١]. إذاً ففلسفة الضمير فى مجال الأخلاق عامة، والمهنة خاصة، تظهر فى نواح ثلاثة:
- قبل قيام الإنسان بالعمل
- فى أثناء قيامه به
- بعد إتمام العمل

لكن الضمير لن يستطيع القيام بسلطاته ووظائفه فى مجال الأخلاق المهنية وغيرها إلا إذا استند على معيار ثابت عنه تصدر أحكامه، ومنه يستلهم أوامره. ولن يوجد ذلك إلا فى الدين وتعاليمه.أما الضمير المطلق فإنه فى كثير من الأحيان عرضة للزيغ والضلال فى أحكامه وتوجيهاته.

(٤) عوامل انحراف الضمير:

إن الضمير المطلق الذى نادى به كثير من فلاسفة الغرب كمصدر ومعيار للأخلاق فى مجال المهنة وغيرها تسهم عوامل كثيرة فى انحرافه عن جادة الحق والصواب، من هذه العوامل:

(البيئة) فكثيراً ما تنشأ فى البيئة عادات خاطئة يشب على حبها الولدان، ومن ثم تشكل ضمائرهم فلا ينزعجون إذا ما اقترفوها بل كثيراً ما يجدون الراحة فى ارتكاب تلك الآثام والشرور التى نشئوا عليها، ولا أدل على ذلك من عادة "الثأر" لدى بعض العائلات فى صعيد مصر.

(العواطف والانفعالات) فالمشاعر غير الواعية كثيراً ما تعمى الضمير عن الحق والعدل.

(١) فى الأخلاق الإسلامية والإنسانية ص٢٠.

(العادات السيئة) فالمرء إذا ما اعتاد فعل شيء قبيح فإن ضميره يتعود على ذلك الأمر، وكأنه أنس إليه أو رضى به، لأن الضمير من كثرة ممارسة صاحبه لذلك الأمر يأتى عليه وقت يفقد حساسيته بالنسبة لما اعتاد عليه.

(المصلحة الشخصية) فكثيراً ما يضعف الضمير أمام المنفعة الذاتية، أو المصلحة الشخصية، وإذا ما حاول الضمير أن يرفع صوته فسرعان ما يسكته صاحبه بالحجج والمسوغات الباطلة[1].

(١) يراجع فى الأخلاق الإنسانية ص١٨ بتصرف.

مدى صلاحية الضمير كمصدر ومعيار لأخلاق المهنة:

من خلال حديثنا السابق عن الضمير المطلق الذى وجد فيه بعض الأخلاقيين ضالتهم فاعتمدوه مصدراً أو معياراً للأخلاق عامة والمهنة خاصة، يمكن أن نقرر أنه لا يصلح أن يكون مصدراً للأخلاق المهنية ولا مقياساً لها وذلك لما يأتى:

١- أن تصور الضمير على أنه غريزة فطرية أو شئ مكتسب من البيئة كما سبق وتقدم يؤدى إلى نسبية الأخلاق ونسبية الخير والشر فى مجال العمل المهنى، وقد تقدم تفصيل ذلك وبيانه.

٢- أن الإنسان لا يمكنه أن يكتفى بضميره فى وضع القوانين الاجتماعية أو المهنية، والدليل على ذلك حالات الانهيار الاجتماعى والأخلاقى التى تسود المجتمعات فى فترات الإلحاد التى مرت بها قديماً وحديثاً.

٣- أن ما ذكرناه سابقاً من عوامل تؤدى إلى انحراف الضمير تجعلنا لا نركن إليه ولا نعول عليه كمصدر للأخلاق المهنية، أو مقياساً لها، ذلك أن كثيراً من الأفعال تحتاج إلى تحليل واستدلال لمعرفة ما إذا كانت خيراً أو شراً ومن ثم لا يكفى الضمير وحده لمعرفتها.

٤- أن الضمير المطلق نسبى متغير، ومن ثم لايمكن تأسيس الأخلاق على النسبى المتغير، لأنها ينبغى أن تكون عامة وكلية ومطلقة[١]. ولعل الدليل على نسبية الضمير وتغيره وجود ذوى الضمائر المريضة الذين يقترفون الآثام والشرور زاعمين راحة الضمير، وقد اشار القرآن الكريم إليهم بقوله " قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا " الكهف (١٠٤). يقول اندريه كريسون " الناس فى كل العصور وفى كل الأقطار يستشيرون ضمائرهم، ولكنها لاتسمعهم جميعاً لحناً واحداً لأن ما يظهر عدلاً وخيراً لبعض النفوس الإصلاحية والمخلصة فى عصر خاص لايظهر عدلاً ولا خيراً لنفوس أخرى[٢].

٥- كذلك نجد في تعريف الضمير كما هو موجود فى معجم "لالاند" أوصاف تقترن به تبعاً للأحوال المختلفة " من وضوح وغموض وريبة وخطأ"[٣] مما يجعلنا نتريث في الركون إليه كمصدر ومعيار للأخلاق المهنية وغيرها فمن كان صفته وحاله هكذا كيف يكون معياراً لتبين الخير والشر. !

٦- إن أحكام الضمير تكون مبهمة لا وضوح فيها فكيف نعتمدها منبعاً ومعياراً للأخلاق المهنية أو غيرها.

---

(١) مبادىء الأخلاقيات المهنية ص٩٥.
(٢) د/زكريا ابراهيم المشكلة الخلقية ص١٥ –ط- مكتبة مصر ١٩٦٩ م.
(٣) يراجع تعريف الضمير فى معجم لالانت فى الصفحات السابقة.

٧- وفى النهاية نجد أن كلمة "ضمير" من حيث هذا المفهوم الأخلاقى المطلق لا وجود لها فى معاجم اللغة العربية كما أنها من حيث فكرة مرجعيتها كمصدر للأخلاق، وضابط لها، ظهرت وانتشرت فى عصر النهضة الأوربية عندما قضى زعماء الثورة على الكنيسة فأشاعوا هذه الفكرة ; لتكون بديلاً عن الدين فى مجال الأخلاق فكانت النتائج على ما نراه اليوم(١).

ثالثاً: المنفعة:

يذهب أصحاب هذا الاتجاه إلى أن مصدر الأخلاق ومعيارها فى مجال المهنة وغيرها، إنما يعود إلى اللذة والمنفعة، فكل ما يجلب لصاحبه لذة ومنفعة، يعد فى نظرهم خيراً، وما يحقق شقاء وألما هو الشر الذى يجب تجنبه والاحتراز منه، ومن ثم تدور الفضيلة عندهم مع المنفعة وجوداً وعدماً. فالعامل الخير والممتهن الفاضل فى نظرهم هو من يتحقق له المنفعة واللذة من وراء عمله فإذا انعدما فلا خير ولا فضل.

تعريف المنفعة:

عرف "بنتام" المنفعة بأنها "خاصية الشىء التى تجعله ينتج فائدة، أو لذة، أو خيراً، أو سعادة، أو خاصية الشىء التى تجعله يحمى السعادة من الشقاء أو الألم أو الشر أو البؤس بالنسبة إلى الشخص الذى تتعلق به المنفعة(٢)" وانطلاقاً من هذا التعريف يمكن أن نلخص تعريف المنفعة بأنها " كل لذة أو كل سبب فى إيجاد لذة " أو هى " تحصيل اللذة والخلو من الألم".

عرض المذهب:

ترجع جذور هذا المذهب إلى الفيلسوف اليونانى "أبيقور" ٣٤١-٢٧٠ ق.م، ولم تتعرض نظرية المنفعة لتغيير أساسى منذ "أبيقور"حتى عصر النهضة الأوربى، أما فى القرن السابع عشر فإننا نجد اهتماماً بها عند "توماس هويز" الذى ذهب إلى أن "الإنسان ذئب بالنسبة لأخيه الإنسان، وستبقى طبيعته هذه ولن يغيرها ما يتلقاه الإنسان من تربية وتمدن، وآية ذلك أن المرء لا يطلب إلا لذاته ولو على أنقاض سعادة غيره، بل إنه ليجد لذة فى أن يشقى غيره ويسعد هو حتى يزعم لنفسه أنه أشد قوة وأعرف بطريق الخير والنجاح.ولكن كره الإنسان لغيره قد يتبدل بالحب إذا أمكن أن يؤدى هذا الغير خدمة ومنفعة له، وإن كان من الواضح أنه حتى فى هذه الحالة لا نحب هذا الذى أخذنا منه، بل نحب خيرنا الذى جاء عن سبيله "(٣) وبهذا عبر هوبر "عن المنفعة الفردية التى تعلى من شأن الأنا وتتلاشى بجوانبها الغيرية، ثم كانت بعد ذلك الصورة الحديثة والإضافات الحقيقية لمبدأ

(١) أخلاقنا ص١٥.
(٢) الأخلاق النظرية ص٢٤٨ ويراجع فلسفة الأخلاق ص٢٠٠.
(٣) مقدمة فى علم الأخلاق ص١٠٣

المنفعة على يد " جيرمى بنتام -١٧٤٨/ ١٨٣٢م- وجيمس مل ١٧٧٣/ ١٨٣٦ وابنه جون استيوارت مل ١٨٠٦ /١٨٧٣ م، والذى انبثق المذهب الأخلاقى لديهم فى مجال المهنة وغيرها من طبيعة التاجر الذى يحسب ويقدر خير الوسائل للاستثمار والكسب، وقد ارتبط هذا المذهب بنمو الثروة فى انجلترا فى النصف الأول من القرن لتاسع عشر، وقد تأثر بنتام بهوبز فى قوله " إن الإنسان بطبعه أنانى" ومن ثم كان مبدأ السلوك عنده هو أن " الإنسان يسعى إلى تحصيل أكبر قدر من المنفعة فإذا قلنا أن السعادة هى جماع اللذات، فإن مبدأ السلوك هو أن الإنسان يسعى إلى أكبر قدر من سعادته ومن ثم فالإنسان يسعى إلى تحصيل أكبر قدر من المنفعة لنفسه"[١].

وعلم الأخلاق بمختلف فروعه وتناولاته يقوم فى حساب اللذات التى تعد المنفعة وسيلة إلى تحقيقها، ويرى بنتام أن اللذة تفضل بحسب عدد الأشخاص الذين يشاركون فيها ومع ذلك فإنه يشترط فى تحقق هذه الفضيلة ألا تنطوى على تضحية من جانب الشخص للآخرين، وبالروح التجارية التى تسرى فى مذهب المنفعة راح بنتام يحدد قيمة اللذات بسعرها النقدى فيقول " إذا كانت النقود هى الأداة الجالبة للذة فمن الواضح بالتجربة القاطعة أن كمية اللذة الفعلية تتبع فى كل حالة معينة – وفقاً لهذه العلاقة أو تلك – كمية النقود والمقياس المشترك الوحيد الذى تقبله طبيعة الأشياء هو النقود "[٢] ويمعن "بنتام" فى تقرير النفعية كمبدأ أخلاقى يحكم المهن المختلفة وسائر التعاملات الإنسانية فيقول " لا تتصور أن الناس سيكلفون أنفسهم مشقة تحريك ضمير هم فى سبيل خدمتك، إن لم تكن لديهم مصلحة فى ذلك، فهذا أمر لم يحدث أبداً، ولن يحدث أبداً، طالما بقيت الطبيعة الإنسانية كما هى. لكن الناس سيرغبون فى خدمتك إن وجدوا فى ذلك مصلحة لهم، والفرص كثيرة التى فيها ينفعونك وينفعون أنفسهم فى نفس الوقت، وفى هذه الخدمات المتبادلة تقوم الفضيلة "[٣] ويرى بنتام كذلك أن أفعال الخير التى يؤديها الإنسان هى بمثابة صندوق توفير نضع فيه مبالغ من المال نعلم مقدماً أن فوائدها سيدفعها سائد الناس على شكل خدمات من كل نوع.

انتشار النفعية فى الفكر الحديث والمعاصر:

لقد تسللت المنفعة إلى شتى مجالات المعرفة البشرية، فبدت فى مجال اللاهوت عند من جعلوا الله ممثل النفعية فى أكمل صورها، كما يرى " وليم باليه" ١٨٠٥م، وتسللت النفعية إلى مجال الاقتصاد وبدت عند أمثال "آدم سميث". وغزت ميدان السياسة والتشريع على يد "pentley" ومن خاض هذا الميدان من تلامذة" بنتام". واتصلت بالفلسفة العملية الأمريكية عند "جون ديوى" ١٩٥٢م، و

(١) الأخلاق النظرية ص٢٤٨.
(٢) الأخلاق النظرية ص٢٥
(٣) الأخلاق النظرية ص٢٥١.

"بيرى" ١٨٧٦م، ومن إليهما، ثم كانت نفعية الأخلاقيين الذين دانوا بنظرية التطور كما تبدو عند " ستيفن، هربرت سبنسر، نيتشه،..... ومن اليهم[١].

مدى صلاحية المنفعة كمصدر للأخلاق المهنية ومعيار لها:

بعد أن عرضنا لمذهب المنفعة بشقيه الفردى والجماعى نجد أنه يتوجه إليه بكثير من الاعتراضات التى تبين تهافته من ذلك:

١- يشترط فى المعيار الأخلاقى أن يكون عاماً لايختلف باختلاف الزمان والمكان والأشخاص، ومذهب المنفعة على النقيض من ذلك تماماً ومن ثم فلا يصلح أن يكون مصدراً للأخلاق عامة والمهنة خاصة ولا مقياساً لها.

٢- أن المنفعة أكثر الأحيان تقوم على أسس خاطئة مخالفة للدين والأخلاق ومن ثم لايستقيم الأخذ بها كمعيار خلقى.

٣- أن كثيراً من المجتمعات قد عانت من حالات انهيار أخلاقى فلم تفلح المنفعة معها بل على النقيض من ذلك فإن أخلاق اللذة والمنفعة، هى التى تقود الشعوب والأمم إلى الإنحدار إلى وهدة الانهيار الأخلاقى.

٤- أنه بالتأمل فى مذهب المنفعة الفردية يتبين لنا أنه مذهب يصدم الحس الأخلاقى لدى الإنسان، فاعتبار دافع حب الذات أو حب البقاء بمبدأ أخلاقى أمر لايتفق وواقع وعينا الأخلاقى ولا يمكن ارجاع كل افعالنا الخلقية إلى هذا الدافع أو ذاك، كما لايتفق هذا المذهب وسمو الإنسانية[٢].

٥- كذلك نجد أن هذا المذهب قد فشل فى البيئة التى نبت فيها ولم يجد فى انجلترا من يناصره، بل على النقيض من ذلك ظهرت هناك اتجاهات تعارضه أشد المعارضة، وتقف فى سبيل انتشاره، كالاتجاه المثالى الذى عبر المانيا إلى بلاد الانجليز، واحتل تفكير رهط من كبار المفكرين هناك يتقدمهم " توماس هلجرين، ادوارد كيرد، وفرنسيس برادلى، وبرناربوذانكيت، وغيرهم.

٦- أيضاً نجد أن الحياة الأخلاقية تقوم على مجاهدة النفس والسعى لضبط الأهواء والميول. ولاتقوم إطلاقاً على إشباع الشهوات، والتمتع باللذات، وفلسفة اللذة والمنفعة تقوم على النقيض من ذلك تماماً. إذ من شأنها أن تجعل الحياة الأخلاقية هينة لينة، فى ظلها يفقد صاحبها القدرة على مقاومة نذواته، وتستبعد فكرة الإلزام أو التكليف من حياته.

٧- أيضاً من الخطأ الفادح أن توضع اللذة التى سبيلها المنفعة، غاية قصوى للأفعال الإنسانية. لأن هذا أنسب لحياة الحيوان منه لحياة الإنسان الذى لا تستقيم إنسانيته بغير مثال أعلى يدين به ويميزه عن سائر الكائنات.

---

(١) فلسفة الأخلاق ص٢٠٦، ٢٠٧ بتصرف.
(٢) يراجع مقدمة فى علم الأخلاق ص١٠٤.

٨- أيضا نجد فى مذهب المنفعة اضطرابا أدى إلى خلط أصحابه بين مدلول اللذة، ومدلول كل من المنفعة والسعادة، فتجاهلوا بهذا ما تشهد به التجربة من أن ثمة لذات تجلب الضرر على أصحابها، وثمة آلام بعقبها النفع على من نزلت بهم(١).

٩- كذلك يخطئ دعاة النفعية فى اقتصارهم على إقامة الحكم الخلقى على نتائج الأفعال وحدها. إذ إنهم بذلك تجاهلوا المقاصد والنوايا، مع مالها من أهمية جوهرية فى الفعل الخلقى.

١٠- إن المتأمل لأخلاق المنفعة واللذة، يجد أن الأنانية سمة لها، والأخلاق النفعية أخلاق تحفها الأنانية فى أساسها وتوجهاتها، وفى نظرتها إلى الإنسان، حتى فى محاولات "بنتام" اضفاء بعدً أخلاقي جماعي عليها، فإنه فى محاولاته لم يتجاوز الأنانية تجاوزاً حقيقياً، لأنه اشترط فى المنفعة والسعادة الجماعية ألا تنطوى على التضحية من جانب الفرد.

١١- أيضاً تهمل أخلاق المنفعة المثل العليا والروح الدينية الراقية، فهى لاتأخذ فى اعتبارها روح الدين بل تتغافل عن دوره فى الرقى الخلقى، وتنمية روح التضحية والاستشهاد(٢).

١٢- أن النظرة النفعية فى الحياة تتجاهل الجانب غير المادى فى الإنسان، ولاتعطيه قدره الذى ينبغى له، وهو جانب من الأهمية بمكان فى حياة الفرد ونظام الجماعة.

١٣- أن القول بالمنفعة كمصدر للأعمال ومعيار لها، يفسح المجال أمام الأثرة والأنانية والظلم وانتهاز الفرص، ويقضى على أخلاقيات هامة لاتتماسك قوام الأمم إلابها مثل الإيثار، والكرم، والتعاطف،

وغير ذلك من الأخلاقيات الخالية من المنافع المادية(٣).

١٤- أيضاً نجد واقع الحياة يكذب هذا المذهب، إذ ما زلنا نقرأ فى صحف الأبطال وقادة الأمم كيف سمت بهم هممهم إلى إطراح لذاتهم وما هم فيه من رفاهية العيش وهناءة البال، لاسعياً وراء لذة أو مسرة، بل لينقذوا غيرهم من بنى جلدتهم، غير مكترثين بما يصيبهم فى أنفسهم من أذى واهانة. وكأنهم يفرحون بما يدهمهم فى سبيل ذلك من نوازل الأحداث، وخطوب الزمن لا تهدمهم العظائم، ولاتفزعهم الشدائد(٤).

(١) الفلسفة الخلقية ص٢٠٨ بتصرف، ويراجع اد / محمد عبد المنعم القبعى الإسلام تعقل واستنباط ص١٠٣، ط دار الشعب.
(٢) مبادىء الأخلاقيات المهنية ص٨٩.
(٣) اخلاقنا ص١٨
(٤) احمد امين كتاب الأخلاق ص١١٦ نقلا عن اخلاقنا ص١٨

١٥- كذلك يرد على مذهب المنفعة أنه فى اتخاذها معياراً للأفعال الخلقية، تفضى إلى اللبس بين الحق والباطل، فطالما جر الباطل إلى لذة وحبور وجاء فى سبيل الحق مالا يوصف من الهموم والشرور. ومع ذلك فالحق أحق أن يتبع وما خير بخير بعده النار، وما شر بشر بعده الجنة[١].

من أجل هذا وغيره نعى القرآن الكريم على أصحاب هذا المذهب فنجد قول المولى سبحانه وتعالى: " وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ " النور ٤٨-٥٢.وقوله تعالى: "وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ الله لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُن بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا" النساء ٧٢-٧٣.كذلك نعى النبى صلى الله عليه وسلم على هذا المذهب بقوله " خير الناس أنفعهم للناس"[٢] وبقوله صلى الله عليه وسلم " المؤمن منفعة إن ماشيته نفعك، وإن شاورته نفعك، وإن شاركته نفعك، وكل شيء من أمره منفعة "[٣]، من هذا كله يتبين لنا أن المنفعة بأى معنى من معانيها لايعول عليها فى بناء الأخلاق وقياسها، فالفعل الخلقى لايكون خيراً باستمتاع صاحبه منه ولذته به وإنما يكون متعة لأنه خير فى ذاته. وما لذات الصابر على البلاء والنادم على الذنب إلا مثل حضه على بطلان المتعة العارضة.

العقل كمنبع ومعيار للأخلاق المهنية:

لقد اعتد بالعقل كأساس للحكم الخلقى فى مجال الأخلاق عامة والمهنة خاصة، كثير من المفكرين المحدثين على رأسهم: رينيه ديكارت، وليبنز، واسينوزا، ومن في عصرهم ممن ممثلى النزعة العقلية. وأتى من بعدهم صمويل كلارك، ورولاشون وغيرهم كثير. وقد آمن هؤلاءبالعقل الإنسانى كأساس للأخلاق فى مجال المهنة وغيرها ومصدرها ومعيار وضابط لها. فما حكم العقل بخيره كان خيرا، وما حكم بشره كان شراً. ومن ثم ألقى هؤلاء المفكرون ومن تابعهم زمام الثقة إلى العقل وأحكامه، ورأوا فيه المقدرة التامة على وضع القانون الأخلاقى فى كافة المستويات والأصعدة. "فديكارت" مثلاً وإن لم يفرد الأخلاق بكتاب مستقل بذاته إلاأنه "حرص على أن يمكن لسلطان العقل ويعلى من شأن إرادة الإنسان وحريته: فالفضيلة عنده تتحقق متى توافر للإنسان عقل يمتاز تفكيره بالوضوح والتميز"[٤]. ويأتى "اسبينوزا " ليؤكد على القيمة العقلية فى مجال الحكم الخلقى،

(١) الخلق الكامل ص٢٠٨ نقلا عن اخلاقنا ص١٨
(٢) الدراقطنى في الافراط والضياء عن جابر كنز العمال ٦٧٩
(٣) أبو نعيم في الحلية فيض القدير رقم ٩١٦١
(٤) فلسفة الأخلاق ص١٠٥ ويراجع الأخلاق بين الفلسفة وعلم الاجتماع ص٢٥٠.

فيرى أن العقل "قوة من قوى الطبيعة ونظام الأفكار التى تحدد فضائلنا بالضرورة، والإنسان مقود بعقله بالضرورة. والفضيلة قوة العقل، والرجل الذى يرشده عقله يحب ذاته حباً صحيحاً، لأنه يحب ما فى ذاته من أمور إيجابية وما يؤلف مبدأ قوته. والناس المسترشدون بالعقل يتحدون فيما بينهم ليس فقط بالأساليب التى يتخذونها فى الحياة بل وأيضاً بالغاية التى ينشدونها. والناس الذين يوحد بينهم العقل لهم روح واحدة ويؤلفون جماعة واحدة قانونها هو السخاء:وهو رغبة كل واحد منهم أن يساعد سائر الناس وأن يصادقهم بناء على أوامر العقل وحده "[1]. هذا هو مجمل تصور العقليين للعقل كمصدر ومعيار للأخلاق فى مجال المهنة وغيرها، والأن نعرض لمدى صلاحية العقل من خلال التصور السابق لأحكامه، كمنبع ومقياس للأخلاق المهنية.

المقياس العقلى فى مجال الأخلاق المهنية فى الميزان:

من خلال ما تقدم من حديث عن العقل ودوره فى المجال الأخلاقى، يمكن أن نورد عدداً من الملاحظات التى من خلالها يكون عمل العقل- مطلقاً بلا قيد-درب من العبث من ذلك.

١- أن المقياس الخلقى يشترط فيه أن يكون عاماً لا يختلف باختلاف الزمان والمكان والعقل ليس كذلك بل هو فى تفكيره وادراكه للأشياء وإبداء الحكم عليها يختلف باختلاف الزمان والمكان، بل ويختلف فى حق الشخص الواحد من مرحلة عمرية إلى أخرى تبعاً لما يحيط بها من ظروف وأحوال.

٢- أن العقل فى أحيان متعددة يقوم فى أحكامه وتصوراته، على أسس خاطئة مخالفة للدين والتربية وتهذيب الأخلاق.

٣- أن العقل محدد وقاصر، لاعلم له إلا بظواهر الأشياء وهو عاجز تماماً عن استكناه النفس الإنسانية ووضع القانون الذى يلائم طبيعتها، لأن هذا من اختصاص من خلق النفس و يعلم كنهها وما يصلحها، وما يناسبها من تشريعات.

٤- إذا ما استطاع عقل بشرى أن يضع تشريعاً، فإنه سوف يكون قاصراً ومحدوداً لأنه لن يستطيع أن يقيم العدل بين الناس جميعاً. بصرف النظر عن أجناسهم وألوانهم. إذ الناس مختلفون أشد الاختلاف فى العقول والاستعدادات والبيئات، وكل ذلك يقف عقبة أمام العقل البشرى المحدود فى وضع التشريع الذى يحقق العدل بين الناس كافة.

٥- أن العقل فى أغلب أحواله يقنن للأشياء ويصدر حكمه عليها تبعاً للمصلحة، وأمر كهذا من شأنه أن يقودنا إلى نسبية الخير والشر والفضيلة، والرذيلة وما

(١) الأخلاق النظرية ص٢٦٢.

يقترن بهما من أسس وأحكام. لاسيما إذا ما تضاربت المصالح وتعارضت المنافع، وكثيراً ما يقع ذلك. ومن ثم يرى "اسبينوزا" أن " الخير والشر أمران نسبيان ولهذا فإن الشيء الواحد يرى خيراً أو شراً وفقاً للأوجه التى ننظر منها إلى الشيء"[١] وهذه دعوة للسوفسطائية ومذهبها فى مجال الأخلاق.

٦- كذلك نجد حالات الانهيار الاجتماعى والأخلاقى التى تسود المجتمعات فى فترات الإلحاد قديماً وحديثاً، خير شاهد على عدم كفاية العقل للتقنينات الأخلاقية، ووضع أطر الفضيلة ومعايير الخير والشر بين الناس.

٧- أيضاً نجد أحكام العقل المطلق لايأخذ صاحبها إلا برأيه الذى كونه لنفسه، غير مقيد بعرف أو قانون أو مبدأ نظرى عام[٢].

٨- أن العلوم العقلية تصيب وتخطىء والقانون الأخلاقى الذى ننشده لابد له من مصدر معصوم[٣].

٩- كذلك نجد عوامل كثيرة تحول بين العقل وبين التفكير المستقيم، والوصول إلى الحكم الصحيح على الأشياء منها:

- اتباع الهوى

وقد حذر الإسلام منه، فى قول الله سبحانه وتعالى: "ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ".

- التقليد

و من خلاله يسلم الإنسان زمام عقله لغيره، ومن ثم حكى القرآن الكريم عن قوم ضلوا قولهم " إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ" الزخرف (٢٣) وهذا هو التقليد.

- الافتتان بمشاهير المجتمع:

وقد حذر الله سبحانه وتعالى منه في قوله:" اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُواْ إِلاَّ لِيَعْبُدُواْ إِلَـهًا وَاحِدًا لاَّ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ" التوبة (٣١).وقد سئل النبى صلى الله عليه وسلم: كيف يعبد هؤلاء أحبارهم ورهبانهم ؟ فقال: "أحلوا لهم الحرام فأطاعوهم وحرموا عليهم الحلال فأطاعوهم ". وما اتباعهم لهم إلا افتتاناً بهؤلاء المشاهير من أصحاب السلطة الدينية.

- الإرهاب الفكرى

(١) الأخلاق النظرية ص٢٦٣.
(٢) مباحث فى فلسفة الأخلاق ص١٥٢.
(٣) الإمام الغزالى الرسالة اللدنية من مجموعة القصور العوالى.ص١١٠ ط تج الشيخ محمد مصطفى أبو العلا –م- الجندى بتصرف ويراجع أخلاق العلماء ص٢٢.

فمتى شعر العقل بالمؤاخذة على تفكير يبديه، أحجم واحتفظ به داخله، وربما تعطل عن التفكير نتيجة الإرهاب المتسلط عليه، وربما حصر تفكيره فيما يرضي به المستبدين، وهذا ما دعا فرعون إلى أن يعلن في تسلط وتجبر قائلاً:" مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ "[1]. غافر (٢٩)

لأجل ما تقدم وغيره يمكن أن نقرر أن العقل الإنسانى لايمكن أن نركن إليه فى تكوين قانون للأخلاق في مجال المهنة أو غيرها.

التشريعات الوضعية:

وهذا معياراً اتخذته كثير من الأمم والشعوب-على إطلاقه- أساساً لتوجهاتها فى مختلف نواحى حياتها، وفى مقدمتها الجانب الأخلاقى المهنى وغيره من الجوانب الأخلاقية الأخرى.

تعريف التشريعات الوضعية:

هى مجموعة الأوامر والنواهى التى وضعها البشر لأنفسهم.فكل أمة لها قوانينها الخاصة التى وضعها الحاكم مباشرة أو بواسطة الهيئة التشرعية، فيطيعها الناس ويتخذونها مقياساً لهم، يشكلون أعمالهم على غرارها رغبة أو رهبة[2].

مظاهر التشريعات الوضعية فى التاريخ الإنسانى:

لقد عرفت البشرية فى حقبها المختلفة كثيراً من القوانين الوضعية. والتى تمثل صبغة فكرية مرت بها أمة من الأمم فى حقبة زمنية معينة، فمثلاً كان التشريع الوضعى فى عهد الدولة الرومانية التى اهتمت بصورة عملية بالتنظيمات والتشريعات التى تكفل استتباب الأمن، وتحقيق العدالة فى أنحاء امبراطوريتها الشاسعة، ومن ثم اهتموا (بوضع الأسس والقواعد العملية لتنظيم الدولة وتحديد حقوق المواطن وواجباته.....).ومن خلال ذلك استطاعت أن تبنى عظمتها وتخلد فى التاريخ بفضل صرامة الخلق وقوة العزيمة واخضاع حياة الناس، وتصرفاتهم لنظام دقيق فى ظل القانون.... ولقد كانت القوانين الرومانية تعطى الإطار العام للعلاقات التى تنظمها، وتترك التفاصيل لتنظمها الجماعات المختلفة حسب أعرفها وتقاليدها[3].

وفى العصر الحديث رأينا "فرانسيس بيكون" وقد عول على القانون الوضعى وقال بأولويته على القانون الطبيعى.ثم كان "جان جاك رسو" ١٧١٢ - ١٧٧٨م الذى أكد على وجود التشريعات الوضعية حيث جعلها مرهونة بوجود

(١) يراجع الإسلام تعقل واستنباط ص٤٨ بتصرف وكذا د/ أحمد حسن فرحات وآخرون الفكر الإسلامى ص٢٥ –ط- جامعة الإمارات
(٢) مباحث فى فلسفة الأخلاق ص١٦٢ وكذا مقدمة فى علم الأخلاق ص٦٥ ويراجع فى الأخلاق الإسلامية والإنسانية ص٣٠.
(٣) الأخلاق بين الفلسفة وعلم الاجتماع ص٦٢.

المجتمع البشرى. ثم كان بعد ذلك المدرسة التى تأثرت بأفكار هيجل، ودوهرنج، والتى ذهبت إلى أن الدولة هى المصدر الأوحد للقانون، فهى وحدها التى تصنعه. ثم كانت المدرسة الماركسية التى رأت فى طبقة العمال مصدراً للتشريع الوضعى، ومن ثم رأت فى الاشتراكية قانوناً يجسد العلاقات التى تتميز- من وجهة نظرها- بالتعاون الأخوى والمساعدة المتبادلة والتى توفر أساساً متيناً لبناء الشيوعية، وهذا القانون فى نظرهم يمثل إرادة الشعب الذى أعطى قوة الوضع القانونى[1].

مدى صلاحية التشريعات الوضعية كمنبع ومعيار للأخلاق المهنية:-

عرفنا فيما سبق تباين وجهات النظر حول القوانين الوضعية من خلال مصدر التشريع والإلزام فيها.... الخ، مما يجعلنا نقول بأن القوانين الوضعية لاتصلح أن تكون مقياس للأخلاق فى مجال المهنة، أو غيره من المجالات نظرا لما يأتى:

١- أن القوانين الوضعية ليست ثابته بل هى عرضة للتغيير والتعديل، أما المقياس الخلقى فشرطه أن يكون ثابتا لا يتغير.

٢- أن التشريعات الوضعية ليست عامة لكل الناس. إذ إن لكل أمة قوانينها الخاصة بها، وهذه القوانين تراعى فى اعتبارها ما فى المجتمع من عادات وتقاليد وأعراف، أما المقياس الخلقى فمن شروطه أن يكون عاماً وشاملاً.

٣- كذلك نجد القانون الوضعى لا يهتم فى أحكامه إلا بما ظهر من الأعمال، أما المقياس الخلقى فإنه لابد فيه من مراعاة العمل ونية العامل.

٤- أن القانون الوضعى يعاقب المتمرد ولا يثيب الطائع، بعكس القانون الأخلاقى الذى يعاقب العاصى بالتأنيب أو الاحتقار، ويثيب المطيع بالرضا أو الاحترام.

٥- كذلك نرى القانون الوضعى لايكلف الإنسان إلابما هو ضرورى له ولمن حوله، أما القانون الأخلاقى فيكلف بذلك، وبالكمالات التى تزيد فى سعادة الإنسانية ورفاهيتها، وتصل بين المرء والمثل الأعلى للحياة الأخلاقية الكاملة[2].

٦- كذلك نجد التشريعات والقوانين الوضعية، وقد تأثرت فى حياتنا بالعرف الخاضع للأهواء، والبيئات الطبيعية الاجتماعية. وإذا كنا قد اثبتنا عدم صلاحية العرف المطلق بأن يكون مقياساً أخلاقياً، فأحرى بنا أن نقرر فى

(١) مبادىء الأخلاقيات المهنية ص١١١ وما بعدها بتصرف.
(٢) يراجع مباحث في فلسفة الأخلاق ص٦٦ وكذا مقدمة فى علم الأخلاق ص٦٤ وأيضاً فى الأخلاق الإسلامية والإنسانية ص٣٢.

جلاء أن ما نشأ عن العرف من تشريعات وضعية، هى من باب أولى لاتصلح لأن تكون مصدراً للأخلاق أو معياراً لها[1].

٧- كذلك مما يعين على تبصر عدم صلاحية التشريعات الوضعية كمعيار للأخلاق المهنية، حالات الانهيار الأخلاقى التى تمر بها المجتمعات، وحالات الخرق للأخلاقيات المهنية فى شتى المجالات والتى كثيا ما نسمع عنها فى مجال، الاستنساخ، وزراعة الأعضاء..... الخ كل ذلك وغيره.مما يجعلنا نتشكك فى صلاحية التشريعات الوضعية منفردة أن تكون مصدرا ومقياسا للأخلاق.

٨- أيضاً نرى كثيراً من التشريعات الوضعية، وقد انتهكت تحت ستارها الفضيلة، وانتهكت فى حماها الأخلاق. ولا أدل على ذلك من التشريعات التى أباحت الشذوذ، واعترفت به فى كثير من المجتمعات الغربية.

٩- كذلك نجد التشريعات الوضعية، وقد افتقدت أهم خاصية من خصائص التشريع، وهى عنصر الإلزام والاحترام الذاتى، الذى يجعل الناس يلتزمون بها دون خوف من العقاب. قد يقول البعض أن الشرطة والسجن والقضاء تكفى لتوفير عنصر الإلزام. ونقول: ومن الذى يحاسب الذين يخونون قوانين الدولة وتشريعاتها، ويخرجون عليها خفية دون أن يثبت عليهم ذلك ؟! ومن الذى يحاسب السارق الذى لم تثبت عليه جريمة السرقة من خلال القوانين الوضعية؟ ومن الذى يحاسب القاتل الذى برأته قوانين الدولة ؟؟

١٠- أن التشريعات الوضعية غير معصومة من الخطأ نظرا لبشريتها، ومن ثم فهى عاجزة عن الإحاطة بمكونات شخصية الإنسان الذى ينبغى أن تقود سلوكه.كذلك هى عاجزة عن الإحاطة بمقتضى هذا التكوين، وما يلزم للاستجابة له. بمعنى أنها عاجزة عن تلبية حاجاته، فهى تعالج سلوكيات الإنسان من خلال رؤيتها لها شخصياً بمنظارها المحدود غير المحيط، وتعالج ظواهرها كما تبدوا لها وليس كما هى فى الواقع ونفس الأمر.

١١- إذا كانت التشريعات الوضعية تمثل حصادا لنتاج العقول البشرية، فإنها بالتالى تحمل فى ذاتها دوافع مقاومتها. فليس أجرأ على العقل من العقل، ومن ثم فهى تغرى بالمخالفة انطلاقاً من تصورها وبشريتها، وبالتالى فإن مخالفة مبدأ من المبادىء الأخلاقية الاجتماعية، يأخذ من الشرعية بمقدار ما يأخذ المبدأ ذاته فى غالب الأحيان، ولا تتعدى حينئذ مخالفتها أن تكون مجرد مقاومة عقل بعقل ليس أحدهما أولى بالاتباع من الآخر. ويصح القول حينئذ بأن العقل المشرع ليس أولى بالسيادة من العقل الذى يستقبل هذا التشريع. ولاشك أن هذا الموقف فى حد ذاته، يفضى إلى الارتباك والنسبية، ومن أولى ما يجب أن تتمتع به المناهج الأخلاقية الاجتماعية التى هى جديرة

(١) فى الأخلاق الإسلامية والإنسانية ص٣٢ وكذا المختصر فى العقيدة والأخلاق ص٣١.

بقيادة المجتمع، إنما هو الإطلاق والإلزام. هذا وإذا فوضنا المصدر البشرى فى التشريع الأخلاقى فإننا سوف نرى من التضارب والتناقض فى أخلاق الجماعة ما نراه بين مذاهب الفلاسفة حول مفهوم الخير والشر والفضيلة والرزيلة، وهو أمر مفزع كفيل بتفريق أمر الجماعة سواء فى الفكر أو فى السلوك ويكفى لتمثيل هذه الخطورة أن نستقرىء موقف الفلاسفة فى مفهوم الخير والشر كمثال على ذلك(١).

قانون الأخلاق فى الإسلام

عرفنا مما سبق أن المعايير الأخلاقية من " عرف، وضمير، ومنفعة، وعقل، وتشريع وضعى"

غير صالحة-على إطلاقها- للتقنين في مجال الأخلاق المهنية، أوأن تكون مقياساً لها.و قد سبق بيان علة ذلك.أما بالنسبة للإسلام وما نستخلصه من تشريعاته فإنها جديرة بأن تكون منبعاً للأخلاق المهنية وغيرها وأن تكون معياراً تقاس به تلك الأخلاقيات. فلقد تعارف الناس – فى ضوء معايير شهد الواقع بصدقها – أن أى صنعة لشىء مما تناولته أيديهم إذا حدث به عطب أو خلل فإنهم يردونها إلى من هو أعلم بها، والأعلم بها هنا هو صانعها ومنشؤها، الذى يمد الناس بداية بطرق العناية بها، ومثالية الاستعمال لها، كى يضمن الجودة والاستمرارية لما صنع.وانطلاقاً من ذلك فالإنسان والكون الذى طرء عليه صنعة الله تعالى، ومن ثم فإنه سبحانه هو الأقدر وليس غيره، على وضع وتشريع ما يضمن له حسن عمله وعمارته لهذه الحياة، وحسن استخلافه فيها، فمن قوَم له خلقه هو الأقدر على أن يقوم له خُلقه ومن ثم كان قول الله تعالى" أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ" الملك (١٤)

من أجل هذا، كان تبيان وتفصيل النظام الأخلاقى الحق، بلا إيهام أو خلط في كتاب الله سبحانه وتعالى: " مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ" يوسف (١١١) وليس هذا التفصيل عن جهل أو عبث، وإنما موضوعية عالم، يهدى به من استمسك بحبله، واعتصم بحكمه "وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ" الأعراف (٥٢) "وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ" النحل (٨٩).

ولكى نكون على بينة من هذا فإننا نتناول قانون الأخلاق الإسلامى من خلال عدة جهات:

أولاً: جهة الواضع (المصدر):

(١) يراجع أثر الإسلام فى بناء المجتمع الفاضل د/ محمود عبد المعطى بركات ص٣٣ بتصرف.

أما الواضع فهو الله تعالى الذى خلق الإنسان وخلق الكون والحياة، وإذا كان الأمر كذلك فهو الأعلم بما يصلح حال الإنسان والكون الذى طرء عليه، ومن ثم فإن الله تعالى هو الأجدر بوضع القانون الذى به يتعامل الإنسان مع بنى جنسه ونوعه، وبه أيضاً يتعامل ويتفاعل مع كافة مناشط الحياة.فى حين أن المعايير الأخلاقية السابقة عاجزة عن أن تقود مسيرة الإنسان فى الجانب الأخلاقى وذلك لأن "الأخلاق الإنسانية فى وضعها السليم ينبغى أن تكون معصومة المصدر، ولا يكون مصدرها إلا إلهياً. وإلا سقطنا إلى الإذعان لكم هائل من المتناقضات فى الأخلاق والسلوك الاجتماعى"(١).

ثانياً: جهة الموضوع:

وإذا أتينا إلى جهة ما تناولته القوانين الإلهية من حيث موضوعها، فإننا نراها وقد تمثلت فى مجموعة الأوامر والنواهى التى شرعها الله سبحانه وتعالى لخلقه، والتى لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها، وذلك لأنها نزلت من لدن حكيم خبير عليم، وقد شرعها لنا لتكون مشعلاً نهتدى به فى جميع أمورنا، ونسير على سنتها فى معاملاتنا وسائر أحوالنا. وهذه القوانين التى توجت بالشريعة الإسلامية ثابته لاتغيير فيها ولا تبديل، عامة خالدة، صالحة لكل زمان ومكان ولجميع الناس على السواء، فهى لذلك صالحة لأن تكون مقياساً أخلاقياً إذا فهمنا حكمها وأسرارها(٢)، فهماً مستقيماً. من هذا المنطلق تفرعت الأخلاق فى الجانب المهنى وغيره من الجوانب الحياتية عن القوانين الإلهية، فصدرت منها ونبعت عنها. ولو فهمت القوانين الإلهية- لاسيما فى الدين الإسلامى – حق فهمها لتكون منها مذهب خلقى لايقف بأثره عند حدود المجتمع الإسلامى فحسب، بل سيمتد ليشمل المجتمع الإنسانى والكون كله. ولا غرابة فى ذلك فالقانون الإلهى كمرجعية أخلاقية يطالب الناس كل الناس، ويلتمس منهم إقامة نظام للحياة ينهض بنيانه على المعروف، ولا يشوبه شىء من المنكر، يدعوهم إلى أن يقيموا الخيرات فى كل زمان ومكان، وأن يشيعوا الفضل والمعروف فى العالم بأسره، وذلك لأن القيم الإسلامية التى استلهمت مادتها من هدى السماء تحقق وظائف عدة: ففيما يتعلق بالفرد تحاول هذه القيم رفعه فوق مرتبته الراهنة، وتعمل على العلو به عن المستوى الحيوانى الذى يقف على أعتاب المادة متبتلاً فى محرابها، إلى المستوى اللائق به كإنسان نفخ فيه من روح الله واستخلف فى الأرض من قبله سبحانه لعمارة الكون والحياة.وفيما يتعلق بالمجتمع فإنها تحقق أعظم رابط بين أفراده، إذ تسمو بالجماعة من المرتبة الحيوانية إلى المرتبة الحضارية والمدنية، وتقيم

(١) أثر الإسلام فى بناء المجتمع الفاضل ص٢٨، وكذا فى الأخلاق الإسلامية والإنسانية ص٧٦.
(٢) مباحث فى فلسفة الأخلاق ص١٦٣ بتصرف، وكذا مقدمة فى علم الأخلاق ص، ٦٦ ويراجع أخلاق العلماء ص٢٥.

الصلات بين الأفراد والهيئات على أسس كريمة وغايات نبيلة.من هذا المنطلق يمكن القول أن قانون الأخلاق الإسلامى من حيث موضوعه لم يدع "صغيرة ولا كبيرة تتعلق بالنشاط الإنسانى إلا وقد رسم لها منهجاً للسلوك تفصيلاً حيناً وإجمالاً حيناً آخر، فنظم علاقة الإنسان بربه تبارك وتعالى، ونظم علاقة الإنسان بنفسه، وعلاقته ببنى جنسه، بل تخطى ذلك إلى علاقة الإنسان بالكون "[1].

ثالثاً: جهة أساس التشريع:

ومن خلال هذه الجهة يرتكز قانون الأخلاق الإسلامى فى القيام على الحكم المعقولة، والمبررات المقبولة، التى تخاطب الإدراك السليم، والوجدان النبيل، بالأسباب المقنعة التى تبرر أمر السماء وتبين أنه ليس تحكماً مفروضاً بلا تعقل. بل شُرع لمصلحة اقتضت ذلك ومن أعلم بمصلحة العباد من خالقهم. لذا كان قول الله تعالى "إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر" وقوله تعالى "خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتذكيهم بها " فقانون الأخلاق فى الإسلام حين يطالب الإنسان بشىء أو ينهاه عنه، لا يرضى منه أن ينفذ ذلك تنفيذاً قسرياً آلياً خضوعاً لصولة حكمه فحسب، وإنما يطلب من الإنسان أولاً وقبل كل شىء أن تسرى هذه الأوامر فى كينونته حتى تنفذ إلى أعماق ذاته، وشغاف قلبه، فيتشربها، ثم تفيض منه انبعاثاً نفسياً وذاتياً[2].ومن ثم كانت أول خطوة يخطوها الإنسان نحو الواجب المهنى وغيره هى الإيمان بذات الفعل وأخلاقيته، وكانت الخطوة الثانية، أن ينبع الفعل من ذات الإنسان ونفسه، وإلا كان عمله فى نظر قانون الأخلاق الإسلامى هباء منثورا.

رابعاً: الباعث على العمل والدافع عليه:

ونلج إلى هذه الجهة من خلال المسئولية الخلقية للإنسان بالنسبة لأعماله. حيث جعل قانون الأخلاق الإسلامى الإنسان مسئولاً عنها " إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَـئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً " الإسراء (٣٦). ومن هنا تظهر فائدة الأخلاق الدينية للكون كله لأن هذه الأخلاق تسأل الإنسان أمام محكمة ذاته، المؤسسة على تعاليم خالقها وباريها، وتسأله أيضاً فى ساحة العدل الإلهى الذى لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا حاسب عليها.من هذا المنطلق كان من بواعث العمل فى الحياة الطمع فى ثواب الله، والخوف من عقابه، يقول سبحانه فى حق الثواب " إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ " البينة (٨، ٧). ويقول سبحانه وتعالى فى مقام العقاب " قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ

(١) فى الأخلاق الإسلامية والإنسانية ص٧٢.
(٢) المرجع السابق ص٧٧ بتصرف.

يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا" الكهف (١٠٥، ١٠٤، ١٠٣).. وليس رد الباعث إلى الثواب والعقاب هو كل ما فى قانون الأخلاق الإسلامى، بل هناك أيضاً الواجب لذات الواجب والحق لذات الحق، الذى من خلاله يكون الفعل لله تعالى وبالله وإلى الله.وهذا هو الباعث الأعلى والمقصد الأسمى فى نظر قانون الأخلاق الإسلامى " وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَى إِلَّا ابْتِغَاء وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى وَلَسَوْفَ يَرْضَى " الليل (١٧-٢١) ويقول المولى عز وجل "ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله " وفى حق الارتياح والرضى لأداء الواجب يقول تعالى " وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ " الغاشية (٨) ويقول النبى صلى الله عليه وسلم " من سرته حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن" [١].
وعندما يتحدث القرآن الكريم عن المقيم فى الجنة يعقب ذلك بقوله " وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ " التوبة(٧٢).وفى هذا تأكيد للباعث الروحى من الالتزام الخلقى فى مجال المهنة وغيرها، وتأسيساً على ما تقدم يمكن القول " إذا كانت أنواع الأغذية التى قررها القرآن الكريم للفضيلة والرزيلة لاتحصى كثرة، إلا أن الهدف الذى وضعه نصب عين العامل، هدف واحد لاتعدد فيه وهو وجه الله سبحانه وتعالى محضاً خالصاً، وهذا تعبير روحى عن معنى آداء الواجب لذاته، وهو معنى نجده فى القرآن فى أكثر من ألف موضع. كلها تحث على الفضيلة لما لها من قيمة ذاتية بغض النظر عن كل آثارها"[٢]، وبهذا يتضح لنا أن قانون الأخلاق فى الإسلام ليس ضيق النظرة أو أحادى الجانب كما هو الشأن فى كثير من النظريات الأخلاقية، وإنما هو قانون يمتاز بهيبته فى النفوس وشموله وكماله الذى لا يرنو إليه أى كمال. حيث انضوى تحت جناحيه العناصر الفردية، والاجتماعية، والإنسانية ومن قبل ذلك الإلهية. فى تناسق رائع لا مثيل له فى أى دين أو مذهب أخلاقى.

(١) رواه الطبرانى، النسائى، الإمام أحمد، يراجع كنز العمال رقم ٦٩٩، ٧٠٠.
(٢) د/محمد عبد الله دراز دراسات إسلامية ص١١٢، ١١٣ نقلاً عن مقدمة فى علم الأخلاق ص٧٤ ويراجع فى الأخلاق الإسلامية والإنسانية ص٧٩.

موقف قانون الأخلاق الإسلامى من المعايير والقوانين الأخلاقية السابقة:

تعرضنا فيما سبق لبيان ماهية القانون الأخلاقى فى الإسلام، ومن الأهمية بمكان أن نبين موقفه من المقاييس الأخلاقية السابقة. ومن ثم نقول إن قانون الأخلاق الإسلامى لايقف على طول الخط موقف المعارض من المقاييس الأخلاقية السابقة، وإنما موقفه منها موقف الناقد، المنتقى، والموجه.ومن هذا المنطلق تصدرت نظرته إليها، و التى تتبلور فى قبوله لها، ولأحكامها فى ضوء مرجعية معصومة تستند إليها، وفى ضوء ضوابط تحيط بها من كافة جنباتها لئلا تزيغ أو تضل. وإذا كان قانون الأخلاق الإسلامى فى مجال المهنة وغيرها مصدره الوحى الإلهى فليس معنى هذا أنه يتصادم مع ما يقرره العقل الإنسانى، وكيف يكون هذا وهما فى نظر الإسلام يجمعهما مصدر واحد.كما أن أحكام العقل المحفوفة بالضوابط الشرعية التى تمنعها من الضلال محل تقدير من الإسلام وتشريعاته، بل فى كثير من الأحوال تعد نوعاً من الاجتهاد الذى يؤجر عليه صاحبه. وإذا نحى العقل جانباً فى بعض المجالات التى تعلو فوق إدراكه، فهذا ليس حطا من شأنه وإنما هو تكليف له وفق الوسع والطاقة، وتفريغ له لمهمته التى تكمن فى عمارة الكون والحياة. أما بالنسبة للضمير فأمره كذلك معتبر فى ضوء المرجعية المعصومة التى عنها تصدر أحكامه، وفى ضوء الضوابط الشرعية التى يراعيها كى لا يضل أو يشقى، ومن هنا فالضمير المعتبر لدى قانون الأخلاق الإسلامى هو الضمير الموجه والمستنير بفضل تعاليم الكتاب والسنة.وهو الضمير الذى حددت له الواجبات ووضحت له المحرمات بصورة تدفعه وتهيئه للالتزام بما يجب، والتنزه عما هو محرم.وهو الضمير الذى له مقياس ثابت وحكم محدد فى قضايا الأخلاق.ومن ثم كان له اعتباره فى القرآن الكريم حيث يقول الحق سبحانه:" بَلِ الْإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ " القيامة (١٤). وكذلك له منزلة فى السنة المطهرة حيث يقول النبى صلى الله عليه وسلم " إذا أراد الله بعبد خيراً جعل له واعظاً من نفسه يأمره وينهاه "[١] وقوله صلى الله عليه وسلم لوابصة ابن معبد رضى الله عنه " جئت تسأل عن البر؟ قلت نعم قال: البر ما اطمأنت إليه النفس واطمأن إليه القلب، والإثم ما حاك فى النفس وتردد فى الصدر، وإن أفتاك الناس وأفتوك "[٢] وحتى عند الحساب بين يدى رب العزة والجلال يكون لسلطان الضمير هذا الدور الهام الذى يعبر الحق سبحانه وتعالى عنه بقوله " اقْرَأْ كَتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا" الإسراء(١٤). ومن خلال التصور السابق للضمير فى قانون الأخلاق الإسلامى كان قول الإمام الغزالى الذى يعبر فيه عن أهمية الضمير فى ترسيخ الأخلاق المهنية " للمراقب فى عمله نظران: نظر قبل العمل، ونظر فى العمل؛ أما قبل العمل فلينظر أن همته وحركته:أهى لله خالصة، أم لهوى

(١) عن أم سلمة يراجع كنز العمال رقم ٣٠٧٦٢.
(٢) رواه الإمام أحمد المسند ج٤ ص١١٤، ١١٥ ويراجع كنز العمال رقم ٧٣١٢.

النفس ومتابعة السلطان ؟ فيتوقف فيه ويتثبت حتى ينكشف له ذلك بنور الحق ؛فإن كان لله تعالى أمضاه، وإن كان لغير الله استحيا من الله وانكشف عنه. وأما النظر الثانى للمراقب عند الشروع فى العمل، فذلك يتفقد كيفية العمل ليقضى حق الله فيه، ويحسن النية فى إتمامه ويتعاطاه على أكمل ما يمكنه"[1] وبعد أن وضع الإمام الغزالى معايير الأخلاق المهنية فى حديثه السابق يشرع فى بيان محاسبة النفس بعد العمل فيقول" ينبغى أن يكون للمرء آخر النهار ساعة يطالب فيها النفس ويحاسبها على جميع حركاتها وسكناتها، كما يفعل التجار فى الدنيا مع الشركاء فى آخر كل سنة أو شهر أو يوم حرصاً منهم على الدنيا.. "[2].

أما بالنسبة للمنفعة فكذلك يقبل قانون الأخلاق الإسلامى أحكامها ما دامت مشروعة، ومنضبطه، فى إطار الإسلام. موقنا أن الإنسان دائما ما يحرص على منفعة نفسه، بيد أنه لا ينبغى أن لا تطغى هذه المنفعة على حقوق الآخرين، أو يسلك صاحبها طريقا غير مشروع لتحصيلها. وكذا يكون الحال بالنسبة للمنفعة الجماعية فالعمل من أجل الله تعالى لا ينافى الغاية الشخصية كحرص المؤمن على فوزه برضا ربه عنه.وكذا الحال فى العرف والقانون الوضعى إذا كانا منضبطين بتعاليم الدين ونبل الأهداف وعصمة المرجع، فى هذه الحالة تصدر الأحكام عنهما على وفق ما يحب الله ويرضى وتكون فائدتها فى تنظيم علاقات الناس بعضهم ببعض، وحفظ الحقوق وردع المعتدين. من هذا المنطلق كانت نظرة القانون الأخلاقى الإسلامى للمعايير السابقة نظرة المنتقى الناقد البصير، لا نظرة المستسلم المنقاد بلا فكر أو روية.

(١) إحياء علوم الدين.ج١ ١٣٥..
(٢) المرجع السابق ج١ ص١٣٥

المبحث الثالث
سمات أخلاق المهنة فى الإسلام

إذا كنا قد ارتضينا طوعاً واختيارا، بقانون الأخلاق الإسلامى فى مجال المهنة وغيرها، منبعاً ومعياراً للأخلاق فى كافة الجوانب العامة، فليس مرد ذلك إلى التعصب والهوى، وإنما ارتضيناه لما يحوطه من سمات يصعب -إن لم يستحيل- اجتماعها فى غيره من المعايير الأخلاقية الأخرى. من أهم هذه السمات:

الإلزام الذاتى:

إن المواثيق الوضعية في مجال الأخلاق المهنية، تفقد فى كثير من حالاتها صفة الإلزام. لأن طاعة القانون خوفاً من العقاب أو رغبة فى الجزاء لا يمكن أن تأخذ صفة الإلزام، ولا يتوافر لها عنصر القوة الذى هو ضرورى لسيادة هذا القانون واحترامه فى جميع الأحوال وتحت كل الظروف، فسرعان ما يعصى القانون عند أمن اطلاع السلطة الزمنية على المخالفة، لأجل ذلك ضل الناس فى تمسكهم بالمواثيق الأخلاقية المهنية، فرأينا من شيد بنياناً من المهندسين على شفا جرف هار فانقض فوق ساكنيه مخلفاً الجثث والأشلاء، ورأينا المحاسب الذى يختلس مما اؤتمن عليه، ورأينا ملاك الرحمة الذى يتاجر فى أعضاء البشر، ورأينا العالم الذى يتخفى عن أعين الناظرين فى معمله ليخرج علينا بمسوخ مشوهة تحت مسمى الاستنساخ، مخالفاً بصنيعه الأعراف، والمواثيق، والأخلاقيات المهنية.وغير ذلك كثير فى شتى المجالات التى حفل بها النشاط البشرى، وجدنا خرقاً بيناً للأخلاق المهنية على شتى الأصعدة والمستويات، مما برهن معه بيقين لا يمازحه شك على فشل المقاييس الوضعية المطلقة من كبح جماح الانحراف عند الممتهنين فى شتى التخصصات.سواء تقنينات الوضعيين والاجتماعيين، أو العقليين، أو القائلين بأخلاقية بلا إلزام، كما عند الفيلسوف الفرنسى "جويو" الذى ألف كتاباً يحمل هذا العنوان.من هنا كانت أهمية فكرة الإلزام التى تعد هى العنصر الأساسى أو المحور الذى تدور حوله المشكلة الأخلاقية ويقصد به"القوة التى لها سلطان على الإنسان وما يصدر عنه من أفعال وبموجبها يمكن الحكم على الأشياء بالخير أو الشر "[1]. وإذا كان هذا هو معنى الإلزام فإن انعدامه يقضى على جوهر الحكمة العقلية والعملية التى تهدف الأخلاق إلى تحقيقها. فإذا انعدم الإلزام انعدمت المسئولية، وإذا انعدمت المسئولية ضاع كل أمل فى وضع الحق فى نصابه، وإقامة أسس العدالة. وحينئذ تعم الفوضى ويسود الاضطراب، لا فى عالم الواقع فحسب، بل من الناحية القانونية ومن وجهة نظر المبدأ الأخلاقى ذاته، وإذا كانت الأخلاق تؤول فى النهاية إلى مجموعة من القواعد، فكيف يتسنى للقاعدة أن تكون قاعدة بدون أن تلزم الأفراد باتباعها.من هنا كانت النظرة إلى "الإلزام" فى قانون

(١) الأخلاق فى ضوء الفكر الإسلامى ص٣١ ويراجع الأخلاق بين الفلسفة وعلم الاجتماع ص٦٧.

الأخلاق المهنى الإسلامى والعمل على تحقيق ذاتيته، لضمان السير على الطريق القويم، والصراط المستقيم، من خلال توليد الرقابة الذاتية لدى الإنسان. والتى يستشعر من خلالها ضرورة فعل الخير والتمسك بكل ما هو أخلاقى فى ظل غياب الرقباء من البشر. ولأجل ترسيخ هذه الرقابة الذاتية فى النفس الإنسانية كان حديث القانون الأخلاقى الإسلامى عن مستويات الإلزام الذاتى لدى الإنسان من خلال:

(١) استشعار الرقابة الإلهية:

وذلك من خلال أن يعبد الإنسان ربه كأنه يراه، فإن لم تكن تراه فهو يراك، والرقابة الإلهية بهذه الصورة ميزة لقانون الأخلاق الإسلامى لا وجود لها فى أى تشريع بشرى، فهذه المراقبة هى القائد والموجه لحركة المؤمن، وهى التى تزكى الإخلاص الداخلى للفرد وتجعل الإنسان ملتزماً بالتوجيهات الأخلاقية الاجتماعية، حتى وإن انفرد بذاته وخلا بنفسه.وذلك أن هذه التوجيهات فى بدئها ونهايتها إنما هى هدى من الله الذى إن لم تكن تراه فإنه يراك.وهذه المراقبة عادة ما تجد طريقها لدى النفوس السوية معبداو ممهداً، لأنها تنطق بصوت الله وتشريعاته التى لا تصادم فطرة ولا تعمل على قهر غريزة، وإنما تعمل على تنظيم الغرائز وتهذيبها بشكل يحفظ التوازن النفسى ويحقق الاستقرار الاجتماعى على أحسن ما يكون. ومما يجب أن ينتبه المؤمن إليه بل أن يعتقده وهو مذعن أن أى جريمة قد يأتيها خفية دون أن يراه أحد من الناس، وإن لم تأخذ وصف الجريمة فى الدنيا فإنها جريمة كاملة الأركان أمام الله سبحانه وتعالى. لأنه هو المطلع على خفايا الأمور ومكنونات الصدور والضمائر، ولا يحتاج سبحانه فى حسابه الأخروى إلى إكمال أركان الجريمة كما تعارف الناس فى الدنيا عيها من خلال شهود وغيرهم. وحتى هذه فهى غير عسيرة عليه سبحانه، لأن الشهود يومئذ من داخل الإنسان نفسه بل هى الأعضاء والجوارح التى تسطنق فتنطق بما وقع منها من أفعال. يقول الله عز وجل"يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ" النور (٢٤)

ويقول سبحانه"وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ " فصلت (٢١)ومن ثم ورد عن العلماء ما يعرف بالحكم ديانة والحكم قضاء، إذ قد ينفصلان فيكون الإنسان بريئاً قضاء لعدم توفر أدلة الإدانة ضده، بيد أنه مؤاخذ ديانة طالما هو الفاعل الحقيقى والعكس كذلك صحيح، ومن ثم يوضح النبى صلى الله عليه وسلم ذلك بقوله " إنما أنا بشر مثلكم تختصمون إلىَ ولعل أحدكم يكون ألحق بحجته فأقضى له، فمن قضيت له بحق أخيه فإنما هى قطعة من جهنم فليأخذها"[1] ومما لاشك فيه أن مراعاة مقتضى هذه المراقبة ذات أثر اجتماعى خطير فى حياة الناس. إذ تغلق فراغاً كبيرا تعجز التشريعات البشرية التى لا نصيب لها من التوجيه إلا حسب ما تقتضيه الظواهر. من هذا المنطلق كان للمراقبة دورها الكبير فى حماية المجتمع وتقوية أركان الفضيلة فى مجال المهنة وغيرها، يقول المولى عز وجل "مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى

(١) رواه البخارى كتاب الشهادة ٢٤٨٣، والإمام مسلم ٣٢٣١.

ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِن ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ" المجادلة (٧) ويقول تعالى " وهو معكم أينما كنتم " ويقول سبحانه "وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ " ق (١٦).ويقول الأستاذ/محمد قطب " إذا فرضنا أن الدولة من عندها تعاقب على الجرائم الخلقية حين تضبطها، فهى لن تستطيع أن ترى كل جريمة ولا أن تتعقب كل مجرم وسيفلت منها كثير من الجرائم بلا إثبات ولا عقاب..... وإنما يحتاج الامتناع عن الجريمة الخلقية إلى الارتباط بالله"[١].

(٢) العقل المدرك:

وهو مستوى اعتبره قانون الأخلاق الإسلامى بجانب الإلزام الذاتى. واعتماد قانون الأخلاق له ضمن مستويات الإلزام يأتى فى ضوء وجود مرشد معصوم يهديه إذا ضل ويرده إلى حياض الحق عند الانحراف. ولهذا لابد من ربط العقل بسلطة عليا ينحسم معها الخلاف وينقاد الجميع لها. وهذه السلطة ليست إلا خالق الإنسان العليم بأمره وبما يصلحه ويفسده وهو الله سبحانه وتعالى " أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ" الملك(١٤). وعلى هذا فإن اعتبار العقل كركن من أركان الإلزام يقوم على أساس أن العقل موجه بالشرع، فالشرع هو السلطة العليا التى تحجب عن العقل هواه وترشده حينما يتردد ويحتار، وإذا كان العقل عرضة للخطأ والقصور، فإن هذا يحول بينه وبين إدراك ما هو واجب. في حين نرى الوحى المعصوم مبرأ من ذلك كله لأنه تنزيل العليم الخبير. وذلك الوحى يتمثل فى"القرآن الكريم والسنة الصحيحة وما يتفرع عنهما من أصول تشريعية أخرى كإجماع المسلمين واستنباطات أئمتهم فى الفقه والفروع"[٢] ولا يعنى هذا وجود ازدواجية تناقضية فى مصدر الإلزام الخلقى بين الوحى الإلهى والعقل المدرك، فالوحى هو المصدر وهو الحاكم أولاً وقبل كل شىء ولا تكون أوامر الوحى وأحكامه ملزمة بل وتدرك معانيها الخلقية إلا من خلال العقل المفطور على معرفة الله تعالى وعلى الإيمان به.

(٣) الضمير:

وقد اعتبره قانون الأخلاق الإسلامى أحد مستويات الإلزام فيه، ويقصد به هنا الضمير الموجه والمستنير بفضل تعاليم الكتاب والسنة الذى حددت له الواجبات ووضحت له المحرمات بصورة تدفعه لفعل الواجب واجتناب المحرم، ووضعت له مقاييس ثابتة وأحكام محددة في قضايا الأخلاق وصنوف المعاملات.والإسلام عندما اعتبر الضمير مستوى من مستويات الإلزام في قانونه الأخلاقى لم يعتبره مستوى مناقضاً له، بل عده مع العقل المدرك مستويين لمصدر

(١) محمد قطب فى النفس والمجتمع ص٧٥، ط الشروق. ويراجع تفصيل ذلك فى، أثر الإسلام فى بناء المجتمع الفاضل ص٣٤، ٣٥ وكذا المختصر فى العقيدة والأخلاق ص٣٨.
(٢) الفكر الإسلامى ص١٦٢ ويراجع الأخلاق فى ضوء الفكر الإسلامى ص٣٣.

واحد. ويؤكد الإسلام على عدم التناقض بين مستويات الإلزام فيه حين يحيل المرء إلى"قلبه وضميره فيما يدع ويقرر من أفعال، إيماناً منه بأن العقل السليم والضمير الحى والقلب اليقظ لن يصدر منه إلا ما يتفق مع ما يأمر به قانون الأخلاق في الإسلام"(١). وقد أكد الإسلام ذلك من خلال:

١- أن غريزة معرفة الخير والشر مغروسة في طوايا النفس الإنسانية منذ تكونها، يقول تعالى "وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا " الشمس(٧، ٨)

٢- البصيرة الأخلاقية ملكة أصيلة مستقرة في صميم الإنسان وفى بنائه الباطنى" بَلِ الْإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ" القيامة (١٤، ١٥)

٣- ان الله سبحانه وتعالى هدى الإنسان إلى طريق الفضيلة ليأتيها، وإلى طريق الرزيلة ليتقيها يقول تعالى "وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ" (البلد ١٠).

٤- إن الله سبحانه وهب الإنسان قدرة على ضبط سلوكه، والتحكم في اتجاهاته الأخلاقية، فيقاوم نوازع الشر في نفسه عن طريق دوافع الخير فيها، يقول تعالى"وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ **وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى"**

النازعات (٤٠، ٤١)

وبهذا يتبين أن الله سبحانه وتعالى أمد الإنسان بعقل مدرك وسلطة خفية يعملان في ضوء التوجيه الإلهى، ليسمع من خلال هذه المنظومة السامية صوت الرقابة الإلهية التى يلزم عنها الإلزام الذاتى للإنسان، فيقدم الفضيلة ويتجنب الرزيلة، حتى وإن غابت عنه أعين الناس.وهذا ما أشار اليه النبى صلى الله عليه وسلم بقوله"إذا أراد الله بعبد خيراً جعل له واعظاً من نفسه يأمره وينهاه"[٢] وقوله صلى الله عليه وسلم " استفتى قلبك استفت نفسك، البر ما اطمأنة إليه النفس واطمأن اليه القلب، والإثم ما حاك في النفس وتردد في الصدر وإن افتاك الناس وافتوك"[٣].

٤- تعدد الرقابة:

وهذه سمة تميز قانون الأخلاق فى الإسلام. حيث يوجد أنواع ثلاثة من الرقابة على الأعمال سواء كانت عامة أو مهنية هى:

* **الرقابة الذاتية:** والتى تحدثنا عنها في" الإلزام الذاتى" وعرفنا أنها تقوم على استحضار معية الله سبحانه وتعالى، وعلى تحكيم "الضمير والعقل" في ضوء مرجعية معصومة، وفى ضوء ضوابط الشرع.وأساس هذه الرقابة الإيمان بالله

(١) مقدمة فى علم الأخلاق ص٧٢.
(٢) السيوطى الجامع الصغير ج١ ص١٧.
(٣) رواه البخارى فى كتاب التاريخ.

تعالى واستحضار اليوم الآخر، ولاشك أن في ذلك ضمانة قوية لسلامة السلوك الاجتماعى وشرعية النشاط الاقتصادى لشعور الفرد المؤمن بأنه إذا استطاع أن يفلت من رقابة ومساءلة القانون أو الشريعة، فإنه لن يستطيع أن يفلت من رقابة ومساءلة الله تعالى[1].

* **الرقابة القانونية:** وهى رقابة السلطة سواء كانت الأجهزة الرقابية أو الرقابة من أهل المهنة نفسها وهو ما يسمى "بالحسبة".وقد نشأت الحسبة في عهد النبى صلى الله عليه وسلم وتولاها صلى الله عليه وسلم بنفسه، واتبعها بعده الخلفاء، ثم صارت ولاية من ولايات الإسلام ونظاماً من أنظمة الحكم التى جرى عليها الولاة والحكام.أى أنها كانت موجودة بجوار ولاية القضاء وولاية المظالم.ولما كثرت الفتوحات الإسلامية وانتشرت المدنية، ترقت الحسبة واعتنى الولاة والحكام بتنظيمها ووضع ضوابط معينة لها، وبيان سلطة متوليها. والحسبة من حيث موضوعها تهدف إلى: تقويم ما اعوج في حياة الناس أمراً بمعروف ونهياً عن منكر، مرجعها في ذلك كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهى بهذا متحدة بين الأمم بحسب أنها أمر دينى، أما من حيث أساليبها ومدى اختصاص متوليها فإنها تختلف باختلاف الشعوب والمجتمعات إذ إن ما يناسب مجتمعاً لايتفق ومقتضيات مجتمع آخر[2]، ولكنها في النهاية تعد سلطة رقابية اعتمدها القانون الأخلاقى الإسلامى ليقوم بها المعوج في حياة الناس وسلوكهم في مجال المهنة وغيرها.

* **الرقابة الشعبية:** وهى الرقابة التى يمثلها عامة الناس، وهذا النوع هو المقصود من مبدأ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وقد نظر الإمام الغزالى إلى هذا النوع من الرقابة على أنه "القطب الأعظم في الدين، وهو المهم الذى ابتعث الله له النبيين"[3] ومن ثم كان التأكيد على دور هذا النوع من أنواع الرقابة الذى يؤدى إلى إصلاح المجتمعات، وسلامة المعاملات من خلال وصف مجتمع الإيمان في قول الله تعالى"وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ" التوبة(٧١).

وجعل قيام الأمة بهذا الدور الرقابى سبب في خيراتها "كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّهِ" آل عمران (١١٠). وجعل الاهمال في هذا الدور الرقابى والتفريط فيه سبباً للعن على لسان الأنبياء والمرسلين، وذلك نظراً لما يترتب على ذلك من فساد أخلاقى واجتماعى عند الأمم المقصرة " لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ كَانُواْ لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا

(١) د/محمد شوقى الفخرى، الوجيز فى الاقتصاد الإسلامى ص٦٨ ط دار الصحوة، والإمام أحمد والدارمى فى مسنديهما قيد القدير ١ج١ ص٤٩٥.
(٢) المستشار د/محمد احمد عابدين دعوى الحسبة ص١٦ –ط- دار الفكر الجامعى بتصرف.
(٣) إحياء علوم الدين ج٢ ص٣٠٦.

كَانُواْ يَفْعَلُونَ" المائدة (٨٧، ٧٩) وبجانب الآيات القرآنية نجد السنة النبوية قد جاءت محفزة على تفعيل هذا الدور الشعبى الرقابى ليسلم المجتمع وتصح الأمة، يقول النبى صلى الله عليه وسلم "والذى نفسى بيده لتأمرون بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً منه، ثم تدعونه فلا يستجاب لكم"(١) ويقول صلى الله عليه وسلم أيضاً "من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان"(٢). وعلى نفس الدرب سار الخلفاء الراشدون فى التأكيد على دور الرقابة الشعبية فى حياة الأمة، يقول أبو بكر الصديق رضى الله عنه أيها الناس إنكم تقرأون هذه الآية وتؤولونها على خلاف تأويلها:" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لاَ يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ "المائدة(١٠٥).وانى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "إن الناس إذا رأو ظالماً فلم يأخذوا على يديه أوشك الله أن يعمهم بعقاب منه"(٣) وبهذا التعدد في الأدوار الرقابية في قانون الأخلاق الإسلامى ابتداء بالذات، ووصولاً إلى رقابة الأمة كلها على نفسها، يهدف الإسلام إلى مقاومة الانحراف في المجتمع عامة وفى مجال المهنة خاصة لتتكون مثالية الواقع في المجتمع الإسلامى.

٥- اقتران الحقوق بالواجبات:

وهذه سمة من سمات قانون الأخلاق في الإسلام في مجال المهنة وغيرها، حيث قرن الإسلام الحقوق بالواجبات فهو حين يمنح الإنسان حقاً من الحقوق يفترض عليه في ذات الوقت واجباً بإيزاء هذا الحق، وهذا الواجب هو في الواقع يمثل حقاً من جهة أخرى سواء كان هذا الحق لفرض في المجتمع أو للمجتمع ذاته.وهذه نقطة هامة في بناء قواعد الأخلاق المهنية وإرساء دعائمها، فالفرد الذى يحصل على حقه لابد وأن يبذل جهده ويؤدى واجبه لكى يكون عضوا فعالاً وناشطاً في مجتمعه، وربما كان السبب الأساسى في عدم استقرار الدول والمجتمعات في واقعنا المعاصر ابتلاؤها بأفراد تأصل فيهم حب الذات وإعلاء الأنا، يتوسلون بذلك إلى الحصول على حقوقهم.- إن لم يكن على حقوق غيرهم- كاملة غير منقوصة دون أن يؤدوا واجباتهم مما يؤثر بدوره على حصول الآخرين على حقوقهم قبلهم، وبهذا تختل قاعدة الواجبات ولا تؤتى ثمارها في دنيا الناس.وهذا التلازم بين الحقوق والواجبات في تصميم قواعد الأخلاق المهنية في الإسلام، هو الذى يحقق للفرد كيانه ويحفظ للمجتمع توازنه. وبهذا ربى الإسلام الفرد وهو اللبنة الأساسية في بناء المجتمع أن يأخذ ويعطى، ويحارب الأثرة والأنانية في نفسه وذاته وعند الآخرين. نعم إن للفرد حقوقاً قبل الآخرين، وعليه واجبات لابد أن لا يقل حرصه عليها، عن حرصه على تحصيل حقوقه منهم، فإذا كان الإسلام قد فرض للإنسان حقوقاً من قبل مجتمعه، فإنه كلفه بواجب العمل

(١) رواه الترمزى كتاب الفتن وحسنه وكذا رواه الإمام احمد مسند الانصار ٢٢٢٣٨.
(٢) رواه مسلم كتاب الإيمان.
(٣) الترمزى كتاب تفسير القرآن وكتاب الفتن.

بحسب وسعه وطاقته، وإذا كفل له حق الحياة فإنه أوجب عليه المحافظة على حياة الآخرين، وإذا أوجب الإسلام للطبيب حقوقاً في علاجه لمرضاه فقد أوجب عليه ايضاً واجبات تجاههم من خلالها يبذل الجهد والطاقة للقيام برعايتهم وحسن علاجهم، وإذا أعطى للعامل حقاً في أخذ الأجرة عن عمله، فقد أوجب عليه كذلك حسن الرعاية للعمل وتمام الإتقان له.قس على ذلك تفاصيل المهن المختلفة. وكما جعل للإنسان الحق في اختيار وتنصيب من يحكمه فقد أوجب عليه السمع والطاعة فيما لا معصية فيه، وهكذا لو صرنا في استعراض اقتران الحقوق بالواجبات لطال بنا المدى وضاق بنا المقام.ولم يكن اقتران الحقوق بالواجبات مثلاً نظرية يتأملها الإنسان في المجتمع الإسلامى، بل كانت واقعاً عملياً تحقق على أرضه. ويكفى أن نتأمل آخر أيام حياة النبى صلى الله عليه وسلم حينما ينتصف لنفسه للناس فيعلن وهو العادل أن من كان قد جلد له ظهراً فليتقدم ليأخذ حقه في ظهره عليه السلام، وان من كان قد أخذ منه مالاً فليتقدم ليأخذ من ماله صلى الله عليه وسلم. وبهذا تربى أبناء الإسلام على اقتران الحقوق بالواجبات منذ زمن طويل، ليقين منهم أنه بهذا يتحقق المجتمع القوى الصالح.ومن ثم استطاع الإسلام بمبادئه أن يتعامل مع كافة الأجناس الإنسانية، لأن فلسفة الحقوق والواجبات فيه فلسفة إنسانية عامة من خلالها يكون الوفاء للمسلم وغير المسلم، وهذا ما فعله النبى صلى الله عليه وسلم مع عبد الله بن اريقط حين استأجره ليكون دليلاً له في الهجرة. وينبغى أن نعلم أن الحق والواجب كلاهما مرتبط بالدين أو بالإيمان، فمن خلال الدين نفسه يتعرف الإنسان على ماله من حقوق تجاه الآخرين والتى غالباً ما تكون واجباتهم نحو هذا الإنسان.ثم يتعرف من خلال الدين أيضاً على واجباته نحو الآخرين والتى تمثل أيضاً حقوقا للآخرين نحوه، وينبغى أن نعلم أن فلسفة الحقوق والواجبات مرتبطة بمصدر الإلزام في قانون الأخلاق الإسلامى، المتميز بالعصمة وعدم التأثر بالميل أو الهوى، وهذه العصمة قطعاً لا تكون للإنسان وإنما تكون لخالقه سبحانه وتعالى، وهذه الحقوق والواجبات تمثل في النهاية ثمار الأمر والنهى في شتى أمور الحياة، غير مفصولة عن الجانب العقدى الإيمانى بل مؤسسة عليه ومقترنة به، من هذا المنطلق وجدنا فى الإسلام جملة من النصوص التى تدعوا إلى المزج بين الحقوق والواجبات منها قول النبى صلى الله عليه وسلم "أعطوا الأجير حقه قبل أن يجف عرقه "[1] والأجير هنا وصف يطلق على من استعمل في إنجاز شىء معين في أى مهنة من المهن، والتعبير بالعرق في الحديث يفيد بذل الجهد المتمم للأداء والواجب، من هنا كان أمر النبى صلى الله عليه وسلم بإيصال الحق إليه، أما من خالف هذا الأمر وفصل بين الحق والواجب فقد توعده النبى صلى الله عليه وسلم بمخاصمة رب العزة والجلال له يوم القيامة حيث قال فيما يرويه عن رب العزة " ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة رجل أعطى بى ثم غدر، ورجل باع حراً فأكل ثمنه، ورجل استأجر أجيراً فاستوفى منه ولم يعطه أجره"[2].فعدم الوفاء بالحق مع

(١) سنن ابن ماجة الأحكام، أجر الأجراء ٢٤٣٤.
(٢) رواه البخارى كتاب البيوع ٢٧٥ اثم من باع حراً

الأجير في معنى من باع حراً وأكل ثمنه، لأنه استوفى منفعته بغير عوض وكأنه أكلها. ولأنه استخدمه بغير أجره وكأنه استعبده، وهذا فصلٌ بين الحق والواجب من أجل هذا كان الوعيد من الله سبحانه وتعالى لمن فصل بين استيفاء الحق وعدم آداء الواجب بقوله تعالى "وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُواْ عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ " المطففين (١-٣). ولأجل هذا التلازم بين الحقوق والواجبات ابتعث الله تعالى شعيباً إلى قومه وكان من مقاصد بعثته حضهم على إتيان ذلك، يقول تعالى " أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ " الشعراء (١٨١-١٨٣). وبهذا يكون التلازم بين الحقوق والواجبات سمة من السمات المميزة للقانون الأخلاقى الإسلامى في مجال المهنة وغيرها من المجالات.

٦- الشمول:

وهو سمة من سمات قانون الأخلاق الإسلامى في مجال المهنة و غيرها. فمثلاً نجد قانون الأخلاق في الإسلام لم يقف في حديثه عن الآداب والأخلاقيات المهنية عند حد المهتمين فحسب، وإنما تعدى بهذه الأخلاقيات ليصل إلى طالب المهنة أو من تؤدى له، فوجدنا في الإسلام أدب العالم والمتعلم، والبائع والمشترى، وحسبنا في هذا المقام أن نذكر قول النبي صلى الله عليه وسلم "رحم الله رجلاً سمحا إذا باع وإذا اشترى وإذا اقتضى"[١]. ومظاهر الشمول في قانون الأخلاق الإسلامى كثيرة ومتشعبة منها:

شموله لمصالح الدنيا والآخرة:

إذ إن قانون الأخلاق في الإسلام يغطى كافة جوانب حياة الإنسان الدنيوية والأخروية، فهو قانون مؤكد – في مجال المهنة وغيرها – للحياة الدنيا من ناحية، وموجه لها لتحقيق سعادة الإنسان في الدنيا والدين وفى الدنيا والآخرة. فإذا كانت الفلسفات الأخلاقية قد اقتصرت في بعض الديانات الأخرى على الدنيا وحدها أو على الآخرة وحدها، فإن قانون الأخلاق الإسلامى يمتد ليشمل الدنيا والآخرة محققاً بذلك التوازن المطلوب في حياة أصحاب المهن والحرف، فجعل عمل الإنسان الدنيوى محققا لسعادته في الدنيا وطريق له لتحقيق السعادة في الآخرة.ومن ثم ينظر قانون الأخلاق الإسلامى إلى العمل على اعتبار أنه "أساسى وضرورى ولا فرار منه عن طريق عزلة دينية، أو رهبنة، أو تكريس الحياة للدين على حساب الدنيا، أو العمل للدنيا على حساب الدين "[٢]، ومن ثم كان قول الحق سبحانه وتعالى "وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ " القصص

(١) رواه البخارى ٣/٧٥.
(٢) أ/ محمد خليفه حسن، تاريخ الأديان دراسة وصفية مقارنه ص٢٨٢ ط دار الثقافة ٢٠٠٢.

(٧٧). وقول النبى صلى الله عليه وسلم "اعمل عمل امرىء يظن ان لا يموت ابداً واحذر حذر امرىء يخشى ان يموت غداً"[١].

شموله للعلاقة بين الإنسان وربه:

والفضيلة الخلقية في حدود هذا القسم تفرض على الإنسان أنواعاً كثيرة من السلوك الأخلاقى، منها الإيمان بالله تعالى لأنه تعالى حق، ومنها طاعته سبحانه في أمره ونهيه، وتقبل نصائحه ووصاياه، والاستجابة له فيما يدعوا الناس إليه لأنه له سبحانه الخلق والأمر..... "[٢] فهذه وغيرها أنواع من السلوك تدعو الفضيلة الخلقية إليها. أما دواعى الكفر بالخالق سبحانه بعد وضوح الأدلة على وجوده سبحانه، فهى حتماً دواع تستند إلى مجموعة من رزائل الأخلاق، منها الكبر، ونكران الجميل وجحود الحق، ومن ثم نبه القرآن الكريم على رزيلة خلق الكبر الدافعة إلى إنكار الآخرة وعدم الإيمان بها. يقول تعالى "إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ " النحل (٢٢). ونبه القرآن الكريم على رزيلة إرادة الفجور الدافعة إلى جحود قانون الجزاء الربانى وإنكار يوم القيامة، فقال تعالى"بَلْ يُرِيدُ الْإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ " القيامة (٥-٦). والفجور هو "التدفق الوقح إلى فعل الشرور والآثام، وهو لا محالة من قبائح رزائل الأخلاق"[٣] ومن ثم يمكن القول إن شمول الأخلاق الإسلامية لعلاقة الإنسان بربه لها انعكاسات اجتماعية تكمن في العلاقة بين الإنسان وسائر الأفراد في المجالات كافة، ومجال المهنة والعمل خاصة.

شموله للعلاقة بين الإنسان ونفسه:

لكل قطاع من القطاعات الإنسانية المختلفة الداخلية والخارجية أخلاق؛ للفكر أخلاق، وللاعتقاد أخلاق، للقلب أخلاق، وللنفس أخلاق، وللسلوك الظاهر أخلاق.

(١) رواه البيهقى عن عمرو بن العاص يراجع فيض القدير ١٢٠١
(٢) الميدانى الأخلاق الإسلامية وأسسها ص٥٣ ط دار القلم.
(٣) الميدانى الأخلاق الإسلامية وأسسها ص٥٣.

فمن فضائل أخلاق الفكر:

تحرى الحقيقة بإنصاف، وتجرد وحياد.و الصبر على التفكير والتدبر، والبحث عن كل نافع و مفيد من الأفكار والمعارف والعلوم، والبعد عن سفاف الأفكار وتوافهها، والاشتغال بتذكر كل صالح مفيد، ونسيان الأحداث المثيرة للأحقاد والضغائن أو الباعثة على الغضب والانفعالات غير الحسنة، وعدم التطلع إلى مثيرات الحسد، أو مثيرات الشهوات والأهواء المحرمة. إلى غير ذلك من الفضائل.ويقابل هذه الفضائل من فضائل أخلاق الفكر نقائض ورزائل يجب على الإنسان اجتنابها، أو يحسن به اجتنابها، ليظفر بالارتقاء في سلم الكمال الخلقى في مجال أخلاق الفكر.

ومن فضائل أخلاق الاعتقاد:

أن لا يسمح الإنسان لنفسه بأن يتتبع الأوهام والظنون الضعيفة فيحلها في مراكز عقائده الثابتة الراسخة. وأن لا يجعل مركز عقائده فريسة للتقليد الأعمى، والضلالات الشائعة، أو فريسة لما تمليه عليه الأهواء والشهوات من أفكار ومذاهب. أو فريسة لما يمليه القادة المضلون والشياطين الموسوسون من الإنس والجن..... إلى غير ذلك.ويقابل هذه الفضائل من فضائل أخلاق الاعتقاد نقائص ورزائل يجب على الإنسان اجتنابها أو يحسن به اجتنابها ليظفر بالارتقاء في سلم الكمال الخلقى في مجال أخلاق الاعتقاد.

ومن فضائل أخلاق القلب

حب الحق وحب الخير، وكراهية الشر و الباطل، وعدم تحمل الأحقاد والضغائن..... إلى غير ذلك من أمور. ويقابل فضائل أخلاق القلب نقائض ورزائل خلقية يطالب الإنسان باجتنابها والبعد عنها.

ومن فضائل أخلاق النفس

الصبر والعفة، ومجانبة الحسد، والترفع عن سفاسف الأمور، والنظر إلى معاليها، وعلو الهمة، وجود النفس وتسامحها وعفوها عن إساءة المسيء، وغير ذلك من الأمور.

أما فضائل أخلاق السلوك الظاهر

فهى فى الواقع كثيرة، وهى فى حقيقتها الصادقة تعبير عما فى داخل الإنسان من أخلاق[1]. ويقابلها نقائص ورزائل خلقية يطالب الإنسان باجتنابها والبعد عنها.

حسن إدارة الإنسان لذاته

ويندرج تحت هذا القسم صور كثيرة تعبر عن كينونته ومضمونه، منها الصبر على المصائب، والاتقان فى العمل، ومنها كذلك عدم استعجال الأمور قبل أوانها، فكل ذلك وغيره يدخل فى حسن إدارة الإنسان لنفسه، وحكمته فى تصريف الأمور المتعلقة بذاته.

شموله للعلاقة بين الإنسان والمجتمع:

وهذا جانب آخر يدل على شمول قانون الأخلاق الإسلامى حيث نوه الإسلام على عدد من جوانب السلوك الاجتماعى:كالحلم، والصدق، والأمانة، والعفة، والتسامح، وحب العطاء، والشجاعة، والتواضع، ولين الجانب، والوفاء.....إلخ وغير ذلك من الصفات التى لاغنى عنها فى مجال العمل الاجتماعى عامة، والعمل المهنى خاصة.وقاعدة الأخلاق الكبرى فى هذا الجانب الاجتماعى تتلخص فى أن "يعامل الإنسان الآخرين بما يحب أن يعاملوه به، إنه يحب أن يعاملوه بالعفو إذا أساء فليكن عفواً عن إساءتهم ويحب أن يكونوا معه أمناء فليكن معهم أميناً...."[2].

وقد بين النبى صلى الله عليه وسلم هذه القاعدة للأخلاق الاجتماعية بقوله"فمن أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتأته منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر، وليأت إلى الناس الذى يحب أن يؤتى إليه "[3].

وبهذا بلغت الأخلاق الاجتماعية فى الإسلام مبلغاً عظيماً من الرقى، جعلها فى سنام العلو والرفعة، بما اشتملت عليه من تفصيلات موثقة للروابط الاجتماعية بين الأفراد، ومؤثرة تأثيراً عميقاً فى تغذية وحدة الجماعة الإسلامية.هذا ولم تقف الروابط الاجتماعية فى قانون الأخلاق الإسلامى، عند حد المسلمين فحسب فالمسلم مكلف أن يلقى أهل الأرض قاطبة بفضائل لا ترقى إليها شبهة، فالصدق واجب على المسلم مع المسلم وغيره، وحسن إتيان العمل ورعايته واجب على المسلم مع المسلم وغيره، وكذلك المروءة التواضع، والسماحة، والأمانة، والتعاون والكرم..... الخ.

وقد مارس النبى صلى الله عليه وسلم هذه الأخلاقيات سلوكا قبل أن يلفظ بها كلاما فقد أتاه صلى الله عليه وسلم يهودى كان له دين عليه صلى الله عليه وسلم

(١) الأخلاق الإسلامية وأسسها ص٥٢.
(٢) الأخلاق الإسلامية وأسسها ص٥٢ وكذا أخلاقنا ص٣٠.وكذا تاريخ الأديان ص٢٨٢.
(٣) رواه مسلم يراجع رياض الصالحين حديث رقم ٦٦٦.

فجاء مطالبا به قائلاً:إنكم يا بنى عبد المطلب قوم مطل !! فرأى عمر بن الخطاب أن يؤدب هذا المتطاول على مقام النبوة الشريف، وهم بسيفه، يبغى قتله لكن الرسول صلى الله عليه وسلم أسكت عمر قائلاً: أنا وهو أولى منك بغير هذا، تأمره بحسن التقاضى، وتأمرنى بحسن الأداء"[١] وقد أمر الإسلام بالعدل ولو مع فاجر أو كافر، قال عليه الصلاة والسلام "دعوة المظلوم مستجابة، وإن كان فاجراً ففجوره على نفسه "(٢) وقال صلى الله عليه وسلم " دعوة المظلوم وإن كان كافراً – ليس دونها حجاب، دع ما يريبك إلى مالايريبك "[٣]. ولم تكن وصايا الإسلام وتعاليمه السابقة لتخلد فى ذاكرة الأيام مثالا نظريا يفتقر إلى التطبيق، بل كانت حقا عانق الواقع فى إطار من مثالية التطبيق، كما فى الواقعة التى أمر فيها القاضى بالالتزام بقواعد وأخلاق مهنته إذا ما ظهرت شبهة مجاوزة ولو فى شئ هين، حيث غضب الإمام على بن أبى طالب- وهو أمير المؤمنين– من قاضيه حين فرق بينه وبين خصمه اليهودى، حين دعا عليا بقوله يا أبا الحسن، ودعا خصمه بقوله يا فلان[٤].

شموله للكائنات غير العاقلة:

ويكفى أن نتصور من السلوك الأخلاقى الحميد فى حدود هذا القسم الرحمة بهذا الصنف من العجماوات التى لا يلقى لها الإنسان بالا، والرفق فى معاملتها، وتأدية ما وجب لها من حق على الإنسان.أما الظلم والقسوة وحرمانها من حقوقها، فهى من قبائح الأخلاق التى ينهى عنها كل من آمن بالله واليوم الآخر. وفى هذا يقول الرسول صلى الله عليه وسلم فيما رواه الإمام البخارى عن ابن عمر:" عذبت امرأة فى هرة حبستها حتى ماتت فدخلت فيها النار، لاهى أطعمتها وسقتها إذ حبستها ولاهى تركتها تأكل من خشاش الأرض"[٥]. وفى المقابل[٦] "وإن امرأة بغياً رأت كلباً كاد يموت عطشاً فسقته فغفر الله لها "[٧]. ووجدنا الفاروق عمر وهو يعلن على الملأ مسئوليته المهنية عن هذه العجما وات إذا عثرت فى طريقها فنراه يقول " والله لو أن بغلة بأرض العراق عثرت لسئلنى ربى لما لم تمهد لها الطريق يا عمر ". ونراه رضى الله عنه يتخذ من الرحمة خلقاً عملياً فى تعامله مع الحيوان وهو فى طريقه ليفتح بيت المقدس حين كان يترك البعير يسير فترة دون راكب ليستريح كما استراح راكبه عليه. وفى حالة التعامل مع الحيوان بالذبح أو القتل نجد الإسلام وقد وضع أخلاقاً لمن يأتى بهذا العمل حيث قال النبى صلى الله عليه وسلم "إن الله كتب الإحسان على كل شىء فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا

(١) خلق المسلم ص٢٩.
(٢) رواه الطباقى والخرائطى فى مكارم الأخلاق كنز العمال العمال ٤٣٦٤.
(٣) رواه احمد
(٤) الفكر الإسلامى ص٢٣١.
(٥) رواه البخارى، يراجع رياض الصالحين الحديث ١٥٩٧.
(٦) رواه الإمام مسلم كنز العمال ٢٢٤٤.
(٧) رواه الإمام مسلم ٢٢٤٥

الذبحة، وليحد أحدكم شفرته، وليرح ذبيحته"[١] ووضع الفقهاء عدداً من الضوابط فى كتبهم ليكون الإحسان فى مهنة الذبح حتى وجدنا هذه الضوابط وقد تطرقت إلى مراعاة الجانب النفسى للحيوان فلا يذبح حيوان أمام حيوان، ولا يرى الحيوان مشفر ذابحه...الخ تلك الضوابط التى تحدث الفقهاء عنها فى كتبهم. ولا يقف مراعاة أخلاق المهنة عند حد الحيوانات النافعة، بل يتعداه إلى مراعاة الأخلاق المهنية حتى مع الضار من الحيوانات والحشرات والهوام والزواحف... لذا وجدنا النبى صلى الله عليه وسلم يقول "من قتل وزغا[٢] فى أول ضربة كتب له مائة حسنة وفى الثانية دون ذلك، وفى الثالثة دون ذلك"[٣] فالحديث يرشد إلى "أهمية إتقان العمل وحسن آدائه ولو كان فى أمر صغير كقتل وزغة فهذا من إحسان القتل وفى القتل السريع إراحة للمقتول أيا كان"[٤]. وبالنظر إلى ما تقدم يمكن القول إن الأخلاق المهنية فى قانون الأخلاق الإسلامى، لم تدع جانباً من جوانب الحياة الإنسانية روحية أو جسمية، دينية أو دنيوية، عقلية أو عاطفية، فردية أو اجتماعية إلا رسمت له المنهج الأمثل للسلوك الرفيع، فما فرقه الناس فى مجال الأخلاق باسم الدين وباسم الفلسفة وباسم العرف أو المجتمع قد ضمه قانون الأخلاق فى الإسلام فى تناسق وتكامل وزاد عليه.

٥- الواقعية:

تنشد الشريعة الإسلامية من خلال قانونها الأخلاقى إلى تحقيق المثل الأعلى فى السلوك الإنسانى والقيم الأخلاقية فى مجال المهنة وغيرها. وتهدف بذلك الوصول بالإنسان إلى مقاربة الكمال البشرى.لذا وضعت الأخلاق الإسلامية أهدافاً سامية وغايات نبيلة يعمل الإنسان على الوصول إليها فى سعيه الدائب فى شتى مناحى حياته، وفى مزاولته للمهن المختلفة بيد أن قانون الأخلاق الإسلامى فى سعيه نحو المثال والكمال قد راعى جانب الواقع والتطبيق العملى فكان التكليف فيه بما يتناسب مع الوسع والطاقة "لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا" البقرة (٢٨٦).ومن ثم قام قانون الأخلاق الإسلامى فى مجال المهنة بمراعاة الظروف المحيطة بالممتهن لئلا يكلف بما هو فوق طاقته فيكون العنت والمشقة، اللذان يذهبان بالاستقرار النفسى للممتهن مما ينعكس سلباً على جودة العمل وإتقانه.لذا وجدنا قانون الأخلاق الإسلامى وقد راعى عدداً من الأمور منها:

١- جانب الضعف فى الطبيعة الإنسانية، وعدم محاسبة الإنسان على الأعمال التى تقع خارج نطاق إرادته، فإذا ما أخذ الممتهن بكافة وسائل النجاح ثم حدث أمر قدرى –أو أى شئ مما لادخل للإنسان فيه- أثر على نتيجة العمل،

(١) رواه مسلم ١٩٥٥.
(٢) الوزغ هو ما يطلق عليه العامة البرص.
(٣) رواه احمد وأبو داوود والترمزى وابن ماجة عن أبى هريرة – كما فى صحيح الجامع الصغير، يراجع د/يوسف القرضاوى فقه الأولويات ص٥٢ ط مؤسسة الرسالة.
(٤) المرجع السابق ص٥٣.

فإنه في هذه الحالة غير ملام بل حرى بالمجتمع من حوله أن يشجعه ويدعمه معنوياً ليكون الاستمرار للنابهين والمخلصين.

٢- كذلك تتمثل واقعية الأخلاق الإسلامية فى التوسط والاعتدال فى مجال المهنة وغيرها فلا ضرر ولا ضرار، ولا إفراط ولا تفريط، ولاتبذير ولا تقتير "وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا " الإسراء (٢٩).

٣- كذلك من واقعية قانون الأخلاق في الإسلام تعامله مع الإنسان كإنسان له نوازعه وشهواته. فلا تصادر هذه النوازع بل توضع في إطارها المشروع، فالإنسان في نهاية الأمر ومبدأه هو إنسان وليس ملكا.ومن ثم فلا بد من إشباع العنصرين الأساسيين فيه وهما الجسد والروح.لذا وجدنا تعبير القرآن عن الرهبة التى تصادر رغبة البدن بأنها: بدعة لم يكتبها الله على خلقه ولا على عباده، فقال تعالى " وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاء رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ" الحديد (٢٧) بل وجدنا آيات القرآن الكريم وقد حثت على التمتع بطيبات ما أحل الله مادياً ومعنوياً، إذ قال تعالى "وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ" القصص(٧٧).وقوله تعالى " قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللّهِ الَّتِيَ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ" الأعراف (٣٢). يقول الأستاذ محمد قطب" إن الإسلام لايضع مثلاً روحانية عسيرة التطبيق تهمل ضرورات الإنسان وواقعه المادى وتشد الناس شداً بلا هوادة فتعلقهم في الفضاء، كما تضع الهندوكية والبوذية والرهبانية. ولاهو إذ يلتفت إلى مطالب الجسد وعالم المادة يحبس الإنسان في نطاق ضروراته ويبتعد به عن التحليق في العلياء التى يتحقق فيها المثال.بل يأخذه بهذه وتلك في آن واحد على توازن واتساق ومن ثم تلتقى فيه المثالية التى لاتهمل الواقع بالواقعية التى لا تهمل المثال "[(١)].

٤- كذلك من واقعية الإسلام أن راعى حب الإنسان للمال كثمرة من ثمار المهنة والعمل، فلم يقل كما حكى العهد الجديد "بع مالك واتبعنى" ولا ما قاله في موضع آخر فيه " إن الغنى لايدخل ملكوت السماوات حتى يدخل الجمل في سم الخياط " بل راعى الإسلام حاجة الفرد والمجتمع إلى المال، واعتبره قواما للحياة، وأمر بتنميته والمحافظة عليه، وامتن القرآن الكريمبنعمة الغنى والمال في غير موضع حيث قال الله لرسوله " وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى"

(١) محمد قطب واقعنا المعاصر ص١٢ ط الأولى مؤسسة المدينة للصحافة والنشر ١٩٨٦ ويراجع الأخلاق فى ضوء الفكر الإسلامى ص٢٤ وكذا قضايا فلسفية فى ميزان العقيدة الإسلامية ص٢٧١.

الضحى (٨) وقال الرسول صلى الله عليه وسلم " ما نفعنى مال كمال أبى بكر"[١]. وقال لعمرو بن العاص " نعم المال الصالح للرجل الصالح "[٢].

٥- كذلك من واقعية الأخلاق الإسلامية إقرارها بالتفاوت الفطرى والعملى بين الناس في مجال المهنة وغيرها. فليس كل الناس على درجة واحدة من حيث الإيمان والالتزام بما أمر الله به أو نهى عنه في مجال المهنة وغيرها، فهناك الظالم لنفسه وهو المقصر التارك لما يجب عليه، وهناك المقتصد الذى ألزم نفسه فعل ما يجب عليه، وهناك السابق بالخيرات وهو من زاد فوق ما وجب عليه في الأعمال رغبة فيما عند الله تعالى. ومن ثم كانت الإشارة إلى ذلك في قوله تعالى " ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ "فاطر (٣٢). " فهؤلاء الأصناف الثلاثة – على تفاوت مراتبهم – من الأمة التى اصطفاها الله تعالى وأورثها الكتاب"[٣].

٦- الصلاحية لكل زمان ومكان:

إن من السمات البارزة للنظام الأخلاقى في الإسلام عدم وقوفه في التقنين والتطبيق عند حدود زمن أو بيئة معينة. وإنما كان من أهم سماته: صلاحيته لكل زمان ومكان.ولعل السر في نجاح الإسلام في صلاحيته لمطلق الزمان والمكان مرجعه إلى كونه " نظاماً شاملاً يلائم حياة البشر ومقتضيات فطرتهم في كل زمان ومكان وذلك بدوره يرجع إلى أن الإسلام من صنع بادىء هذا الكون ومنشىء نواميسه، والعالم بما يجد فيه وما يتطور إليه. كل هذا كان في علمه-سبحانه- بما في ذلك التطور التاريخى وما يترتب عليه من تطور اجتماعى واقتصادى وفكرى.وهو لهذا كله وضع الخطوط الثابته والمبادىء العامة والقواعد الشاملة التى لاتخرج أطوار الإنسانية في النهاية عن حدودها، وترك التطبيقات لتطور الزمان وبروز الحاجات في حدود مبادئه العامة وقواعده الشاملة.ولم يدل بتفصيلات جزئية مقيدة إلا في المسائل التى لاتتغير جملتها والتى تؤدى اغراضها كاملة في كل بيئة، والتى يريد الله تثبيتها في الحياة البشرية لأنها ضمان للخصائص التى يرتضيها لهذه الحياة، وأنه بهذا الشمول وهذه المرونة قد كفل لأحكامه التطبيقية النمو والتجدد على مدى الأزمان.وقد بذل فقهاء الدين جهداً ضخماً في التطبيق والقياس والتفريع، كفل لأحكام الإسلام أن تلبى حاجات المجتمع المتجددة فيما لا يدخل مباشرة تحت النصوص"[٤]. ومن ثم تمثلت صلاحية قانون الأخلاق الإسلامى لكل زمان ومكان في عدد من الأمور منها:

(١) رواه أحمد عن أبى هريرة، وإسناده صحيح كما فى التيسير للمناوى
(٣) رواه احمد فى مسنده والطبرانى في الكبير بإسناد صحيح، يراجع د/يوسف القرضاوى الخصائص العامة للإسلام ص١٥٢ ط وهبة القاهرة.
(٣) الخصائص العامة للإسلام ص١٥٤.
(٤) الشيخ سيد قطب العدالة الاجتماعية ص٢١ نقلاً عن أثر الإسلام في بناء المجتمع الفاضل ص١٢، ١٣.

١- ما يحمله في تشريعاته من يسر وسهولة ورفع للحرج عن الناس " وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ" الحج (٧٨).وقوله تعالى "وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا" الأحزاب (٥).وقوله تعالى "يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ" البقرة (١٨٥)." وغير ذلك من التوجيهات الدالة على اليسر والسماحة في أخلاق الإسلام مما يجعلها صالحة للتطبيق في كل زمان ومكان"[١].

٢- تعلق قانون الأخلاق في الإسلام بالحياة الإنسانية من جميع جوانبها الاقتصادية والسياسية والاجتماعية.

٣- موافقة أحكامه للفطرة الإنسانية الخالدة وذلك لطرحه في عصر برزت فيه العناصر الإنسانية المشتركة بين البشر على اختلاف أقوامهم وعصورهم. ومن ثم جاءت أحكام وتشريعات قانون الأخلاق في الإسلام غير خاصة بطور من أطوار البشرية بل موافقة للفطرة الإنسانية التى لا تتبدل ولا تتحول ولا ينالها التغيير. يقول الحق تبارك وتعالى "فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ " الروم (٣٠). ويقول تعالى في وصف خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم وما أتى به " يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ" الأعراف (١٥٧).

٤- كذلك من مظاهر صلاحية قانون الأخلاق الإسلامي لكل زمان ومكان أن ما يقوم عليه من تشريعات قد صاغت المبادىء الكلية، والقواعد الأساسية للثوابت التى لاتتغير بتغير الزمان والمكان، وتركت الأحكام التفصيلية والقوانين الجزئية للاجتهاد بحسب تطور الزمان والمكان.وهذا هو الكمال الذي تميزت به تشريعات الأخلاق فى الإسلام والذى أشار إليه قوله تعالى " وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ" النحل (٨٩). وقوله تعالى " مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ " الأنعام (٣٨).

٧- الإيجابية:

لقد خلق الله الإنسان ومنحه العقل وأمره بالإرادة وزوده بالقدرة، فهو بالعقل يفكر ويدرك، وبالإرادة يوازن ويرجح، وبالقدرة ينفذ، وعلى هذا الأساس أمر الله تعالى الإنسان ونهاه، وبعث له الرسل، وأنزل عليه الكتب، ووضع نصب عينه الثواب والعقاب. ولولا أن الإنسان ذو إرادة وقدرة ما كان لتحميله أمانة التكليف أى معنى ؛ ولا كان ثوابه وعقابه مما يوافق العدل والحكمة الإلهية، ولا كان هناك

(١) يراجع قضايا فلسفية فى ميزان العقيدة الإسلامية ص٢٧٠ وكذا أخلاقنا ص٣٣.

معنى لتعامله بإيجابية في الأرض الذى استخلفه واستعمره سبحانه وتعالى فيها، يقول تعالى " هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا" هود (٦١). أى طلب من الإنسان عمارتها وحسن خلافة الله فيها. وما ذلك إلا لأن الإنسان مخلوق لله، متميز بمواهبه وملكاته، وقواه الروحية والعقلية والمادية، التى أهله الله بها ليحمل مسئولية الخلافة وأمانة التكليف. وهى أمانة بلغت من العظم والثقل مبلغاً عبر عنه القرآن الكريم بهذه الصورة الفنية البليغة حين قال عز وجل " إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا " الأحزاب (٧٢). فالإنسان مخلوق مكلف مسئول، وعليه أن يكدح حتى يلقى ربه فيجزيه بكدحه إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.ولهذا وجه الله تعالى إليه الخطاب بقوله " يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ" الانشقاق (٦).

من هذا المنطلق نقرر أن الأخلاق المهنية في الإسلام ليست مجرد معارف باردة، أو أفكار فلسفية مجردة، بل إنها حقائق تتحول حين يتلقاها العقل فهماً وادراكاً، والفطرة تجاوباً وانسجاماً، إلى واقع حسى تظهر آثاره في سلوك الإنسان وأعماله، وبهذا يدرك أنه لم يخلق عبثاً، وإنما يحمل بين جنبيه رسالة تتطلب العمل، وبذل الجهد، والاندفاع في سبيل الخير.مما ينعكس بصورة إيجابية في تصور العلاقة بين الإنسان والكون، والتى تقوم على الود والحجة والتناسق، فالإنسان ليس في صراع مع الكون أو الطبيعة، وإنما له رسالة من خلالها كلف بخلافة الله في أرضه ليستعمرها ويعمرها.وأن الله تعالى سخر له كل ما في الكون حتي يتم التفاعل بين الإنسان والكون المحيط به. ولذا يقول الحق سبحانهو وتعالى " اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ وَسَخَّر لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَآئِبَينَ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ " ابراهيم (٣٢، ٣٣). وعلى هذا فايجابية الأخلاق الإسلامية في مجال المهنة وغيرها تتمثل في عدد من الأمور منها:

١- وجود المهنة أو الحرفة ذاتها، إذ الطاقات العاطلة أو المعطلة طاقات سلبية لا وزن لها أو اعتبار في قانون الأخلاق الإسلامى.

٢- أن قانون الأخلاق الإسلامي يطلب من الإنسان أن يكون عابداً مطلقاً لله تعالى، بمعنى أن يتعامل مع أمور الحياة، وكل جزيئات الكون بايجابية، من خلالها يقدم النفع في كل مجال تسير له ذلك فيه.فيكون كالغيث أينما حل نفع وأثمر.

٣- أن يقف من سلبيات الحياة في مجال مهنته وغيرها، موقف المقوم والموجه. انطلاقاً من ضرورة التناصح بين أفراد الأمة، وتقويم المنكر على حسب الجهد والطاقة والمسئولية.وبهذا تتحقق للأمة الإسلامية نهضتها فى شتى مجالاتها.

٨- عدم الوقوف عند ظاهر العمل:

لقد تباينت المذاهب الأخلاقية في حكمها على الأعمال الخلقى منها. فمنها من يعول على الفعل من خلال نتائجه، ومنها يعول على النية والمقصد في حكمه على الأفعال. بيد أن قانون الأخلاق الإسلامى مع اعتباره لنتائج الأفعال، والظروف المحيطة بها، فإنه يعول في المقام الأول على المقصد والنية ليكون الفعل في ميزانه خلقياً من عدمه.ولعل مرد ذلك إلى أن من سلطات الحساب والمؤاخذة فيه "العليم، الخبير"من يعلم السر وأخفى الله رب العالمين.وذلك لأن البواعث التى تسوق المرء إلى العمل، وتدفعه إلى إتقانه وإجادته، وتغريه بتحمل التعب فيه، أو بذل الكثير من أجله كثيرةو متباينة.فمنها القريب الذى يكاد يرى مع العمل، ومنها الغامض الذى يختفى في أعماق النفس. وربما لا يدركه العامل المتأثر به، مع أنه سر اندفاعه في الحقيقة إلى فعل ما فعل، أو ترك ما ترك. وقانون الأخلاق الإسلامى في مجال المهنة وغيرها يرقب بعناية فائقة، ما يقارن أعمال الناس من نيات، وما يلابسها من عواطف وانفعالات. وقيمة العمل عنده ترجع – قبل كل شيء – إلى طبيعة البواعث الذى تمخض عنها. ولهذا يقول النبى صلى الله عليه وسلم "إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرىء ما نوى"[(١)].وفى غزوة العسرة، حدث أن تقدم لرسول الله-صلى الله عليه وسلم- فتية آمنوا بربهم، وأرادوا أن يجودوا بأنفسهم في سبيله.بيد أن الرسول- صلى الله عليه وسلم- لم يجد ما يعينهم به على أمر الجهاد. فعادوا وقد أذاب الحزن أكبادهم لتخلفهم –رغما عنهم – عن ميدان الجهاد فنزل قول الله تعالى " وَلاَ عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلاَّ يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ" التوبة (٩٢). فهل يا ترى يهدر هذا اليقين الراسخ في الأفئدة، وهذه الرغبة العميقة في التضحية ؟ كلا! ولذلك نوه النبى صلى الله عليه وسلم بإيمان أولئك القوم وإخلاصهم فقال للجيش السائر:" إن أقواماً خلفنا بالمدينة ما سلكنا شعباً ولا وادياً إلا وهم معنا، حسبهم العذر"[(٢)]. فالنية الصادقة هنا سجلت لهم في صحائف أعمالهم ثواب المجاهدين، قعدوا راغمين لا راغبين." في الوقت ذاته أعلن الإسلام كراهيته العنيفة للرياء في الأعمال الصالحة والنافعة أيا كانت صغرت أم عظمت.وما ذلك إلا لأن الرياء من أفتك العلل بالأعمال، ولهذا يقول النبى صلى الله عليه وسلم " اليسير من الرياء شرك، ومن عادى أولياء الله فقد بارز الله بالمحاربة، إن الله يحب الأبرار الأتقياء الأخفياء، الذين إن غابوا لم يفتقدوا وإن حضروا لم يعرفوا، قلوبهم مصابيح الهدى، يخرجون من كل غبراء مظلمة"[(٣)]. وإنما كانت حملات الإسلام على الرياء وغيره من العلل الناشئة عن فقد الإخلاص. على ما هى عليه من الشدة. لأنها فساد معقد وطريقة ملتوية في التنفيس عن الشهوات المكبوتة. فالرزيلة السافرة تولد جريمة، وتسير في المجتمع جريمة.فهى

(١) اخرجه الإمام البخارى فى باب كيف كان بدء الوحي ٥/١ وكذا الإمام مسلم فى كتاب الإمارة باب قوله صلى الله عليه وسلم " إنما الأعمال بالنيات ١٥١٥/٣.
(٢) رواه البخارى عن أنس كنز العمال ١٠٧٨٤.
(٣) أخرجه الحاكم، والديلمى عن أبى هريرة بلفظ آخر كنز العمال ٦٣٠٧

محل بغض واحتقار من الأفراد، ولعل صاحبها لشعوره بسوئها يثوب منها على عجل أو على مهل. أما الرزيلة التى تظهر في لباس من الطاعة المطلوبة، فهى رزيلة يعم شرها صاحبها، والمجتمع بأسره. إذ إن صاحبها يقترفها وهو يشبع نهم نفسه، في الوقت الذى يتوهم فيه أنه يرضى الله تعالى..... فكيف يستشعر أنه اقترف إثماً أو أتى ذنباً ؟! وكيف يتوب مما يفترض أنه خير ؟ أما المجتمع العام فمصائبه من الفضلاء المنافقين، أشد وأنكى من مصائبه التى ينزلها به معتادوا الإجرام من المجرمين والمهملين. فضعف الإخلاص عند كثير من ذوى المواهب في المهن المختلفة جعل البلاد تشقى بمواهبهم، فباتت لاتبارح الحفر. لهذا اهتم قانون الأخلاق في الإسلام بالنية في العمل، ولم يقف عند ظواهره.فعلى الموظف وهو في ديوان عمله ومهنته أن يحتسب ما يسطره بمداده وما يحسبه بقلمه، وما يكد فيه عقله، ويتعب فيه يده، عملاً يرجو من ورائه رضا ربه ومصلحة وطنه.فالدابة قد تكدح سحابة النهار نظير طعامها، والإنسان قد يهبط بقيمة جهده إلى مستوى الحيوان، فيكون عمله لقاء راتبه فحسب. بيد أن الرجل العاقل يغالى بتفكيره ونشاطه، فيجعلها لشىء أجل وأسمى. ولكن مما يؤسف له أن ثمة جمهور من أصحاب المهن والحرف لايفقهون إلا منطق المال، والدرجة، والترقية، ويحبسون دنياهم داخل هذا الاطار، يربطون رضاهم وسخطهم، وفتورهم ونشاطهم بميزانه، فإن أعطوا رضوا، وإن منعوا سخطوا، يقول الرسول صلى الله عليه وسلم " وإذا كان آخر الزمان صارت أمتى ثلاث فرق: فرقة يعبدون الله خالصاً، وفرقة يعبدون الله رياءً، وفرقة يعبدون الله ليستأكلوا به الناس، فإذا جمعهم الله يوم القيامة قال للذى يستأكل الناس: بعزتى وجلالى ما أردت بعبادتى ؟فيقول:وعزتك وجلالك أستأكل بها الناس، قال:لم ينفعك ما جمعت، انطلقوا به إلى النار، ثم يقول للذى يعبد رياء: بعزتى وجلالى ما أردت بعبادتى؟ قال:بعزتك وجلالك رياء الناس! قال: لم يصعد إلىَ منه شىء، انطلقوا به إلى النار.ثم يقول للذى كان يعبده خالصاً:بعزتى وجلالى ما أردت بعبادتى؟ قال: بعزتك وجلالك أنت أعلم بذلك ما أردت به ذكرك ووجهك- قال صدق عبدى، انطلقوا به إلى الجنة"[1]. ومما ينبغى أن عيه أن الإخلاص العميق ألزم ما يكون لميادين العلم والثقافة، فالعلم أشرف ما ميز الله تعالى به الأكرمين من خلقه، فمما لا يليق به أن يُسخَر لعوامل الشر، وأن تختلط به الأهواء والفتن. والعالم لم تحدق به النكبات والجراحات القاتلة إلا على أيدى علماء فقدوا الخلق الفاضل، ولم يلتزموا بأخلاق مهنتهم، وفقدوا النزاهة المحمودة. لذا أوجب الإسلام من خلال رؤيته للأخلاق المهنية على الأستاذ والطالب جميعاً أن يتجردوا للعلم، وأن ينظرا قبل كل شىء إلى المثل العالية والمصلحة العامة. ووضح قانون الأخلاق الإسلامى أن التعليم والتعلم ابتغاء المال وحده تلهفاً على المنفعة الشخصية المحضة هو في الحقيقة استهانة بقيمته، وإضاعة لرسالته الجليلة.يقول صلى الله عليه وسلم " من تعلم علماً مما يبتغى به وجه الله تعالى، لايتعلمه إلاليصيب عرضاً من الدنيا، لم يجد عرف الجنة يوم القيامة "[2].

(١) رواه الطبرانى.مجمع الوائد ١٧٦٥٦، وكذا ١٨٣٩٧
(٢) رواه أبو داوود كتاب العلم ٣٦٤٧

وقد كره الإسلام كذلك أن يطلب المرء العلم، حتى إذا نبغ استكبر به على الناس، واتخذه وسيلة للشغب والمراء. وفى الحديث " لا تعلموا العلم لتباهوا به العلماء، ولاتماروا به السفهاء، ولا تحبروا به المجالس، فمن فعل ذلك فالنار النار "(١). إن العلم على اتساع صنوفه الدنيوية والأخروية. لن يزدهر ويصل إلى المرحلة التى بلغها أسلفناإلا بالتجرد للحق، والتعالى عن الأغراض الصغيرة التى تنحرف به عن أخلاقياته.ولا يعنى هذا أن يكلف العلماء والمتعلمون بتحمل مشاق العيش، والتعرض للأزمات المحرجة التى تحول بينهم وبين آداء رسالتهم، فإن إخلاص النية لا يستلزم إعنات المخلص وتكبده الأذى والمشاق وإنما يهدف الإسلام من نظرته إلى باطن العمل والعامل وعدم الوقوف عند الظواهر فيه إلى الوصول به، إلى أعلى درجات الإحسان والجودة والإتقان سواء أعطى العامل أم منع، فإذا أعطى العامل فقد حاز ثواب الدنيا والآخرة، وإن منع فما عند الله خير وأبقى، ولن يكون حينئذ التقصير في آداء المهنة الذى ينعكس سلباً على المجتمع وأفراده.

٩- المسئولية:

تعرف المسئولية بأنها " حالة للمرء يكون فيها أهلاً للحكم عليه أو على عمله بالخيرية أو الشرية "٢. وعرفت أيضاً بأنها " إقرار المرء بما يصدر عنه من أفعال وباستعداده لتحمل نتائجها "(٣).

وما يصدر عن الإنسان من أفعال بإرادة حرة قد يتسع مجاله فيشمل كل من هو مسئول عنه، ويشمل كل من يأتمرون بأمره، وكل من يستمدون السلطة منه بصورة مباشرة. ولهذا تمتد مسئولية الرئيس فتشمل المرؤسين في كل الأعمال التى يصدر الأمر بها منه مباشرة أو بالواسطة، مع تفاوت في تحديد درجات المسئولية من خلال سلمها الطويل. والإقرار بالمسئولية عن الأفعال لايكفى وحده، بل لابد من تحمل نتائج هذه الأفعال: وهذه النتائج إما معنوية "الاحترام أو الاحتقار" أو قانونية "الثواب والعقاب"، أو اقتصادية "التعويضات المالية التى يستلزمها الضرر إن وجد" أو أخلاقية "المدح أو الذم". ويجمع قانون الأخلاق الإسلامى كافة النتائج السابقة من خلال تصوره للمسئولية وأطرها.فيشمل الناحية "المعنوية، والأخلاقية، والقانونية، والاقتصادية" أضف إلى ذلك الوجهة الدينية المتمثلة في الحساب الأخروى وما يقترن به من "نعيم أو جحيم".من هذا المنطلق حمل قانون الأخلاق الإسلامى المهنيين على اختلاف فئاتهم المسئولية عن أعمالهم، بحيث أوجب مساءلة كل من أهمل أو قصرأو أساء استعمال السلطة أو خان الأمانة. وقد " أرسى الفقهاء قاعدة تتضمين الصناع، عملاً بمبدأ المصلحة المرسلة، أى أنهم

(١) رواه ابن ماجة، وابن حبان كنز العمال ٣٣٠٣٣ ويراجع هذا الموضوع خلق المسلم ص٦٣ بزيادات وتصرف وكذا قضايا فلسفية ص٢٧٠ وكذا الأخلاق الإسلامية وأسسها ط ١ ص٢٤٨ وما بعدها.
(٢) دراسات فى التصوف والأخلاق ص٢٨.
(٣) الأخلاق النظرية ص٢٢٣.

يضمنون ما بأيديهم، فإذا فرطوا أو أهملوا أو أتلفوا يطالبون بعوض ما أتلفوه أو يجرموا بحسب جرمهم "١.وفى أبواب المعاملات في كتب الفقه الإسلامى تفصيل لكل ذلك.

شروط ترتب المسئولية:

إن قانون الأخلاق الإسلامى عندما أقر بمبدأ المسئولية على الأعمال كان إقراره لهذا المبدأ وفق شروط ومعايير هى:

الشرط الأول:

أن يكون صاحب العمل أو المهنة أهلاً لتحمل المسئولية.فإذا ما فقدت الأهلية لفقدان عقل مثلاً انعدمت المسئولية، يقول النبى صلى الله عليه وسلم " رفع القلم عن المجنون حتى يفيق، وعن الصبى حتى يدرك، وعن النائم حتى يستيقظ "[٢].

الشرط الثانى:

أن يكون العمل إرادياً: أى صادراً عن إرادة صاحب العمل، ومتى اختل هذا الشرط سقطت المسئولية كما في الرعشات ونبضات القلب فهذه وغيرها أمور لامسئولية عليها، والعمل الإرادى الذى تحفه المسئولية ينقسم إلى قسمين

١- إيجابى:

ويتمثل فيما يصدر عن الإنسان من عمل ظاهر كإنفاق في الخير، وإتقان لما كلف به الإنسان في مجال مهنته..... الخ.

٢- سلبى:

وهو ما يتعمد فيه الإنسان ترك العمل مع قدرته عليه.ومنه ما يثاب عليه فاعله كما لو ترك محرماً أو منهياً عنه مما يخل بمهنته أو ما شابه، ومنه ما يعاقب عليه كما لو ترك عملاً سلبياً تجاه أمر واجب التنفيذ. كالساكت عن الحق في وقت يجب عليه الصدوع به.هنا يعد في نظر الشارع شيطاناً أخرس لأنه كتم ما يجب عليه بيانه. يقول تعالى " وَلاَ تَكْتُمُواْ الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ " البقرة (٢٨٣). فكتم الشهادة من قبل العمل الذى تأثم به القلوب، مع أنه سلوك سلبى تجاه عمل كان يجب عليه أن يقوم به.والمسئولية عن الأعمال السلبية ملاحظ فيها أن الإرادة الإنسانية ذات وساطة ما في وجودها، فمن استطاع أن يكف شراً فلم يفعل فإن لإرادته وساطة ما في وقوع الشر.

---

(١) د/عبد الهادى النجار الإسلام والاقتصاد ص٤٠ -ط- عالم المعرفة الكويت ١٩٩٣ وكذا مبادىء الأخلاقيات المهنية ص٢٩٢.
(٢) فتح البارى /٦٨١٥، ٦٨١٦ باب لايرجم المجنون والمجنونة.

الشرط الثالث

أن تتوفر في العمل النية والقصد لما ينجم عنه من نتائج خيراً أو شر. فإن كان لصاحب العمل أو المهنة نية أو غاية أخرى فإن المسئولية الحقيقية عند الله تعالى تكون وفق نيته وغايته. يدل على ذلك قول الحق تبارك وتعالى " لاَّ يُؤَاخِذُكُمُ اللّهُ بِاللَّغْوِ فِيَ أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ " البقرة (٢٢٥). وقوله تعالى " وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا " الأحزاب(٥).وما ذلك إلا لخلو الزلل من القصد القلبى، فكان من مقتضى العدل الإلهى رفع الجناح. هذا عند الله تعالى لأنه سبحانه يعلم ما في قلوب عباده من نيات ومقاصد. أما بالنسبة للناس وأحكامهم الجزائية ؛ فبما أن النيات خفيات عليهم غير ظاهرات، فإنهم مضطرون أن يحكموا على أعمال الناس بحسب ما يظهر منها. ومما يظهر منها ما يكون قرينة مرجحة دالة على النية فتؤخذ حينئذ بعين الاعتبار. وذلك لأن ظاهرة العمل دليل مادى على المراد منه. فإن رافق هذه الظاهرة قرائن تدل على أن المراد شيء آخر كانت هذه القرائن أدلة مادية أخرى معارضة، وعند تعارض الأدلة يلجأ القاضى إلى الترجيح أو إلى أخذ كل من الدليلين بعين الاعتبار فيصدر أحكاماً توفيقية، لا أحكاماً مائلة ميلاً كاملاً إلى أحد الطرفين، ومن أمثلة ذلك:ما لو سدد صياد سهمه ليصيد به صيداً مباحاً، ثم أطلقه فأصاب إنسان. ففيما يتعلق بالله تبارك وتعالى فإنه يعلم نيته حتماً، فيحاسبه يوم القيامة عليها. أما حكم الناس عليه فإنه مقيد بالأدلة المادية الظاهرة. فحادثة القتل للإنسان دليل مادى ظاهر والأصل فيه أن يدل على إرادة القاتل أن يقتله، إلا أن هذا الدليل قد اقترن به أدلة وقرائن أخرى، تدل على أن القاتل لم يكن يريد أن يقتل هذاالإنسان، إنما كان يريد أن يصيد صيداً مباحاً، إذ الزمان والمكان وطبيعة السلوك وقرائن الأحوال تفيد ذلك، لكن هذه القرائن لاتكفى لإعطاء اليقين بأنه لم يكن يريد قتل الإنسان قطعاً، لاحتمال أن يكون قد رتب بمكر كل هذه القرائن، أو رآها موجودة فاستغلها، فمن الطبيعى والحالة هذه أن نلجأ إلى التوفيق والتوسط، فنعفى القاتل من القصاص رعاية لاحتمال براءة النية من إرادة الجريمة، مع وجود القرائن التى تفيد ذلك ونلزمه بالدية والكفارة، رعاية لاحتمال إدانة النية بإرادة الجريمة.يضاف إلى ذلك أن الخطأ الذى قد يفضى إلى قتل برىء من الناس أمر تحيط به عدد من الملاحظات هى:

١- أنه أمر عظيم يتعلق بحياة الإنسان.
٢- احتمال ادعاء الخطأ على سبيل الكذب فراراً من القصاص، وإسقاطاً لحق أولياء القتيل.
٣- احتمال وقوع تهاون وتقصير أفضيا إلى القتل الخطأ.

ونظراً إلى هذه الملاحظات المرافقة للقتل على سبيل الخطأ، رفع الله تعالى عن القاتل خطأ حكم القصاص، عملاً بأصل القاعدة التى تتضمن دفع المسئولية، وألزم القاتل بالكفارة لتشتد حيطة الناس في مثل هذا الأمر الجسيم، وليبالغوا في البعد عن كل مظان الخطأ الذى قد يفضى إلى قتل البرآء من الناس.وألزم بالدية

صيانة لحق أولياء القتيل، ومراعاة لاحتمال أن يكون ادعاء الخطأ ادعاء كاذباً، مهما كانت القرائن مؤيدة صدق الإدعاء.لأن التعمد الحقيقى عمل من أعمال القلوب، فربما يوجد دون أن تدل عليه أمارة ظاهرة، يقول سبحانه " وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلاَّ خَطَئًا وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَئًا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ " النساء (٩٢).

الشرط الرابع:

العلم بالعمل.وبما يؤدى إليه العمل من خير أو شر، والعلم بحكمه الشرعى أو الأخلاقى: ففى ظاهر قانون الأخلاق الإسلامى أنه المسئولية مع الجهالة التى يعذر بها صاحبها، وللمعرفة بما ينبغى أن يكون من فضائل الأخلاق في مجال المهنة وغيرها طريقان:

الطريق الأول:

ما أودعه الله تعالى في فطر العقول من موازين ذاتية تدرك بها جملة من الفضائل والرزائل، وما أودع في فطر القلوب والنفوس من مشاعر داخلية يحسن فيها الإنسان بطائفة من فضائل الأخلاق ورزائلها، ومن أمثلة ذلك: الظلم الذى يلتقى كافة الخلق على إدراكه كما تدركه أمم من العجماوات غير العاقلة، يقول النبى صلى الله عليه وسلم " لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة، حتى يقاد للشاه الحلجاء – التى لا ترون لها – من الشاة القرناء "[(١)].

الطريق الثانى:

الإعلام المباشر أو بواسطة المبلغين.ومن خلال هذا الطريق نجد:

١- أن الله تعالى قد استخدمه مع خلقه وعباده. إذ لم يترك سبحانه وتعالى الناس لما أودع في فطرتهم من أنوار يستطيعون بها أن يعرفوا الخير والشر، والحق والباطل.لأن الاستطاعة الفطرية قد تظل راكدة نائمة، فهى بحاجة إلى من يحركها ويوقظها ويبصرها ويهديها إلى سبيل كمالها. ولو لم ينزل الله تعالى الشرائع لكان للناس أن يحتجوا بجهلهم أو بغفلتهم وعدم انتباههم، ولكان احتجاجهم هذا مقبولاً في محكمة العدل الربانية. ولذا قال الله تعالى في بيان ما ألزم الله به نفسه من إعلام عبادة شرائعه لهم " وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً" الإسراء (١٥).وقوله تعالى " وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ إِنَّ اللّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ " التوبة(١١٥). وفى بيان قطع أعذار الناس حتى لا يعتذروا بالجهل أو بالغفلة أو بمواريث البيئة، يقول الله تبارك وتعالى " رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا" النساء (١٦٥). وفى معرض بيان جذور الإيمان الأولى في فِطَر الناس، وما جاء من تأكيدها ببلاغات الدين المنزلة،

(١) رواه مسلم ٢٥٨٢.

يقول الله تعالى " أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ أَوْ تَقُولُواْ إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ " الأعراف (١٧٢)، (١٧٣).

٢- كذلك كان النسيان الذى يعذر به صاحبه حالة من حالات الجهالة لأن الناسى قد ارتفع علمه بالتكليف وقت نسيانه، وكان سبباً من أسباب ارتفاع المسئولية عنه.فعن ابن عباس-رضى الله عنهما- أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:" إن الله تجاوز عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه " – رواه ابن ماجة والبيهيقى-. أما النسيان الذى لايعذر به صاحبه فلا ترفع المؤاخذة بسببه. كالنسيان الناشىء عن الإهمال والتهاون والتقصير، وكنسيان الحقائق الكبرى التى تقترن بالمذكرات الدائمة.

٣- قد يقال أن باستطاعة الإنسان أن يتهرب من المعرفة، فلا يزال منغمساً في ظلمات الجهل ليعفى نفسه من المسئولية.والواقع أن هذا فهم ضيق لموضوع المسئولية، وقول باطل لايليق بفهما. لأن الإنسان مسئول أولاً عن تعلم ما يجب عليه التزامه من سلوك حسن، ومسئول عن تعلم ما يجب عليه اجتنابه من سلوك قبيح، ومسئول ثانياً عن تطبيق العلم بالعمل.وقد أنزل الله الشرائع، وأرسل الرسل، فعرفوا الناس، ولفتوا أنظارهم إلى ما يجب عليهم أن يعرفوه ويعملوا به في المهن والحرف وشتى المجالات، وأباح للناس أن يضعوا لأنفسهم تقنينات تتناسب مع ظروف حياتهم، وتصلح من شأن مجتمعاتهم في مجال الحرف وغيرها مما لايتعارض مع أصول الدين ومقاصد التشريع، فلا عذر بعد ذلك للهارب من المعرفة زاعماً الاعتصام بالجهل الذى يجعله برىء الذمة.إنه سيسأل مرتين: لِمَ لم يتعلم ؟ ولِمَ لم يعمل ؟ وقد كان باستطاعته أن يتخلص من الجهل، ويعرف ما يجب عليه أن يعمله وما يجب عليه أن يجتنبه، وهذا مما هو مسئول عنه، ومكلف به، وقد لفت نظره إليه، لكنه إذاسعى وراء المعرفة فلم يصل إليها، أو لم يتسع وقته للوصول إليها، فإن جهله حينئذ غير ناشىء عن تقصير منه، فيعذر ربه ١ وترتفع عنه تبعة المسئولية.لذلك فإن عامة الممتهنين لايعذرون ولا تسقط المسئولية عنهم إذا تركوا ما يجب عليهم فعله في حرفتهم، أو قصروا في ذلك متعللين بجهلهم بأحكام وقواعد مهنهم وحرفهم، إذ من الواجب عليهم أن يتعلموا ويرفعوا الجهل عن أنفسهم، وقد قصروا في هذا الواجب، فعليهم أن يتحملوا تبعات تقصيرهم وإهمالهم.

الشرط الخامس

كون العمل مستطاع الفعل والترك:

(١) يراجع الأخلاق الإسلامية وأسسها ص١٢٠ وما بعدها بتصرف وكذا فى الأخلاق الإسلامية والإنسانية ص٦٠ وما بعدها.

وبناء على هذا فلا مسئولية عن العمل مع وجود العجز، سواء أكان عجزاً عن الفعل، أو كان عجزاً عن الترك، وبداهة العقول تقضى بأن الاستطاعة شرط لترتب المسئولية، فمثلاً توجد حركات من الإنسان ذاته بيد أنها في الوقت نفسه خارجة عن دائرة مسئوليته وذلك كالخواطر التى يستدعيها الإنسان بإرادته، وكهم النفس بشهوة من الشهوات التى لا يتعمد إثارتها، ولا يتخذ بإرادته أسبابها إلى غير ذلك مما هو خارج عن دائرة استطاعته، وليس خاضعاً لسلطان إرادته، ومن ثم تنتفى المسئولية عنه، أمام كل ذلك وما شابهه يقول تعالى " لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا" البقرة (٢٨٦). ويقول تعالى " لاَ نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا" الأنعام (١٥٢).ويقول تعالى" لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا" الطلاق (٧).

الشرط السادس

تمتع صاحب المهنة بالحرية عند آداءه لعمله ومزاولته لمهنته، فالمسئولية تتأسس على قاعدة من الحرية الواعية، مما يعنى أن كل فعل يصدر من المرء دون حرية واعية لا تترتب عليه أى مسئولية خلقية[١]. فالإنسان مخلوق مكلف والتكليف مسئولية، والمسئولية لاتقوم إلاعلى دعامة من الحرية في الفعل والترك. وهذا أمر مقرر في أصل الإيمان فأولى به أن يوجد في سائر الأعمال، يقول تعالى " فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ" الكهف (٢٩). ومن ثم يترتب على هذه الحرية في الفعل قضية الثواب والعقاب، يقول تعالى " مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاء فَعَلَيْهَا" فصلت (٤٦).ومما يخل بحرية الإنسان عامة والممتهنين خاصة، الإكراه الذى يعنى "الإلزام" على سبيل القهر والغلبة بالقيام بعمل من الأعمال المادية الظاهرة، تحت تأثير قوة ملجئة أو تهديد بانتقام أشد ضرراً وشراً من الضرر أو الشر اللذى يفضى اليه العمل المكره عليه، والملزم بالقيام بالعمل كاره له، مقهور عليه، مغلوب على أمره فيه "[٢]. ومن المعلوم أن الإرادة لاتكون تامة الحرية في حالة الإكراه بل هى مغلوبة مستكرهه، لذلك نلاحظ أن الأحكام الإسلامية قررت رفع مسئولية الإنسان عن الأعمال المادية التى يستكره على فعلها وذلك ضمن شروط وتفصيلات مبينة في كتب الفقه. روى ابن عباس عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال: "إن الله تجاوز عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه "[٣]. أى ان الله تعالى تجاوز عن مؤاخذة الإنسان على عمله في كل مما سبق، ضمن شروط وأطر بينتها الشريعة الإسلامية في مواضعها، ومن أول هذه الشروط التى ترفع فيها المسئولية عن المكره:" ألا تتفق إرادته القلبية مع إرادة من استكرهه على العمل، أو ألا تكون إرادته القلبية موافقة على القيام بالعمل لذاته بعيداً عن ملاحظة حالة الإكراه الضاغطة عليه "[٤]. وقد ذكر القرآن الكريم أمثلة لذلك فيها

(١) د/محمود زقزوق الإنسان في التصور الإسلامى ص٣٦ ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ويراجع مقدمة فى علم الأخلاق ص٣٨.
(٢) الأخلاق الإسلامية وأسسها ط ١ ص١٢٧ وكذا فى الأخلاق الإسلامية ص٦٠.
(٣) اخرجه ابن ماجة والبيهقى وهو صحيح لطرقه.
(٤) الأخلاق الإسلامية وأسسها ص١٢٨ وكذا فى الأخلاق الإسلامية والإنسانية ص٦٠.

تنعدم المسئولية عن المكره، منها إكراه أولياء الإماء إماءهم على البغاء استناداً لسلطان الولاية عليهن.

قال تعالى " وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاء إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِن بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ " النور (٣٣). ومن أمثلة ذلك أيضاً ما ذكره القرآن الكريم في حال إكراه المؤمن على إعلان الكفر تحت ضغط تهديد ووعيد بالقتل لايستطيع له دفعا، أو عذاب شديد لاسبيل لتحمله، يقول تعالى " مَن كَفَرَ بِاللّهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَـكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ" النحل (١٠٦). هذه شروط توافر المسئولية التى بها يسئل الإنسان عن عمله ويؤاخذ بما قدمت يداه في مجال مهنته وحرفته، وسائر أعماله.

أنواع المسئولية:

إن المسئولية في تصور قانون الأخلاق الإسلامى تلازم صاحبها قبل صدور الفعل وأثناءه وبعده، وهذا يعنى أن صاحبها له شخصيته المستقلة، وإرادته الحرة في أن يفعل وأن لا يفعل، وفى الوقت ذاته له قدرته الذاتية على تنفيذ ما استقرت عليه إرادته، وبهذا المعنى تعد المسئولية صفة معبرة عن كرامة الإنسان لأنها في هذه الحالة مرادفة لمعانى الحرية والاستقلال والعزة والقوة لديه، ومن خلال هذا التصور للمسئولية فإنها تنقسم إلى نوعين هما:

أولاً: المسئولية الفردية أو الشخصية:

ومن خلال هذا النوع من أنواع المسئولية لاتزر وازرة وزر أخرى يقول تعالى " كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ " المدثر (٣٨).ويقول تعالى " وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا " النساء (١١١).ويقول تعالى " وَلاَ تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلاَّ عَلَيْهَا وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ" الأنعام (١٦٤). ومع هذه المسئولية الفردية على الأعمال نجد دوائر مختلفة للمسئولية، وردت في قول النبى صلى الله عليه وسلم " كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته"

فالإمام راع ومسئول عن رعيته، والرجل في أهله راع ومسئول عن رعيته، والمرأة في بيت زوجها راعية ومسئولة عن رعيتها، والخادم راع في مال سيده ومسئول عن رعيته، وكلكم راع ومسئول عن رعيته"[(١)]. وبالإضافة إلى هذه المسئوليات الخارجية، التى تحددها ظروف كل فرد في الحياة ومركزة في المجتمع الذى يعيش فيه، توجد هناك مسئولية خاصة تعد بمثابة المركز لكل دائرة من دوائر المسئولية الأخرى وهى: مسئولية الإنسان عن نفسه، فهو مسئول عن عقله، وعمله، وجسمه، وماله، ووقته، وحياته بصفة عامة، وفى هذا المعنى يقول النبى صلى الله عليه وسلم " لاتزول قدما عبد يوم القيامة، حتى يسأل عن:عمره فيم أفناه،

(١) رواه البخارى كتاب الجمعة –باب الجمعة فى القرى والمدن.

وعن عمله ماذا فعل به، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، وعن جسمه فيم أبلاه"[١].

ثانياً: المسئولية الجماعية:

ويتضمن هذا النوع مسئولية الإنسان نحو الآخرين، ونحو العالم الذى يعيش فيه. فمن المعلوم أن الإنسان بطبيعته كائن اجتماعى، وهو في حاجة إلى المجتمع الإنسانى لتطوير شخصيته وإبراز مواهبه، ومن ناحية أخرى فإن عليه التزامات أدبية تجاه هذا المجتمع، وهذه الالتزامات مرتبطة أشد الارتباط بوجوده الإنسانى. وكل من سلم عقله من الناس يشعر بأنه لو لم يتحمل مسئوليته تجاه الآخرين فإنه لايجوز له أن ينتظر من الآخرين أن يتحملوا بالنسبة له أدنى مسئولية.من هذا المنطلق وضع قانون الأخلاق الإسلامى الفرد والمجتمع أمام مسئوليات جماعية كثيرة على رأسها حسن قيام الإنسان بآداء ما هو واجب عليه في دائرة نفوذه أولاً، ودائرة اهتمامه ثانياً، من هذا المنطلق تواترت النصوص الحاثة على الاهتمام بهذا النوع من أنواع المسئولية، فنجد قول الحق سبحانه " وَاتَّقُواْ فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ " الأنفال (٢٥). وقول النبى صلى الله عليه وسلم " إن الناس إذا رأوا المنكر، ولا يغيرونه أوشك الله أن يعمهم بعقابه"[٢] وقال صلى الله عليه وسلم " لعن الله من رأى مظلوماً فلم ينصره"[٣]. وقوله صلى الله عليه وسلم "مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها، وأصاب بعضهم أسفلها فكان الذين في أسفلها إذا استقوا مروا على من فوقهم فآذوهم، فقالوا:لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا، فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً"[٤].

(١) رواه الترمذى فى كتاب صفة القيامة وقال حديث حسن صحيح ويراجع الإنسان فى التصور الإسلامى ص٥٠، ٥١ وكذا مقدمة فى علم الأخلاق ص٣٨.
(٢) رواه احمد عن ابى بكر – الجامع الكبير ٢١٥/١.
(٣) اخرجه البخارى –باب كيف كان برد الوحى ٥/١ ومسلم فى كتاب الإمارة باب إنما الأعمال بالنيات ١٥١٥/٣.
(٤) رواه البخارى والترمزى عن النعمان بن بشير ويراجع الإنسان فى التصور الإسلامى ص٥١ وكذا أخلاقنا ص٣١.

١٢- الجزاء:

تعريفه:

يعرف الجزاء في اللغة بأنه المكافأة على الشيء، ومنه ما يكون ثواباً ومنه ما يكون عقاباً[١]. وعلى هذا فإنه يمكن تعريفه في الاصطلاح أنه " الإثابة على عمل الخير، والعقوبة على عمل الشر ".

مشروعية الجزاء في الإسلام:

لقد خلق الله تعالى الإنسان وهداه السبيل:إما شاكراً وإما كفورا، وأبدع النفس الإنسانية، وألهمها فجورها وتقواها. فوقف الإنسان بهذه الصورة في وسط طريق تتجاذبه فيه نوازع الخير والشر، ومن خلال إرادته الحرة يمكنه أن يميل إلى أى الطرفين، وما أكثر المتناقضات: إذ تتجلى أعمال الإنسانية من خير وشر، وإيمان وكفر، وأمانة وخيانة، ونبالة وسفالة، وإخلاص ورياء، وعدل وظلم، وحب وكره، وطاعة وعصيان، وبالاختصار من متناقضات لاعد لها ولا حصر.وإذا كان جانب الشر منها قد دعا المتشائمين إلى اليأس والقنوط، فقد دعا جانب الخير منها أولى العزم من الرسل وإخوانهم وأتباعهم وأنصارهم وأصدقاء الخير في كل عصر وزمان إلى الجد في نصرة الخير وجنده، وفى حرب الباطل وحزبه، غير يائسين ولا قانطين، يستخدمون في ذلك شتى الأساليب ما بين دعوة إلى الخير هينة سمحة لينة، وآية لله ظاهرة بينة، ووعد بالخير يرجى، ووعيد بالعذاب يتقى.قام أنصار الحق بكل هذا في سبيل هداية الإنسانية، وقام سلطان الدين والأخلاق على الوازع الداخلى الحر الذى لا سيطرة لأحد عليه:إلا الخالق سبحانه وتعالى[٢]. وما كان أسعد العقبى لو أن كل إنسان اتخذ مما شرعه الله تعالى، وصوت ضميره المستنير بتعاليم ربه أنواراً تهديه إلى سواء السبيل. ولكن أبت قلوب عليها أكنة، وأبصار عليها غشاوة إلا أن تستحب العمى على الهدى، وتؤْثر الغىَ على الرشاد، فكان من حكمة الله سبحانه أن أرصد لها عقوبات نصية وتعزيزات تقديرية ينفذها السلطان الذى يزع الله تعالى به من لا يزعهم القرآن، وذلك نظراً لمقتضيات الحياة، وضرورة استقرار المجتمعات، وضماناً لحسن تنظيم العلاقات بين الأفراد، وكفالة لحقوقهم من النهب والضياع.فكانت جزاءات الدنيا التى بها توضع الأمور في نصابها، وإذا ما أفلت الإنسان منها فإن المشرع لها هو علام الغيوب، الذى جعل من جزاء الآخرة عوضاً لمن لم يلحقه جزاء الدنيا، إن خيراً فخير وإن شراً فشر.وبهذا تزجر النفوس عن مخالفة ما شرعه الله تعالى لها في قانونه وأحكامه.

مميزات قانون الجزاء الإسلامى:

(١) ابن منظور لسان العرب مادة جزى –ط- ١ بيروت.
(٢) يراجع دراسات فى العقيدة الإسلامية والأخلاق ص٢٠٥ وكذا دراسات فى التصوف والأخلاق ص٣٨ وكذا الفكر الإسلامى ص١١٥ بتصرف وزيادات.

إذا ما تأملنا مشروعية الجزاء في الإسلام نلمح عدداً من الأمور التى بها يتميز قانون الأخلاق في الإسلام منها:

١- شموله للجزاءات الأخلاقية، والطبعية، والوضعية، والخلقية فهو يغنى عنها ولا تغنى عنه.
٢- وحدة سلطانه فلا يختلف من شخص لآخر.
٣- أن القوة الملزمة فيه لا تستمد من رقابة بشرية، قد تخطىء وقد تصيب، وقد تذكر وقد تنسى، قد ترى وقد لا ترى، ولكنها تستمد من الله العلى العظيم الذى لا تأخذه سنة ولا نوم، والذى يعلم السر وأخفى.
٤- أنه ثابت لا يتغير، وهو عادل دائماً لا إفراط فيه ولا تفريط، فلا يزيد في جانب عما يجب، ويقصر في جانب آخر.وعدالته هذه تأتى من مصدره، فمصدره هو الله سبحانه فاطر الخلق ومبدعهم والعالم بما يصلحهم من جزاءات في الدنيا والآخرة.(١)

أنواع الجزاء:

تنوعت الجزاءات في قانون الأخلاق الإسلامى، تبعاً لما يهدف إليه من إصلاح الفرد والمجتمع، واستقامته في شئون مهنته ومختلف أعمال حياته فكان منها:

أولاً: الجزاء الدنيوى

ويتمثل فيما يجده الإنسان في حياته الدنيا من ثواب أو عقاب نتيجة لعمله.وهو نوعين:

نفسى أو معنوى:

وهو نوع من الإحساس بالرضى أو التأنيب عما يقوم به من خير أو شر، ومن ثم يقول النبى صلى الله عليه وسلم " إذا ساءتك سيئتك، وسرتك حسنتك، فأنت المؤمن"(٢).

وفي حديث آخر يشير الرسول صلى الله عليه وسلم إلى أن إحساس الإنسان بالجزاء الأخلاقى، إنما يكون متلازما لشدة الإيمان وضعفه في نفسه. فيقول صلى الله عليه وسلم: " المؤمن يرى ذنبه فوقه كالجبل يخاف أن يقع عليه، والمنافق يرى ذنبه كذباب مر على أنفه فأطاره "(٣). ومن أعظم الذنوب تفريط الإنسان فيما أؤتمن عليه في مهنته وعمله، وتقصيره في آداء واجباته فيها، يقول تعالى في شأن جزاء المستقيمين الذين أحسنوا في آداء ما كلفوا به " لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ" الزمر (١٠). ويقول تعالى " مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ " النحل (٩٧).أما من أساء فإنه تعالى

(١) دراسات فى العقيدة والأخلاق ص٢٠٧ بتصرف.
(٢) رواه الإمام احمد يراجع مجمع الزوائد رقم ٨١٨.
(٣) رواه الترمزى ويراجع الأخلاق فى ضوء الفكر الإسلامى ص٤٢.

يلحقه في دنياه من صنوف العذاب النفسي ما يعبر عنه سبحانه بقوله " وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ " النحل (١١٢).

ويحدثنا القرآن الكريم عن عدد من الموبقات الأخلاقية الذى يجد مرتكبوها صدى في عقاب الدنيا إذ يقول سبحانه " فَمَا جَزَاء مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ" البقرة (٨٥).

ب – الجزاء الدنيوى المادى:

ويتضمن الاجراءات العقابية لهؤلاء الخارجين على الآداب والأخلاقيات التى شرعت لحماية المجتمع وصيانة أمنه.وهذه الاجراءات العقابية المادية يزع الله بها كل من فسدت طويته، وطمست فطرته فلم يدرك هدى الله فيها، ولم يردعه وازع ذاتى من إيمان أو تقى وهى نوعين:

أولاً: الحدود: وهى عقوبات مقدرة لا يجوز إسقاط عقوبتها متى رفعت إلى القاضى. وقد جعل الله تعالى إقامتها حقاً له وحده سبحانه[١]، فلا يجوز لأحد أن يعفو ويصفح. وما ذلك إلا لأنها جرائم خطيرة إذا ترك أمرها للبشر فتساهلوا في إقامتها حصل من جراء ذلك فساد وخلل اجتماعى كبير كما في السرقة، والزنا وغيرهما.على أننا ينبغى أن نعلم أن فلسفة إقامة الحد المعين في السرقة مثلاً أن الإسلام "يفترض ابتداءً أن الإنسان يجب أن يعيش من طريق شريف وأن يحيا على ثمرات كفاحه أى أنه لا يبنى كيانه على السرقة.... فإذا كفلت للفرد ضروراته ثم مد بعد ذلك يده، محصت حالته جيداً قبل إيقاع العقوبة عليه فلعل هناك شبهة تثبت أن فيه عرقاً ينبض بالخير، فإذا تبين مع تتبع أحوال الشخص أن فطرته طمثت، وأنه أصبح مصدر عدوان على البيئة التى كفلته وآوته وأنه قابل عطفها وعنايتها، بتعكير صفوها وإتلاف أمنها، فلا ملام على هذه البيئة إذا حدث عدوان أحد من أفرادها فكسرت السلاح الذى يؤذى به غيره..... فالحد الذى شرعه الإسلام هو وقاية للجماعة العادلة المصلحة، من ضراوة عضو فيها يقابل عدالتها بالظلم، ويقابل إصلاحها بالفساد"[٢].

ثانياً: التعزيرات: وتكون في الجرائم التى ليس فيها حد مقدر ولا كفارة[٣]. وقد تناولت كتب الفقه الإسلامى على اختلاف مذاهبه في أبواب المعاملات وغيرها التعزيرات البدنية، والمالية وغيرهما عند حدوث الخلل والتقصير، أو وجود التلف والفساد. وقد مثل الإمام ابن تيمية لهذه الجرائم

(١) يستثنى من ذلك القصاص فإنه يجوز لأولياء الدم فيه العفو وقبول الدية.
(٢) خلق المسلم ص٢٦ ويراجع د/عمر الأشقر نحو ثقافة إسلامية أصيلة ص٣٠٣ ط دار النفائس.
(٣) الإمام ابن تيمية السياسة الشرعية ص٩٦-ط- دار الكتب الحديثة بيروت.

"بالذى يسرق من غير حرز، أو شيئاً يسيرا، أو يخون أمانته كولاة أموال بيت المال، أو الوقوف، ومال اليتيم ونحو ذلك، إذا خانوافيها، وكالوكلاء والشركاء إذا خانوا، أو يغش في معاملته كالذين يغشون في الأطعمة والثياب ونحو ذلك، أو يطفف المكيال والميزان، أو يشهد الزور، أو يلقن شهادة الزور، أو يرتشى في حكمه، أو يحكم بغير ما أنزل الله تعالى، أو يعتدى على رعيته.....الخ"(١). فهؤلاء وأمثالهم كما يقول الإمام ابن تيمية " يعاقبون تعزيراً وتنكيلاً وتأديباً بقدر ما يراه الوالى على حسب كثرة ذلك الذنب في الناس وقلته... وعلى حسب حال كبر الذنب وصغره"(٢). وليس للتعزير حد معين بل هو كما يقول الإمام ابن تيمية يتم"بكل ما فيه إيلام الإنسان من قول أو فعل، وترك قول، وترك فعل، فقد يعزر الرجل بوعظه وتوبيخه والإغلاظ له، وقد يعزر بهجره وترك السلام عليه حتى يتوب إذا كان ذلك هو المصلحة كما هجر النبى-صلى الله عليه وسلم- أصحابه الثلاثة الذين خلفوا، وقد يعزر بعزله عن ولايته، كما كان النبى صلى الله عليه وسلم واصحابه يعزرون بذلك، وقد يعزر بترك استعماله في جند المسلمين كالجندى المقاتل، إذا فر من الزحف فإن الفرار من الزحف من الكبائر وقطع خبزه نوع تعزير له، وكذلك الأمير إذا فعل ما يستعظم فعزله من الإمارة تعزير له، وقد يعزر بالحبس، وقد يعزر بالضرب، وقد يعزر بتشويه الوجه – أى بتسويده – وإركابه على دابة مقلوباً"(٣).

ثانياً: الجزاء الأخروى:

إن وجود الجزاء الأخروى في قانون الأخلاق الإسلامى لشاهد صدق على تكامليته في نظرته لموضوع الجزاء، فكثير من الناس يقع الظلم عليهم في حياتهم الدنيا، ولقصور النظرة لدى المطبقين للأحكام فيها لا يرفعون الظلم عن قوم وقع الظلم عليهم، وآخرون بخسوا حقهم فيها. فكان من تكاملية الجزاء في الإسلام وجود الجزاء الأخروى، الذى يتولى سلطة الحساب فيه علام الغيوب، لينتصف ممن ظلم في حياته الدنيا ويجازى كل امرىء بما كسبت يداه، إن خيراً فخير وإن شراً فشر، ومن ثم يؤكد النبى صلى الله عليه وسلم على أهمية الجزاء الأخروى في إيصال الحق لمستحقه، ونصفة من ضاعت حقوقهم في حياتهم الأولى. فيقول في الحديث الذى ترويه السيدة أم سلمة " جاء رجلان من الأنصار يختصمان إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في مواريث بينهما قد درست ليس بينهما بينة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:إنكم تختصمون إلىَ وإنما أنا بشر، ولعل بعضكم ألحن بحجته من بعض، فإنى أقضى بينكم على نحو ما أسمع، فمن قضيت له من حق أخيه فلا يأخذه فإنما أقطع له القطعة من نار يأتى بها إسطاماً في عنقه يوم

(١) السياسة الشرعية ص٩٧.
(٢) المرجع السابق ص٩٧.
(٣) السياسة الشرعية ص٩٧.

القيامة"[1]. ومن ثم كان بيان الحق سبحانه وتعالى لأهمية الجزاء الأخروى في رد المظالم لأصحابها، إذ يقول سبحانه " وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ" الأنبياء (٤٧).ويقول سبحانه "فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ " يس (٥٤). ويقول سبحانه " إِنَّ السَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى" طه (١٥). ويقول تعالى "وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَآئِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا " الإسراء (١٣، ١٤). ويقول تعالى " فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ " الزلزلة (٨، ٧). ويقول تعالى في حق الأخيار في الآخرة " إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ " البينة (٨، ٧). ويقول تعالى في حق من تنكب عن طريقه وقصر أو خان فيما وكل إليه " إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاء كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءتْ مُرْتَفَقًا" الكهف (٢٩).

ثالثاً: التوبة:

لقد أراد الإسلام من خلال فلسفة الجزاء فيه أن يضفى عليه بعداً تربوياً فشرع التوبة ضمن منظومته وأحكامه، وذلك لأن التشدد في العقوبة دون موارية باب الصفح والغفران يولد في نفس من أجرم أو أساء في مهنته، أو في غيرها شعوراً باليأس يترتب عليه في كثير من الأحيان حالة من اللامبالاة.وأمر كهذا إذا ما تولد في النفس وتمكن منها يمكن أن يؤدى إلى ضراوة في الشراسة والعدوانية، والإمعان في الإساءة والإجرام. وهذا مما لاشك فيه يمكن أن يؤدى إلى نوع من الجريمة المنظمة التى تقض أمن المجتمع واستقراره.وهذا ما أشار إليه النبي صلى الله عليه وسلم في قوله " كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفساً، فسأل عن أعلم أهل الأرض فدل على راهب، فأتاه فقال:إنه قتل تسعة وتسعين نفساً، فهل له من توبة؟ فقال لا، فقتله فكمل به مائة، ثم سأل عن أعلم أهل الأرض، فدل على رجل عالم، فقال:إنه قتل مائة نفس، فهل له من توبة؟ فقال نعم، ومن يحول بينه وبين التوبة؟ انطلق إلى أرض كذا وكذا، فإن بها أناساً يعبدون الله تعالى فاعبده معهم، ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء، فانطلق حتى إذا نصف الطريق أتاه الموت، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فقالت ملائكة الرحمة:جاء تائباً مقبلاً بقلبه إلى الله تعالى، وقالت ملائكة العذاب:إنه لم يعمل خيراً قط، فأتاهم ملك في صورة آدمى فجعلوه بينهم، فقال:قيسوا ما بين الأرضين، فإلى أيتهما كان أدنى فهو له، فقاسوا فوجدوه أدنى إلى الأرض التى

(١) رواه البخارى كتاب الشهادة ٢٤٨٣ وكذا كتاب الأحكام ٦٦٣٤ وكذا الإمام مسلم الحكم بالظاهر ٣٢٣١ وكذا ابن ماجة الأحكام ٢٣٠٩ والترمزى فى سننه الأحكام عن رسول الله ١٢٥٩ وأبو داوود فى الأقضة ٣١١٢ والإمام احمد فى مسنده فى مسند الأنصار ٢٥٤٩٢ والإمام مالك فى الموطأ الترغيب فى القضاء بالحق ١٢٠٥.

أراد، فقبضته ملائكة الرحمة"[1]. من هنا نقول إن فلسفة الجزاء في الإسلام ضمت بين جنباتها التوبة، لأنه لولا فتح بابها لكل العصاة لتحول المسيء اليائس من التوبة والغفران، والرجوع إلى المجتمع، إلى أكبر طاغ وأخبث شيطان. ولذلك كانت أصول التربية السليمة في قانون الأخلاق الإسلامى تقضى بعدم التيئيس من الإصلاح، وبعدم التقنيط من الرجعة إلى الاستقامة، مهما تمادى صاحب المخالفات في مخالفته وانحرافه.وإذا اقتضى الأمر معاقبته فإنه يعاقب ومع ذلك يفتح له باب التوبة والرجاء والإصلاح حتى آخر مرحلة من حياته.وقد بين القرآن الكريم ذلك في غير موضع منه، فالسارق قد خان الأمانة، وامتدت يده إلى ما يملكه الغير فكانت له العقوبة، ثم كانت له بعد ذلك التوبة، يقول تعالى " وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُواْ أَيْدِيَهُمَا جَزَاء بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللّهِ وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ فَمَن تَابَ مِن بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ " المائدة (٣٩، ٣٨). ويقول تعالى " أَنَّهُ مَن عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ" الأنعام (٥٤). فالوعد بالمغفرة والرحمة لمن عمل سوءاً بجهالة، مشروط بتوبة المذنب من بعد ذنبه، وبإصلاح نفسه وسلوكه.وإصلاحه يكون بتعديل انحرافه، وباستقامته على نحو ما شرع له من أخلاقيات وآداب في كافة المجالات. ويحكى لنا القرآن الكريم قصة ثلاثة تخلفوا عن الخروج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة "تبوك" وقصروا في آداء واجبهم، فعندما عاد النبى صلى الله عليه وسلم عاقبهم بأن عزل المجتمع عنهم، فأصبح لا يكلمهم ولا يعاملهم أحد حتى زوجاتهم، فأثمر هذا العقاب الذى امتد بهم طيلة خمسين ليلة في قلوبهم ثمرة التوبة وصدق الإنابة، فبلهم النبى صلى الله عليه وسلم في المجتمع مرة أخرى، بعد ما كان من صدق في توبتهم ورجوعهم إلى الله، لكى لا يأتى العقاب بنتائج عكسية يشقى المجتمع الإسلامى بها بعد ذلك.يقول سبحانه " وَعَلَى الثَّلاَثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّواْ أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُواْ إِنَّ اللّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ " التوبة (١١٨). وبهذا كانت التوبة متمة لمنظومة الجزاء في الإسلام لتكون الفائدة الكبرى منه في إحداث الإصلاح والتهذيب في النفس البشرية، والسلوك الإنسانى.

(١) رواه البخارى أحاديث الأنبياء رقم ٣٢١١ ورواه الإمام مسلم فى باب التوبة ٤٩٦٧.

المبحث الرابع
أخلاقيات الممتهنين في الإسلام

لقد خلق الله تعالى البشر ليعاون بعضهم بعضا، وذلك بمقتضى المدنية التى ركبت في طباعهم، وجبلت عليها فطرهم.وقسم المواهب بينهم كما قسم بينهم أرزاقهم، فاحتاج كل منهم إلى الآخر ليكمل بعضهم بعضا، في الحرف والمهن، وما يحتاجونه من المنافع والصناعات، وفق أخلاقيات وضوابط تؤدى بهم إلى الاستقامة في حياتهم والانضباط في حرفهم، وكان مما ابتلى به الكثير من المجتمعات الآن توسيد الأمر إلى غير أهله في المهن والحرف، والمناصب وغير ذلك، وضياع الأمانة في العمل والصنعة، وغياب الفضل والإحسان في تبادل الحرف والمنافع. وما حدث ذلك إلا لغياب الأخلاق المهنية التى أقرها الإسلام لدى الممتهنين ليكون من خلالها الإتقان في العمل، والجودة في الصنع، هذه الأخلاقيات التى لو روعيت كما وضعها الإسلام لودع الغش دنيا الناس في حرفهم ومهنهم، ولنعم الناس بالأمانة والاتقان التى توشك أن تغيب من دنيا التعامل فيما بينهم، وقد تمثلت هذه الأخلاقيات في:

أولاً: الكفاءة:

لقد جعل الإسلام من جملة مقاصده الأساسية في مجال المهنة "الإتقان للعمل" ويقصد الإسلام بالإتقان هنا " أن يحكم الإنسان أى عمل ويؤديه بجودة، وأن يخرج من بين يديه على أحسن وجه وأتمه "[1]. يقول صلى الله عليه وسلم " إن الله يحب من العامل إذا عمل أن يحسن ".وفى رواية أخرى " إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه"[2]. ولن نصل بالصنعة أو العمل إلى درجة الاتقان إلا إذا قام على أمره المهرة الأكفاء المناسبون له، والمتخصصون فيه.من أجل هذا حرص الإسلام على إيجاد الكفاءات في مختلف المهن واهتم بنوعيتهم وكيفهم، لا كمهم وكثرتهم.وذلك لأنه بالكفاءات تبنى الأمم، وتنهض المجتمعات، لذا مثلاً وجدنا عمر بن الخطاب وقد عول على الكفاءات العسكرية حال الحرب، ورأى أن الواحد من هذه الكفاءات يعدل ألفاً ممن سواه، حيث بعث عمرو بن العاص لفتح مصر، ومعه أربعة آلاف جندى فقط، ثم طلب منه مداداً، فأمده بأربعة آلاف، ومعهم أربعة من أصحاب الكفاءات الحربية، قال في شأنهم الفاروق عمر " كل واحد منهم بألف" واعتبر المجموع اثنا عشر ألفا، ولن يغلب اثنا عشر ألفاً من قلة "لقد آمن عمر في هذه الواقعة أن العبرة بنوع الرجال وكفاءتهم وقدراتهم ومواهبهم المناسبة للعمل، لا بأعدادهم وأحجامهم. وروى عنه أنه جلس يوماً مع بعض أصحابه في دار رحبة فقال لهم تمنوا، فقال أحدهم: أتمنى أن يكون لى ملء هذه

(١) مبادىء الأخلاقيات المهنية ص٢٩.
(٢) أخرجه البيهيقى عن السيدة عائشة يراجع كنز العمال ٩١٢٨.

الدار دراهم من فضة أنفقها في سبيل الله، وتمنى آخر أن يكون له ملؤها ذهباً ينفقه في سبيل الله، أما عمر فقال:لكنى أتمنى ملء هذه رجالاً مثل أبى عبيدة بن الجراح، ومعاذ بن جبل، وسالم مولى أبى حذيفة فأستعملهم في سبيل الله "لقد أيقن عمر بمقولته تلك أن الأمم لا تبنى بالعملات النقدية وإنما تبنى بسواعد الكفاءات الموهوبة والمخلصة من أبناءها.وهو في هذا لم يخرج عما قرره القرآن الكريم مما ينبغى توافره في أصحاب المهن المختلفة. حيث بين أن الكفاءة والخبرة والمقدرة، أول ما ينبغي توافره في الممتهنين " وهذا ما دل عليه قول ابنة شعيب تخاطب أباها " يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ " القصص (٢٦).والقوة هنا تعنى الكفاءة والمقدرة التى بها يتأتى الفعل. فقد بينت في قولها هذا معيار الاختيار للوظيفة والعمل، وبينت أن الكفاءة والمقدرة هى أول ما يبحث عنه في ذلك، وليس حكم ابنة شعيب ومعيارها هنا في تولى الوظيفة والمهنة منبعه الهوى، بل مرده إلى الاختبار واليقين، حيث رأت من كفاءة موسى عليه السلام ما يرشحه للعمل عند شعيب عليه السلام إذ رفع حجراً لا يقوى على حمله إلا العصبة أولى القوة فاستدلت بذلك على قوته وكفاءته وقدرته. كذلك نجد هذا المعيار وقد تعارف الجن عليه أيضاً في عالمهم، فعندما خاطبهم نبى الله سليمان عليه السلام قائلاً لهم في شأن ملك بلقيس " يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ " النمل (٣٨).هب من رأى في نفسه الأهلية والكفاءة من الجن معلناً عن نفسه، كاشفاً عن مواهبه ومؤهلاته، قائلاً: " أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ " النمل (٣٩). وكأنه عرف كذلك أن الكفاءة والقدرة من مبررات الترشيح للوظيفة، ومن السمات التى يجب توافرها في الممتهن. ودلتنا هذه الواقعة مع نبى الله سليمان أنه عند تعدد الكفاءات فإنه يختار لإنجاز المهمة الأكفأ والأقدر، ألم تر إلى قول الله سبحانه وتعالى في سياق القصة ذاتها " قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ " النمل (٤٠). وكأن العلم عند هذا الجنى قد زاد عن سابقه فأهله للعمل وإنجاز المهمة بدلا منه نظرا لزيادة كفاءته عن سابقه. من هذا نأخذ أن مدار الكفاءة في الإسلام إنما يرجع إلى العلم والخبرة، اللذان من خلالهما يكون الإتقان في العمل والتجويد في المهنة والإصلاح فيها، ومن ثم يقول الإمام الغزالى فيما بثه من حكم تلميذه في رسالته له " أيها الولد العلم بلا عمل جنون، والعمل بغير علم لايكون"[1]. من هنا كان العلم الذي يعد أساساً للكفاءة شرط في كل عمل قيادى وغير قيادى سواء كان عملاً سياسياً إدارياً مثل عمل يوسف عليه السلام الذى قال له ملك مصر " إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَآئِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ " يوسف (٥٥، ٥٤).

(١) الإمام الغزالى مجموع القصور العوالى رسالة أيها الولد ص١٦٥ ط تح الشيخ محمد مصطفى أبو العلا –ط- الجندى.

فأشار إلى مؤهلاته الخاصة التى تنبىء عن كفاءته، ومن ثم ترشحه لهذا العمل الكبير والمهنة الخطيرة التي من خلالها يشرف على " المالية، والاقتصاد، والتخطيط والزراعة، والتموين "[1] في ذلك الحين، وقوام هذه المؤهلات أمران:

١- حفظ، يعنى به الأمانة.
٢- علم، يقصد به الخبرة والكفاءة.

وهذا يوافق ما أوردناه سابقاً على لسان ابنة شعيب عليه السلام، وعلى لسان الجنى في حديثه مع نبى الله سليمان عليه السلام.كذلك يشمل العلم الذى هو عنوان للكفاءة والدربة الأعمال العسكرية، كما قال الحق سبحانه في تعليل اختيار طالوت ملكاً على أولئك الملأ من بنى إسرائيل " قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ " البقرة (٢٤٧). كذلك يشمل العلم الذى هو دليل الكفاءة الأعمال القضائية حتى إن الفقهاء اشترطوا في القاضى كما اشترطوا في الخليفة " أن يكون مجتهداً، فلم يكتفوا في مثله أن يكون عالماً مقلداً لغيره، لأن الأصل في العلم هو معرفة الحق بدليله دون التزام بموافقة زيد أو عمرو من الناس، أما من قلد غيره من البشر من غير أن تكون له حجة، أو كانت له حجة واهية غير ناهضة فليس هذا من العلم في شيء، وإنما قبلوا قضاء المقلد، مثلما قبلوا ولاية من لا فقه له، للضرورة غير أن هناك حداً أدنى للعلم لابد أن يكون لديه، وإلا قَضَى عن جهل فكان من أهل النار "[2] وجهله إخلال بكفاءته مما يدخله تحت قول النبى صلى الله عليه وسلم " القضاة ثلاثة: اثنان فى النار وواحد في الجنة، رجل علم الحق فقضى به فهو في الجنة.ورجل قضى للناس على جهل فهو في النار.ورجل عرف الحق فجار في الحكم فهو في النار"[3] فجعل النبى صلى الله عليه وسلم من تولى مهنة القضاء وهو غير كفء لهامن أهل النار، لذلك يحذر الحسن البصرى رضى الله عنه من الكفاءات الزائفة التى تدعى الأهلية للعمل فيقول" العامل على غير علم كالسالك على غير طريق، والعامل على غير علم يفسد أكثر مما يصلح"[4] ويلحق بما سبق من يُنصِب نفسه للفتوى إذا لم يكن أهلاً لها كفأ لمنصبها ومهنتها متمكناً في عمله، فقيهاً في دينه، فإنه والحالة هذه " يحرم الحلال، ويحل الحرام، ويسقط الواجبات، ويلزم الناس بما لم يلزمهم به الله تعالى، ويقر المبتدعات، ويبدع المشروعات، ويكفر أهل الإيمان، ويبرر كفر أهل الكفر، وهكذا"[5] وهذا كله مرجعه إلى غياب الكفاءات المؤهلة لعمل الفتوى بالعلم والفقه وغير ذلك من المؤهلات والشروط.ولقد رأينا تشديد النبى صلى الله عليه وسلم على من ينصب نفسه لهذا العمل وهو غير كفأ له أو غير حائز لمؤهلاته حينما أنكر على من تسرع في الفتوى في عهده فأفتى بها رجلاً به جراحة، أصابته جنابة أن يغتسل، دون

(١) د/يوسف القرضاوى فى فقه الأولويات ص٦٢ ط- مؤسسة الرسالة.
(٢) د/يوسف القرضاوى في فقه الأولويات ص٦٣.
(٣) رواه أصحاب السنن الأربعة، والحاكم عن بريده كما رواه الطبرانى وأبو يعلى والبيهقى عن ابن عمر يراجع صحيح الجامع الصغير ٤٤٤٦، ٤٤٤٧.
(٤) يراجع ابن القيم مفتاح دار السعادة ص٨٢ ط- المكتب الإسلامى.
(٥) فقه الأولويات ص٦٤.

رعاية لما ألم به من جراح، فكان ذلك سبباً في موته.فقال عليه الصلاة والسلام "قتلوه قتلهم الله! ألا سألوا إذ لم يعلموا، فإنما شفاء العىَ السؤال، إنما كان يكفيه أن يتيمم"(١). فانظر كيف اعتبر النبى صلى الله عليه وسلم فتواهم التى غاب عنها الكفاءة والأهلية قتلاً له، ودعا عليهم بقوله " قتلهم الله " ومعنى هذا أن تولى الأدعياء المناصب والوظائف مَفسدة تجلب الدمار على الأفراد والجماعات، ولهذا يقول ابن حزم " لا آفة على العلوم وأهلها أضر من الدخلاء فيها، وهم من غير أهلها، فإنهم يجهلون ويظنون أنهم يعلمون، ويفسدون، ويقدرون أنهم يصلحون "(٢). ويلحق بالفتوى مهنة "الداعية " فالكافأة والأهلية المؤسسة على العلم مطلوبه له وإلا أضر بعمله ومهنته، ومن ثم يقول تعالى " قُلْ هَـذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي " يوسف (١٠٨). فكل ممتهن للدعوة يجب أن يكون عمله ودعوته على بصيرة ودراية، ومعنى هذا أن يكون على بينة من دعوته، ومعرفة مستبصرة بما يدعو إليه فيعلم إلام يدعو ؟ ومن يدعو؟ وكيف يدعو ؟ وإلا لم يكن كفء لعمله الدعوى. هذا ويترجم فلاسفة الأخلاق الإسلاميين "للكفاءة" "بالحكمة" والتى تعنى الإصابة في العلم والعمل(٣) وعلى ذلك يكون الرجل الحكيم هو الرجل البصير بوضع الأمور في نصابها، وهى فضيلة عقلية تمكن صاحبها من حسن القيام بعمله"(٤). ويرى ابن مسكويه، والإمام الغزالى " أنها فضيلة النفس الناطقة المميزة "(٥). ويذهبا كذلك إلى أنه من خلال الحكمة يمكن للإنسان أن يقدر حركاته بالقدر الواجب في كل الأحوال، وأن يلم بصواب الأفعال(٦). ويرى ابن مسكويه أن للحكمة أقسام كثيرة تعد مقومات للكفاءة بمصطلح المهنة هى:

١- الذكاء: ويعنى سرعة انقداح النتائج وسهولتها على النفس.
٢- الذكر: وهو ثبات صورة ما يخلصه العقل، أو الوهم من الأمور.
٣- التعقل: وهو موافقة بحث النفس عن الأشياء الموضوعة بقدر ما هى عليه.
٤- صفاء الذهن: وهو استعداد النفس لاستخراج المطلوب.
٥- جودة الذهن وقوته: وهو تأمل النفس لما قد لزم من المقدم.
٦- سهولة التعلم: وهى قوة للنفس وحدة في الفهم بها تدرك الأمور النظرية(٧).

هذه صفات من خلالها تتكون الحكمة ويحصل العلم لدى الإنسان، وباجتماعها تتم الكفاءة الذاتية لديه.

---

(١) رواه أبو داوود عن جابر ورواه احمد وأبو داوود والحاكم عن ابن عباس يراجع صحيح الجامع الصغير ٤٣٦٢، ٤٣٦٣.
(٢) الأخلاق والسير ص٢٣.
(٣) مقدمة في علم الأخلاق ص١٥٣.
(٤) الأخلاق النظرية ص١٦٢.
(٥) يراجع تهذيب الأخلاق ص٢٦ وكذا إحياء علوم الدين ج١ ص٢٥
(٦) إحياء علوم الدين ١ ص٢٥
(٧) تهذيب الأخلاق ص٢٨.

ثانياً: الأمانة:

إذا كان الإسلام قد عول على الأهلية والكفاءة كأساس في تولى المهن والوظائف والمناصب، فإنه اهتم كذلك بإضفاء بعد أخلاقى عليها من خلال اشتراطه الأمانة فيمن يتولى المهنة والوظيفة. وما شقيت البشرية في قديمها وحديثها إلا بابتلائها بأناس لا أمانة ولا خلاق لهم.فكم من كفاءات عهدت إليهم البشرية بإسعادها، فما كان منهم إلا أن جلبوا الخراب والدمار عليها، وما ذلك إلا لأنهم لم يكونوا أمناء على ما عهدت به إليهم، ألم يأتك نبأ عن قوم اتخذوا من المعامل معبداً لهم ليذهبوا الشقاء عن أجساد قد هدها المرض، فإذا بهم يوغلون في إرضاء غرورهم العلمى، فيخرجون لنا بمسوخ مشوهة تحت مسمى الاستنساخ..... فهؤلاء وأمثالهم كفاءات فاسدة، غابت الأخلاق المهنية عن قلوبهم وعقولهم فلم يبالوا بنتيجة عمل به يشقى غيرهم، المهم أن يذكرهم التاريخ في أولياته دون اكتراث في أى جموع الأوليات يصنفون. من أجل هذا وغيره كان من الصفات التى اشترطها قانون الأخلاق الإسلامى في تولى المهن والوظائف صفة الأمانة، والتى سنعرض لتصوره لها من خلال عدد من الأمور منها:

مفهوم الأمانة:

لقد أكد الإسلام على الأمانة كمبدأ أخلاقى ثابت في كل الأخلاقيات المهنية، ولولاها تحولت الكفاءات البشرية إلى شياطين ماكرة لاحد لشرها ولا منتهى لضررها.وهى ضد الخيانة، وتعرف بأنها "خلق ثابت في النفس يعف به الإنسان عما ليس له به حق، وإن تهيأت له ظروف العدوان عليه دون أن يكون عرضة للإدانة عند الناس، ويؤدى به ما عليه أو لديه من حق لغيره، وإن استطاع أن يهضمه دون أن يكون عرضة للإدانة عند الناس"[1]. وعلى هذا فإن الأمانة من وجهة نظر الإسلام واسعة الدلالة، إذ ترمز إلى معان شتى، مناطها جميعاً شعور الإنسان بتبعته ومسئوليته في كل أمر يوكل إليه، وبذله قصارى الجهد في الإتيان به على نحو به يكون مسئولاً أمام الله وأمام الناس، وهذا بعض مما يفهم من قول النبى صلى الله عليه وسلم في الحديث الذى رواه عبد الله بن عمر "كلكم راع وكلكم وكلكم مسئول عن رعيته، فالإمام راع ومسئول عن رعيته، والرجل راع في اهله ومسئول عن رعيته، والمرأة في بيت زوجها راعية وهى مسئولة عن رعيته، والخادم في مال سيده راع وهو مسئول عن رعيته، وكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته "[2].

منزلة الأمانة في الإسلام:

(١) الأخلاق الإسلامية وأسسها ج١ ص٥٩٠.
(٢) متفق عليه رياض الصالحين ٢٨٣ ويراجع فى هذا الموضوع خلق المسلم ص٤٢ وكذا أخلاقنا ص١٩٥.

إن الأمانة هى الفريضة التي يتواصى المسلمون برعايتها، ويستعينون بالله على حفظها حتى أنه عندما يكون أحد على أهبة السفر يقول له أخوه"استودع الله دينك وأمانتك وخواتيم عملك "[1] وعن أنس قال: "ما خطبنا رسول الله إلا قال: لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له"[2]. وقد أكد الإسلام عليها كخلق يجب توفره في الممتهنين ومعيار يكون اختيارهم على أساسه.يقول سبحانه وتعالى فيما حكى عن ابنة شعيب عليه السلام"إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ " القصص (٢٦). ويقول سبحانه في أساس تولى يوسف عليه السلام المسئولية الإدارية " اجْعَلْنِي عَلَى خَزَآئِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ " يوسف (٥٥). وفي تعارف الجن على هذه الصفة في إسناد المهام إليهم يقول سبحانه" أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ " النمل (٣٩).ولأهمية الأمانة في البنية الصحيحة للمجتمع تكرر ذكرها في القرآن الكريم في معرض مناسبات متعددة، ففي مجال الحقوق المالية وغيرها نجد قول الحق سبحانه " وَإِن كُنتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُواْ كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللّهَ رَبَّهُ " البقرة (٢٨٣). ويأتى الأمر بصورة جازمة بتأدية الأمانات إلى أهلها في كل ما يقع تحت سلطة الإنسان وتصرفه، فيقول المولى عز وجل " إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا " النساء (٥٨).وفي آية شاملة لجميع أنواع الأمانات يقول سبحانه " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَخُونُواْ اللّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُواْ أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ " الأنفال (٢٧). وجعل الله سبحانه الأمانة عنواناً لسفيره إلى أنبيائه ورسله في مهنته، فقال سبحانه" نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ " الشعراء (١٩٣).فلولا هذه الصفة ما كانت الثقة فيما يبلَغ عن الله تعالى من وحى، ولما اصطفاه الله لهذه الوظيفة – وظيفة حمل الرسالة – كذلك جعل الله سبحانه وتعالى من الأمانة سمة لأنبياءه ورسله فيما يبلغون من وحيه، فعندما يقص الله علينا قصص نوح، وهود، وصالح، ولوط و شعيب عليهم السلام في سورة "الشعراء" يخبرنا بأن كل رسول من هؤلاء عليهم السلام قال لقومه:" إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ". ولقب خاتمهم صلى الله عليه وسلم " بالصادق الأمين".وفى شأن المفلحين الصالحين من جماعة المؤمنين، يقول سبحانه " وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ " المؤمنون(٨).وهذا نص عام في كل ما يجب على الإنسان آداؤه من حقوق استأمن عليها أوألزم بآدائها سواء فيما يتعلق بالله تعالى أو بخلقه.أما بالنسبة للسنة النبوية فإننا نجد كثيراً من النصوص المؤكدة عليها والمنفرة من نقيضها"الخيانة"، ومن ذلك قول النبى صلى الله عليه وسلم " اضمنوا لى ستاً من أنفسكم أضمن لكم الجنة:اصدقوا إذا حدثتم، وأوفوا إذا وعدتم، وأدوا إذا ائتمنتم، واحفظوا فروجكم، وغضوا أبصاركم، وكفوا أيديكم"[3]

(١) و ب عن ابن عباس، حب ه ق عن ابن عمر كنز العمال ١٧٤٧٩.
(٢) أبو داوود ك عن ابن مسعود كنز العمال ٣٦٠٩.
(٣) رواه أحمد والحاكم وقال صحيح الإسناد الترغيب والترهيب ٥٨٧١٣.

وقوله صلى الله عليه وسلم " أول ما تفقدون من دينكم الأمانة "[١] واعتبر النبى صلى الله عليه وسلم كل من يخالف الأمانة في عمله أو مهنته ليس من المسلمين فقال " من غشنا فليس منا"[٢].

صور الأمانة:

وتتخذ الأمانة من خلال التصور الإسلامى لها صوراً متعددة منها:

١ـ الودائع:

وهى اسم لكل ما استحفظ الإنسان عليه من أشياء مادية كانت، أو معنوية وتتطرق كلمة الودائع كصورة من صور الودائع إلى العديد والعديد من المهن. فالأمور المالية بشتى صورها ودائع، والأجراء قد أودعوا ما استودع إليهم من خلال أرباب الأموال، والمعلم قد أودعه التلاميذ ومن يلونهم عقولهم فهى ودائع عنده، والخطيب في المسجد قد استودعه جمهور المستمعين إليه عقولهم فهو مسئول عنها، ومسئول أن يبصرهم بواقعهم وما يقيل عثرتهم فيه، والطبيب قد استودعه المرضى أجسادهم وأرواحهم فهو مسئول عنها، والمهندس قد استودعه الناس حياتهم فهو مسئول عما يشيد لهم.وقس على ذلك حتى تصل إلى راس الأمر في الدولة.يقول النبى صلى الله عليه وسلم " أد الأمانة إلى من ائتمنك ولا تخن من خانك"[٣] ويقول صلى الله عليه وسلم " لن تزال أمتى على الفطرة، ما لم يتخذوا الأمانة مغنماً، والزكاة مغرماً "[٤]. ويقول صلى الله عليه وسلم فيما رواه ابن مسعود " القتل في سبيل الله يكفر الذنوب كلها إلا الأمانة.. قال: يؤتى بالعبد يوم القيامة وإن قتل في سبيل الله فيقال أد أمانتك فيقول أى رب كيف وقد ذهبت الدنيا، فيقال انطلقوا به إلى الهاوية.وتمثل له أمانته كهيئتها يوم دفعت إليه فيراها فيعرفها فيهوى في إثرها حتى يدركها، فيحملها على منكبيه، حتى إذا ظن أنه خارج نزلت عن منكبه، فهو يهوى في إثرها أبد الآبدين، ثم قال الصلاة أمانة، والوضوء أمانة، والوزن أمانة، والكيل أمانة، وأشياء عددها وأشد ذلك الودائع"[٥]. قال راوى الحديث فأتيت البراء بن عازب فقلت:ألا ترى إلى ما قال ابن مسعود، قال كذا، قال البراء:صدق أما سمعت الله تعالى يقول" إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ " النساء (٥٨). وخص النبى صلى الله عليه وسلم الودائع المالية بالذكر، كصورة من صور الأمانة نظراً لشدة فتنة المال

(١) رواه أبو داوود عن شداد بن أوس كنز العمال وابن حيان، هب عن عبادة بن الصامت كنز العمال ٤٣٥٣١.
(٢) رواه الترمذى عن أبى هريرة كنز العمال ٩٥٠٥.
(٣) الطبرانى، وابن حبان عن شداد بن اوس فيض القدير ٢٨٢٠ تخ د ت في البيوع عن أبى هريرة والدراقطنى والضياد المقدسى عن أنس، طب عن أبى أمامة، قال ابن حجر رواه د ت ك عن أبى هريرة فيض القدير ٣٠٨.
(٤) كنز العمال ص عن ثوبان ٥٥٠٤.
(٥) جامع العلوم والحكم لابن رجب الخبيلى ص٥١ تح اد/محمد الأحمدى أبو النور –ط- المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ويراجع خلق المسلم ص٤٨.

التى يسيل لها لعاب كثير من الناس، والتى لأجلها يفرطون في أثمن القيم والأخلاقيات.لذلك حرص صلى الله عليه وسلم أن يستخلف عند الهجرة ابن عمه على بن أبى طالب رضى الله عنه ليسلم المشركين ما استحفظوه من ودائع عنده، مع أنهم كانوا بعض الأمة التى استفزته من أحب البلاد إليه، واضطرته إلى ترك وطنه في سبيل عقيدته، بيد أن الشريف لا يتضع مع الصغار.

٢ـ المناصب:

إن مما يؤذن بزوال الأمم وتصدع أركانها توسيد الأمر إلى غير أهله فيها، وتفشى الرشوة والمحسوبية في تعاملاتها، فتغيب على إثر ذلك الكفاءات المتميزة عن ساحتها، ويطفوا الغثاء على سطحها. فمثلاً ما ظنك بقاض جهد أن ينهى تعليمه:إلا بأبخس الدرجات ومع هذا أسند إليه أن يحقق العدالة بين الناس فأنى له ذلك.وما ظنك بطبيب منح لقبه لمصاهرته لفلان من الناس، كيف يعول على كفاءته في تحقيق الشفاء لذوى الأمراض والسقم.فهؤلاء وأمثالهم معاول هدم لمجتمعاتهم، لذا أكد الإسلام على الأمانة في تولى المناصب والوظائف والمهن.فعن أبى ذر قال:قلت يا رسول الله ألا تستعملنى؟ قال:فضرب بيده على منكبى ثم قال:يا أبا ذر إنك ضعيف، وإنها لأمانة. وإنها يوم القيامة خزى وندامة، إلا من أخذها بحقها وأدى الذى عليه فيها "[١]. "إن الكفاية العلمية ليست لازمة لصلاح النفس، فقد يكون الرجل رضى السيرة، حسن الإيمان، ولكنه لا يحمل من المؤهلات المنشودة ما يجعله منتجاً في وظيفة معينة "[٢]. ألم يأتك نبأ عن الصديق يوسف عليه السلام وكيف أنه لم يرشح نفسه لإدارة خزائن الأرض لنبوته وتقواه فحسب، وإنما دل على نفسه من خلال مؤهلات تجعله كفء لحيازة منصبه، وذلك من خلال أمانته وعلمه فقال:" قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَآئِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ " يوسف (٥٥). ومما تقتضيه الأمانة أن نصطفى للأعمال أحسن الناس قياماً بها، فإذا ملنا عنه إلى غيره لهوى أو رشوة أو قرابة فتلك خيانة يجرمها الإسلام ولا يرضى عنها الله ورسوله، يقول النبى صلى الله عليه وسلم " من استعمل رجلاً على عصابة وفيهم من هو أرضى لله منه، فقد خان الله ورسوله والمؤمنين"[٣] وعن يزيد بن أبى سفيان قال: قال لى أبو بكر الصديق حين بعثنى إلى الشام: أبا يزيد إن لك قرابة عسيت أن تؤثرهم بالأمارة وذلك أكثر ما اخاف عليك بعد ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " من ولى أمر المسلمين شيئاً فأمر عليهم أحداً محاباة فعليه لعنة الله لا يقبل منه حرفاً ولا عدلاً حتى يدخله جهنم"[٤] ويبين النبى صلى الله عليه وسلم أن من مظاهر الفساد التى تلحق الأمة في نهاية الزمان الإطاحة بالأكفاء من الرجال من المناصب والوظائف المؤهلين لها. يروى الإمام البخارى عن أبى

(١) رواه مسلم باب كراهية الإمارة بغير ضرورة ١٨٢٥.
(٢) خلق المسلم ص٤٣.
(٣) رواه الحاكم فى المسند ك عن ابن عباس رضى الله عنهما كتاب الأخلاق ٤/٩٢ وقال صحيح الإسناد ويراجع كنز العمال ١٤٦١٧.
(٤) رواه الحاكم عن أبى بكر الصديق كنز العمال ١٤٧٤٩.

هريرة قال: بينما كان النبى صلى الله عليه وسلم يحدث إذ جاء أعرابى فقال متى الساعة قال " إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة " قال كيف إضاعتها ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إذا وسد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة"[١]. ومن الأمانة في المناصب أن لا يطلب الوظيفة من ليس كفء لها، وأولى من ذلك الإمارة فمن سمات المجتمع الإسلامى الصالح أن يبايع الأصلح من أهل الخبرة والدراية والكفاية للحكم، وأن يترك الحرية التامة للحاكم أو من ينوب عنه في اختيار عماله الأكفاء دون مؤثرات أو مطالب ملحة تخل بأمانة الاختيار.فقد روى الإمام مسلم عن عبد الرحمن بن سمرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " لا تسأل الإمارة، فإنك إن أعطيتها عن مسألة وكلت إليها، وإن أعطيتها من غير مسألة أعنت عليها "[٢]. ونلمح في هذا الحديث توجيهان:توجيه للمرشحين للإمارة، وتوجيه لمن بأيديهم سلطة منحها، فالذين بأيديهم سلطة منحها مسئولون عن تولية الأفضل الكفأ، والمرشحون لها ملزمون بأن لا يتناطحوا لها، ولا يسعوا في الحصول عليها من أجل أنفسهم، حتى تأتيهم من غير مسألة، وعندئذ يعينهم الله عليها، هذا ما لم يتنازع عليها الذين يفسدون فيها ولا يخشون الله. وحين تقتضى الأعمال التنظيمية اشتراط الترشيح الذى يعرب فيه الرجال عن استعدادهم القيام بمهام الولاية وتبعاتها فلا مانع من تقدم أهل العلم والكفاية لها، بل من الواجب عليهم الإفصاح عن أنفسهم.وكذا يكون الحال في الأزمنة التى تعم فيها البلوى، وتختل المعايير في الاختيار للمنصب والوظيفة حرصاً على مصلحة الأمة.

٣- آداء الواجبات المهنية:

إذا كان توسيد الأمر إلى أهله أمانة بمقتضاها يعين الرجل المناسب في المكان المناسب، فإن حسن قيام العامل بواجبات عمله واستنفاذ جهده في إتقانه والإتيان به على أتم وجه أمانة يعد التفريط فيها خيانة، ولأجلها يشتد غضب الله تعالى ويعظُم عقابه على من فرط أو تهاون فيما عهد إليه.يقول النبى صلى الله عليه وسلم " إذا جمع الله بين الأولين والآخرين يوم القيامة، يرفع لكل غادر لواء يعرف به !فيقال هذه غدرة فلان..."[٣]. وفى رواية " لكل غادر لواء عند إسته يرفع له بقدر غدرته. ألا ولا غادر أعظم من أمير عامة"[٤]. أى ليس أعظم خيانة ولا أسوأ عاقبة من رجل تولى أمور الناس فنام عنها حتى أضاعها"[٥]. وعد النبى صلى الله عليه وسلم استغلال الإنسان لمنصبه والتربح من ورائه بغير حق مما حرمه الله سبحانه، قال صلى الله عليه وسلم " من استعملناه على عمل ورزقناه رزقاً فما أخذ بعد ذلك فهو غلول"[٦] وعن أبى حميد الساعدى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) رواه البخارى كتاب العلم الفتح ط ١٤٢.
(٢) رواه الإمام مسلم ١٦٥٢.
(٣) متفق عليه رياض الصالحين ١٥٨٥.
(٤) رواه الإمام مسلم باب تحريم الغدر ١٧٣٨.
(٥) خلق المسلم ص٤٥.
(٦) رواه أبو داوود والحاكم عن بريده.

استعمل عاملاً، فجاءه العامل حين فرغ من عمله فقال: يا رسول الله، هذا لكم، وهذا أهدى لى. فقال له: أفلا قعدت في بيت أبيك وأمك فنظرت أيهدى إليك أم لا؟ ثم قام رسول الله صلى الله عليه وسلم عشية بعد الصلاة، فتشهد، وأثنى على الله بما هو أهله، ثم قال أما بعد، فما بال العامل نستعمله، فيأتينا فيقول:هذا من عملكم، وهذا أهدى لى، أفلا قعد في بيت أبيه وأمه، فنظر هل يهدى له أم لا ؟ فوالذى نفس محمد بيده، لا يغل أحدكم منها شيئاً إلا جاء به يوم القيامة، يحمله على عنقه:إن كان بعيراً جاء به له رغاء، وإن كانت بقرة جاء بها لها خوار، وإن كانت شاه جاء بها تبعر- تصيح -، فقد بلغت"[1] هكذا حذر النبى صلى الله عليه وسلم من تربح الممتهن- فضلاً عن أقاربه – بغير حق من جراء مهنته، وتوعده بهذا المصير الذى تقشعر منه أبدان المخبتين ونفوسهم، ونرى النبى صلى الله عليه وسلم في الوقت ذاته يبشر كل من أخلص في مهنته فأداها على أكمل وجه بأنه من المتصدقين عند الله تعالى، يقول النبى صلى الله عليه وسلم " الخازن الأمين الذى يؤدى ما أمر به، طيبة نفسه، أحد المتصدقين "[2].ويقول صلى الله عليه وسلم"العامل إذا استعمل فأخذ الحق وأعطى الحق لم يزل كالمجاهد في سبيل الله حتى يرجع إلى بيته"[3].

٤- الأسرار:

وهى من أجل الأمانات التى أكد الإسلام على حفظها بصفة عامة، وفى مجال العمل والمهنة بصفة خاصة، فالطبيب أيا كان تخصصه مطالب بحفظ سر مريضه إلا في حالات معينة سيأتى ذكرها، وكذلك كل ممتهن مطالب بحفظ أسرار مهنته وكل ما أسند إليه، فكم من مصالح عطلت بسبب استهانة البعض بالسر المهنى الذى يهمس به في المجالس والاجتماعات، يقول النبى صلى الله عليه وسلم " من سمع من رجل حديثاً، لا يشتهى أن يذكر عنه، فهو أمانة وإن لم يستكتمه"[4] ويقول صلى الله عليه وسلم " إذا حدث الرجل بالحديث ثم التفت فهو أمانة"[5]. وحرمات المجالس والاجتماعات تصان ما دام الذى يدور بين أروقتها مضبوطاً بالأدب لا ضرر فيه ولا ضرار. أما إذا شهد الإنسان مجلساً يمكر فيه المجرمون بغيرهم ليوقعوا الأذى بهم، فهذا نوع من الفساد الذى يجب عليهم مقاومته والحيلولة دون وقوعه، يقول النبى صلى الله عليه وسلم " المجلس بالأمانة إلا ثلاثة مجالس:مجلس سفك دم حرام، أو فرج حرام، أو اقتطاع مال بغير حق"[6] ويقاس على هذه المجالس مثلها مما شابه. ومن خلال النصوص السابقة وغيرها

(١) أخرجه البخارى فى الإيمان والنذور ٥٢٤/١١ وكذا أخلاقنا ص٢٠٣.
(٢) رواه الإمام احمد فى مسنده ١٦٣/٢ ويراجع أخلاقنا ص٢٠٣.
(٣) رواه الطبرانى عن عبد الرحمن بن عوف كنز العمال ١٥٩١٥
(٤) رواه الإمام احمد في مسنده ٤٤٥/٦.
(٥) أخرجه أبو داوود كتاب الأدب باب في فضل الحديث ٤٨٤٧، ٤٨٤٨ وإسناده حسن، حم ت والضياء عن جابر عن أنس كنز العمال ٥٢٣٧.
(٦) أبو داوود كتاب الأدب باب قفل الحديث ٤٨٤٧، ٤٨٤٨ ويراجع كنز العمال ٢٥٣٧٩ وإسناده صحيح.

استلهم علماء الأخلاق الإسلاميون آرائهم حول هذا الموضوع فها هو الإمام الماوردى يقول " اعلم أن كتمان الأسرار من أقوى أسباب النجاح، وأدوم لأحوال الصلاح.... وإظهار الرجل سر غيره أقبح من إظهاره سر نفسه، لأنه يبوء بإحدى وصمتين: الخيانة إن كان مؤتمناً، أو النميمة إن كان مستودعاً. فأما الضرر فربما استويا فيه أو تفاضلاً، وكلاهما مذموم، وهو فيها ملوم "[١].

٥- أمانة المشاورة:

لقد اهتم الإسلام بتأكيد الأمانة في التشاور بين الناس، ويزداد هذا التأكيد في المهن ذات الطابع الاستشارى، كمكاتب الاستشارات القانونية، ومكاتب الاستشارات القانونية والمحاسبية، وغير ذلك، وتعميق صفة الأمانة من خلال هذه المهن يكون من جانبين:

١- حفظ سر العمل أو صاحب الاستشارة.
٢- إخلاص النصح له فيما استشار فيه حتى وإن غضب طالب المشورة.

فإن قصر المستشار في أى مما تقدم فهذا نوع من الخيانة المخلة بأخلاق المهنة والتى نهى الإسلام عنها. يقول النبى صلى الله عليه وسلم "المستشار مؤتمن"[٢]. ويقول صلى الله عليه وسلم " إذا استشار أحدكم أخاه فليشر عليه"[٣]. ويقول صلى الله عليه وسلم " من تقول على ما لم أقل، فليتبوء مقعده من النار. ومن استشاره أخوه المسلم، فأشار عليه بغير رشد، فقد خانه، ومن أفتى فتيا بغير ثبت، فإثمه على من أفتاه"[٤]. وفى مجال تخير أهل الثقة والأمانة والأهلية والكفاءة والكفاءة ليكونوا محلاً للمشاورة، يقول الإمام الماوردى "واعلم أن من الأسرار ما لا يستغنى فيه عن مطالعة صديق مساهم، واستشارة ناصح مسالم فليختر العاقل لسره أمينا إن لم يجد إلى كتمه سبيلا"[٥].

وفى حديثه عن تخير من يطلب منه المشورة ومعايير ذلك يقول " وليتحر فيمن يأتمنه عليه – أى السر – ويستودعه إياه، فليس من كان على الأموال أميناً كان على الأسرار مؤتمناً، والعفة عن الأموال أيسر من العفة على إذاعة الأسرار، لأن الإنسان قد يذيع سر نفسه بمبادرة لسانه، وسقط كلامه، ويشح باليسير من ماله، حفظاً له وضنا به، ولا يرى ما أذاع من سره كبيراً في جنب ما حفظه من يسير ماله، مع عظم الضرر الداخل عليه، فمن أجل ذلك كان أمناء الأسرار أشد تعزراً، وأقل وجوداً من أمناء الأموال. وكان حفظ المال أيسر من كتم الأسرار. لأن إحراز الأموال منيعة، وإحراز الأسرار بارزة يذيعها لسان ناطق، ويشيعها كلام سابق. ومن صفات أمين السر أن يكون ذا عقل صاد، ودين حاجز، ونصح مبذول، وود

(١) الماوردى أدب الدنيا والدين ص٣٦٧ تح محمد فتحى أبو بكر ط- الدار المصرية
(٢) رواه البخارى فى الأدب المفرد ١/ ٣٥٥.
(٣) رواه ابن ماجة فى الأدب ٢/ ١٢٣٣.
(٤) رواه البخارى فى الأدب المفرد ١/ ٣٥٨ ويراجع فى هذا الموضوع أخلاقنا ص٢٠٥.
(٥) أدب الدنيا والدين ص٣٦٨.

موفور، وكتوماً بالطبع، فإن هذه الأمور تمنع من الإذاعة وتوجب حفظ الأمانة. وقيل في منثور الحكم: قلوب العقلاء حصون الأسرار وليحذر صاحب السر أن يودع سره من يتطلع إليه... وليحذر كثرة المستودعين لسره، فإن كثرتهم سبب الإذاعة، وطريق إلى الإشاعة لأمرين أحدهما:أن اجتماع هذه الشروط في العدد الكثير معوذ والثانى أن كل واحد منهم يجد سبيلاً إلى نفى الإذاعة عن نفسه، وإحالة ذلك على غيره فلا يضاف إليه ذنب ولا يتوجه عليه عتب، وقد قال بعض الحكماء:كلما كثرت خزان الأسرار ازدادت ضياعاً.... فإذا اختار- وأرجو أن يوفق للاختيار-، واضطر إلى استيداع سره، وجب على المستودع له آداء الأمانة فيه، بالتحفظ والتناسى له، حتى لا يخطر له ببال، ولا يدور له في خلد.ثم يرى ذلك حرمة يرعاها.وحكى أن رجلاً أسر إلى صديق له حديثاً ثم قال:أفهمت؟قال:بل جهلت.قال:أحفظت؟قال:بل نسيت "[1].

وهكذا نلمح في النص السابق وصايا وآداب وشروط نثرها علماء الإسلام ليعتبرها كل من المستشير والمستشار، إذمن شأنها أن تحقق أخلاقاً فاضلة للمهن الاستشارية خاصة وللناس في تعاملهم عامة، وبمراعاتها لا يخشى أحد على مهنته أو عمله أو تحقق مصلحته.

٦- المواهب والملكات:

إن المواهب والملكات طاقات إذا ما فعلت في إطارها الصحيح من شأنها أن ترتقى بالمجتمعات وتنهض بالأمم.من أجل هذا اهتم الإسلام بها وعدها أمانات يجب الحفاظ عليها وتنميتها وتفعيلها. ومن ثم كثيرا ما نسمع في مجال المهن عن الكوادر المدربة، ونسمع فيما اصطلح عليه حديثاً عن إدارة العقل. وإدارة الذات.من هذا المنطلق اهتم الإسلام بالمواهب والملكات لما لها من دور في الحياة عامة، وفى مجال المهنة خاصة، فكان من الضرورات التى أمر بحفظها"النفس" احتراماً وتقديراً لها، وحرصاً على المواهب والكفاءات في الأمة، وكان من الضرورات التى أمر بحفظها كذلك "العقل" الذى هو آداة الإدراك والتميز والتفاضل في الإنسان، وحفظه من خلال وجهة النظر الإسلامية يكون من جهتين:

١- حرمة الاعتداء عليه، إذ جعل الاعتداء عليه وإذ هابه وكأنه قتل لصاحبه لذا أوجب فيه دية كاملة، وحرم تغييبه بسكر أو ما شابه.

٢- كذلك أمر الإسلام بتنميته كموهبه أمد الله بها الإنسان، وإعمالها فيما تستطيع من مجالات. ومن ثم عد من عطلها ولم ينميها في مرتبة أدنى من مرتبة الحيوان بل هو أضل سبيلا.. يقول تعالى:" وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَـئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ " الأعراف (١٧٩). وفى آية شاملة تفيد مسئولية الإنسان عما أمده الله تعالى به من

(١) المرجع السابق ص٣٦٩.

مواهب وملكات، يقول سبحانه " إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولـئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً " الإسراء(٣٦)

٧- الوفاء بالعقود:

ومن الأمانات التى أمر الإسلام بآدائها والوفاء بها، الالتزام بالعقود والوفاء بها. سواء في مجال الشركات والمعاملات المالية، أو المادية أو المعنوية في مجال المهنة خاصة وفى كافة أمور الحياة عامة.كل ذلك مأمور الإنسان فيه بالوفاء بما أبرم من عقد أو أخذ على عاتقه من عهد. فالإلتزام بالعقد وما تضمنه من شروط يعد من الواجبات المؤكدة سواء بين المهنى وعميله، أو بين العامل ورب العمل، أو بين الموظف والمؤسسة التى يعمل بها، أو بين البائع والمشترى.يقول تعالى " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَوْفُواْ بِالْعُقُودِ" المائدة (١). وإذا كان الأمر كذلك فإنه يجرى على ألسنة بعض الممتهنين عبارة "نحن نعمل على قدر ما يدفع من مال إلينا" وهذه مقولة خاطئة، والعمل بمقتضاها نوع من الخيانة وعدم الوفاء بالعهد، وذلك لأن الممتهن أو العامل قد التزم مع من يدفع إليه أجره أو راتبه سواء كان جهة عامة، أو مؤسسة خاصة بعقد مقتضاه أن يلتزم بعمل معين نظير راتب معين، فيجب أن يبذل جهده ويخلص في عمله ويأتى به على أكمل وجه، ولا يقول إن الجهد المبذول أكثر من المال المدفوع. فهذا لايجوز لأنه رضى ببذل هذا الجهد وآداء هذا العمل نظير هذا المال، فيجب الوفاء بما ارتضى به. والإخلال بذلك نوع من الخيانة التى يربأ الإسلام بأتباعه الوقوع فيها.من هذا وغيره يتضح أن الأمانة في مجال المهنة بعد أخلاقى ألزم الإسلام به جمهور الممتهنين على مختلف تخصصاتهم، ولولاه لتحولت الكفاءات إلى مردة وشياطين يستطير شرها دون حد أو منتهى لذا أكد الإسلام عليها في شتى صورها ومختلف مجالاتها.

ثالثاً: الإحسان:

إذا كان الإسلام قد أضفى على المهنة بعداً أخلاقياً بإيجابه الأمانة بشتى صورها على جموع الممتهنين.فإنه أضفى عليها كذلك بعداً إنسانياً، واجتماعياً بإيجابه مبدأ الإحسان فيها، ألا ترى إنساناً وقد اتخذ من التعليم مهنة له فحددت له ساعة مكتبية من العاشرة إلى الحادية عشرة يلتقى فيها تلاميذه بعد درسه، فجاءه التلاميذ بعد انتهائها فآثر القعود معهم بعدها ساعات وساعات! ما الذى يحمله على ذلك؟ أهى المعاملة المادية ؟ كلا لأنه بمقتضاها لن يلقى أجراً من ثواب على قعوده وانتظاره ولن يناله عقاب إذا ما انصرف، لكنه خلق الإحسان الذى جعله يرى ربه فوق عالم المادة وتعاملاتها، فأدرك أنه وإن لم ينل ثواباً مادياً في دنياه، إلا أن ربه لن يضيع أجر من أحسن في عمله وفى مهنته. لذا تراه يجلس لقاء وجه ربه ورغبة فيما عنده وفيما أعده للمخلصين من عباده.وكذا الحال مع طبيب قصرت يد مريضه عن أن يدفع له أجراً أو عوضاً عن مجهود قام به لعلاجه، ومع هذا بذل الجهد ليبرأ من سقمه، وكان سبباً في ذهاب علته. لقد انعدم الجزاء المادى هنا

ولكنه الإحسان الذى أعطى للمهنة بعداً إنسانياً يجعل كل ممتهن يقبل عليه ليقين رسخ في عقله أنه وإن عدم الجزاء في دنيا الناس، فإنه لن يعدمه عند رب الناس.و بالنظر إلى ما تقدم يمكن أن ندرك:

١- أن الإحسان يعنى " سعى الإنسان للخير بكل ما في طاقته دون أن يتوقع جزاء ولا شكورا"[١]. أو هو بسط اليد بالبر والمعروف جزاء ما عند الله تعالى.

٢- أن خُلق الإحسان في مجال المهنة وغيرها مرتبط بالإيمان بالله تعالى، ومرتبط كذلك بعقيدة الإيمان بالآخرة.فبذل الإنسان فوق ما كلف به مرده هنا إلى إيمانه برب يرى فعله وصنيعه، وبذله مع عدم الجزاء مرده إلى أن ربه الذى أمن به ورأى فعله وصنيعه، لا يضيع عمل عامل أحسن وأجاد في مهنته حتى تكلف البذل والعطاء فوق ما كلف به. لذا أعد سبحانه داراً أخرى يكون فيها الثواب والعقاب لمن فاته الجزاء في الدنيا.ولعل هذا ما يشير إليه النبى صلى الله عليه وسلم بقوله " الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك"[٢].

٣- أن الإحسان بهذا المعنى في مجال المهنة وغيرها يعطى بعداً إنسانياً واجتماعياً في التعامل بين الناس. إذ إنه يعكس مدى عمق الإيمان والصلة بالله تعالى في نفس المسلم حيث يجعل المجتمع والتفاعل معه هو المحك لإظهار ذلك، لذلك فإن هذا الخلق يظهر مدى رفض الإسلام للتقوقع للانعزالية، ورفضه خلق مجتمعات دينية منعزلة يسودها الرهبنة، ونظم الزهد والتقشف المنحرفة التى سادت بعض الديانات الوضعية. فالإحسان من وجهة النظر الإسلامية يعنى العمل والحياة وهو المحك التطبيقى الذى من خلاله يظهر أثره على المسلم ليحتوى العالم كله فى مجال المهنة وغيرها، ويحتوى كذلك البشرية بأسرها بدون تمييز مبنى على عرق أو لون أو اختيار نخبة متميزة أو طبقية متعالية، أو مادة تغيب عنها الإنسانية.وإذا أتينا إلى النصوص التى تؤكد على الإحسان ومراعاته في النشاطات الإنسانية فإننا سنجد قول الحق سبحانه وتعالى " وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَ مُحْسِنٌ " النساء (١٢٥). وكذلك قول الحق سبحانه وتعالى " بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ " البقرة (١١٢).ويقول سبحانه " وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى وَإِلَى اللّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ " لقمان (٢٢). وكذا قول الحق " إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا " الكهف (٣٠).وقد مارسه أنبياء الله ورسله في حياتهم سلوكاً فعلياً وواقعاً عملياً، فيوسف عليه السلام بعد أن وصف به في غير موضع، قد عامل به

(١) الأخلاق النظرية ص٢٠١ ويراجع فى الأخلاق الإسلامية والإنسانية ص١٢٠.
(٢) رواه الإمام مسلم فى كتاب الإيمان ٨.

إخوته بعد أن ألقوه في غيابات الجب، ولما دارت الأيام بهم ورأوا قدرته وسطوته عليهم وضعفهم أمامه خاطبوه بقولهم:" ۞ أَإِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَاْ يُوسُفُ وَهَـذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيِصْبِرْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ قَالُواْ تَاللّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ " يوسف (٩١، ٩٠).فقال لهم بلسان المحسن وسلوك المتفضل " قَالَ لاَ تَثْرَيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ " يوسف (٩٢). ونجد موسى عليه السلام مع نبي الله شعيب في مجال المهنة، عندما قال له شعيب عليه السلام " إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاء اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ " القصص (٢٨، ٢٧).وقد قال له ذلك بعد أن أهله للعمل عنده كفاءته وأمانته، ليظهر البعد الإنسانى المتمثل في الإحسان فيما جمع بينهما من علاقة وعمل.يقول الإمام ابن كثير في تعليقه على هذه الآيات " إن موسى قال لصهره الأمر على ما قلت من أنك استأجرتنى على ثمان سنين فإن أتممت عشراً فمن عندى فأنا متى فعلت أقلهما فقد برئت من العهد وخرجت من الشرط ولهذا قال " أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ" أى فلا حرج على، وقد دل الدليل على أن موسى عليه السلام إنما فعل أكمل الأجلين وأتمهما، روى البخارى عن سعد بن جبير قال:"سألنى يهودى من أهل الحيرة أى الأجلين قضى موسى؟ فقلت لا أدرى حتى أقدم على حبر العرب، فأسأله، فقدمت على ابن عباس فسألته، فقال:قضى أكثرهما وأطيبهما، إن رسول الله إذا قال فَعَل.وعن أبى ذر رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم سئل: أى الأجلين قضى موسى؟ قال: أوفاهما وأبرهما، قال وإن سئلت أى المرأتين تزوج فعل الصغرى منهما " أخرجه البزار عن أبى ذر رضى الله عنه[1].

ونجد الإحسان وقد اتخذه النبى صلى الله عليه وسلم سلوكا عمليا في دعوته وهديه، فمن أظهر المواطن الدالة على ذلك أنه صلى الله عليه وسلم حينما غلب قريشاً على "مكة" وأصبح أشدهم له عداوة تحت يده قال لهم:"ما تظنون أنى فاعل بكم، فقالوا خيراً أخ كريم وابن أخ كريم فقال:اذهبوا فأنتم الطلقاء "، بل لقد أعطى أبا سفيان رأس أعدائه مفخرة لم ينالها يومها سواه حيث ساوى بين داره والكعبة، إذ جعلها حرماً يأمن داخله كل من لاذ بها "[2]. فكان هذا الإحسان داعية لدخول أولئك الأعداء في دين الله أفواجاً.وأمر النبى صلى الله عليه وسلم بالإحسان في كل شيء يتناوله الإنسان بناءاً على أمر الله تعالى له به، حتى في المهن التى يغلب عليها طابع القسوة كالجزارة وما فيها من ذبح، وقد فصل الفقهاء في الإحسان فيها، فكان مما نصوا عليه أن لا يذبح حيوان

(١) الإمام ابن كثير مختصر تفسير ابن كثير تح ا/محمد على الصابونى ج٣ ص١٢٠ ط بيروت دار الصابونى تفسير الآيات ٢٥-٢٨.
(٢) الإمام ابن كثير البداية والنهاية ص٢٢٠ ط دار الغد وكذا في الأخلاق الإسلامية والإنسانية ص١٢٢

أمام حيوان لئلا يعرضه لأذى نفسى، وأن يشخذ مشفرة لئلا يتعذب الحيوان به إن لم يكن كذلك، وأن لا يريه إياه لكى لا يحزن أو لا يضطرب... الخ ما نصوا عليه مما يعد من قبيل الإحسان في هذه المهنة، و ويعد كذلك من قبيل الإحسان في التعامل مع الحيوان وذلك نزولاً على نص النبى صلى الله عليه وسلم الذى يقول فيه " إن الله كتب الإحسان في كل شيء فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبح "[1]. وحتى مع الهوام والزواحف الضارة أمر الإنسان بالإحسان في قتلها، يقول النبى صلى الله عليه وسلم " من قتل وزغة –برصا – في أول ضربة فله كذا وكذا حسنة، ومن قتلها في الضربة الثانية فله كذا وكذا حسنة لدون الأولى، وإن قتلها في الضربة الثالثة فله كذا وكذا حسنة لدون الثانية"[2] فأكبر الحسنات على قتلها من الضربة الأولى، لأن فى قتلها من الضربة الأولى إحسان إليها وإراحة لها من تكرار الألم. ويقول الله تعالى " وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُواْ هَـذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَداً وَادْخُلُواْ الْبَابَ سُجَّداً وَقُولُواْ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ" البقرة (٥٨). ويقول تعالى " وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوَاْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ " البقرة (١٩٥). ويقول تعالى " الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاء وَالضَّرَّاء وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ " آل عمران (١٣٤). ويقول تعالى " فَأَثَابَهُمُ اللّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاء الْمُحْسِنِينَ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا أُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ " المائدة (٨٥).ويقول تعالى " لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُواْ إِذَا مَا اتَّقَواْ وَّآمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَواْ وَّآمَنُواْ ثُمَّ اتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ " المائدة (٩٣). ويقول تعالى " وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ " هود (١١٥). ويقول تعالى " نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ " يوسف (٣٦). ويقول تعالى " وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاء نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاء وَلاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ" يوسف (٥٦). ويقول تعالى " إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيِصْبِرْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ " يوسف (٩٠). ويقول تعالى " وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ " القصص (١٤). ويقول تعالى " إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ " الصافات (٨٠). ويقول تعالى " قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ " الصافات (١٠٥). ويقول تعالى " لَهُم مَّا يَشَاءونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاء الْمُحْسِنِينَ " الزمر (٣٤).فهذه الآيات وغيرها دلت على أفعال زادها أصحابها فوق ما كلفوا به فكان الجزاء من جنس العمل زيادة من الله سبحانه وتعالى في الثواب والرضوان، وفى الحديث عن مكارم الأخلاق نجد الحق سبحانه وتعالى قد ضمنها الأمر بالإحسان حيث قال " إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ " النحل (٩٠). فالعدل وضع الشيء في نصابه على

(١) رواه الإمام مسلم ١٩٥٥ كتاب الصيد والذبائح.
(٢) رواه الإمام مسلم ٢٢٤٠.

نحو ما كلف به الإنسان، والإحسان مرتبة أسمى وأعلى يأتى فيها الإنسان بما هو فوق ما كلف به من خير، يقول الإمام القرطبى في تفسيره لهذه الآية " حكى عن النقاش قال يقال زكاة العدل الإحسان، وزكاة القدرة العفو، وزكاة الغنى المعروف، وزكاة الجاه كتب الرجل إلى اخوانه..... وقال على بن أبى طالب " العدل الإنصاف، والإحسان التفضل " وقال ابن عطيه " العدل هو كل مفروض من عقائد وشرائع في آداء الأمانات وترك الظلم، والإنصاف واعطاء الحق، والإحسان هو فعل كل مندوب إليه فمن الأشياء ما هو كله مندوب اليه، ومنها ما هو فرض إلا أن حد الاجزاء منه داخل في العدل، والتكميل الزائد على الإجزاء داخل في الإحسان"(١). وإذا كان الإحسان قد أمر به من الله سبحانه وتعالى فإنه سبحانه لا يضيع أجره على فاعله، يقول سبحانه " هَلْ جَزَاء الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ" الرحمن (٦٠).وذلك لأن المحسن قد أتى بما لم يكلف به ولا ثواب عليه في دنيا الناس في مجال المهنة وغيره، فناسب أن يكون الجزاء من جنس العمل وهو الإحسان من الله في الآخره. يقول الإمام ابن كثير " أى ليس لمن أحسن العمل في الدنيا إلا الإحسان إليه في الآخرة"[٢] في هذا بيان إلى أن الإحسان الذى يعنى الفضل والزيادة في مجال المهنة وغيرها وإن عدم المقابل المادى له في الدنيا إلا أن المطلع على حالة المتفضل والمحسن هو الله تعالى ولذا لم يحرمه الجزاء في الآخرة، وهذا دليل على أهمية قانون الأخلاق الإسلامى وما يرتبط به من معصومية المرجعية، وإحاطتها بما يكون من الإنسان في أدق أعماله. حيث أن الإنسان لا يعدم الأجر والثواب في أى عمل يأتيه وإن غاب هذا العمل عن الناس، ولم يأخذ ثوابه منهم فإن من يتولى الجزاء هو الله العالم بخفايا الأمور ومكنونات الصدور.

وفى إطلاق البعد الإنسانى على الإحسان، يقول محمد بن الحنيفية والحسن في تفسيرهما لقول الله تعالى " " هَلْ جَزَاء الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ" " هى مسجلة للبر والفاجر"[٣] أى " مرسلة مطلقة في الإحسان إلى كل أحد لم يشترط فيها بر دون فاجر"[٤] ويقول الإمام الزمخشرى في تعليقه على الآية السابقة" هَلْ جَزَاء الْإِحْسَانِ" في العمل " إِلَّا الْإِحْسَانُ" في الثواب"[٥]. وإذا كان هذا هو موقع الإحسان من الإسلام، فينبغى أن نعلم أن للإحسان كخلق إنسانى مجالات متعددة من المنظور الإسلامى منها:

١- الإحسان في الجانب المالى: ويكون في كل ما يمتلكه الإنسان من أشياء ينتفع بها كالأموال وما يلحق بها، أو الآلات أو كل ما ينتفع به أو يقى ضرراً أو يدفع بأساً.

(١) الإمام القرطبى الجامع لأحكام القرآن ص٢٠٠ ج٩٠ ط دار الغد.
(٢) مختصر تفسير ابن كثير ج٣ ص١٣٥ تفسير الآية (٦٠) من سورة الرحمن.
(٣) الجامع لأحكام القرآن ج٨ ص٢٠٠.
(٤) الزبيدى تاج العروس ج١٣ ص٧١٦٢ ط الكويت تح عبد الستار فراج وآخرون.
(٥) الإمام الزمخشرى الكشاف ج٤ ص١٢١٦ ط بيروت دار الفكر.

٢- الإحسان في الجانب المهنى: ويكون في كافة ما يمتهنه الإنسان من أعمال كالتعليم، الطب، والهندسة، والتجارة، والزراعة... الخ. ويكون بزيادة الممتهن فوق ما يكلف به أو تعاقد عليه.

٣- الإحسان في الجانب العلمى والمعرفى: ويكون بالتيسيراً على الناس ورجاء لوجه الله تعالى وذلك من خلال زيادة البذل فيه عسى أن ينتفع به أقوام فيغير من مسار حياتهم.

٤- الإحسان في جانب النصح والإرشاد: فلا يبخل الإنسان بنصيحة على أخيه قد تصلح من شأنه، وتعدل من حاله. سواء في أمور الدين أو الدنيا مبتغياً بذلك وجه الله تعالى.وقد ارتقى مفهوم النصيحة عند الرسول صلى الله عليه وسلم حتى كان مساوياً للدين كله ولذلك عرف الرسول صلى الله عليه وسلم الدين بأنه النصيحة فقال " الدين النصيحة "[١].
فينبغى بذل النصح لجماعة المؤمنين المسلمين وأفرادهم، وإن لم يأخذوا بها رغبة فيما عند الله سبحانه وتعالى.

٥- الإحسان من النفس: فالمحسن الذى يبتغى بعمله وجه ربه تعالى، يبذل للمسلمين من جاهه ويعطى من عطفه ووقته وراحته، ومعسول كلامه وطلاقة وجهه، ويبذل من دعائه وشفاعته فيما أحل الله تعالى... وهكذا إلى سائر صور العطاء من النفس.

٦- الإحسان ببذل الطاقة الجسدية: فالمحسن يعطى من معونته ويعطى من خدماته ويعطى من جهده في مجال حياته العامة والمهنية خاصة. فيكافح المفاسد مثلاً، وإن كلفه ذلك التعب والمشقة، ويبذل من أجل خدمة مجتمعه وأفراده مما يحتاجون إليه في جانب مهنته وغيره من الجوانب.

٧- الإحسان بالتضحية بالروح: قد يسمو الإحسان بالإنسان حتى يصل إلى مستوى تضحية الإنسان بذاته:فالمجاهد المقاتل في سبيل الله يجود بحياته لإعلاء كلمة الله وابتغاء مرضاته. والذى يؤثر أخاه بشربة ماء وهو على وشك الهلاك لينقذ أخاه من الموت هو من المحسنين. إذ إنه جاد بحياته لأجل غيره، وفى حكم هؤلاء كل من جاد بحياته في مجال مهنته آداءاً لواجبه وإخلاصاً لما كلف به في مجال عمله.

وهكذا تتنوع مجالات الإحسان لتشمل الحياة كلها في مجال المال، والمهنة، والعلم والنصيحة والنفس، وطاقات الجسد وقواه، حتى تبلغ الروح والحياه. يقول أ- د/ عبد الرحمن بدوى " والإحسان يمتد إلى كل الميادين: المادى، والعقلى، والمعنوى، والأخلاقى: فالمادى بقضاء الحاجات المادية للآخرين ومساعدتهم في محنتهم وشدائدهم وتوفير أسباب العيش الكريم لهم بقدر ما في طاقته:ويشمل ذلك المعونات المالية والصدقات بمختلف أنواعها المادية وإغاثة المرضى والملهوفين

(١) رواه الإمام مسلم كتاب الإيمان رقم ٩٥.

والواقعين في شدائد..... والبذل العقلى يقصد به الإفادة العلمية والفنية وتنوير أذهان الناس وتبصيرهم بأمورهم وحقوقهم وواجباتهم..... والبذل المعنوى يقصد به المواساة في الشدائد مثل الوفاه والمرض و.... المحن المعنويةمثل الاخفاق في النجاح.... والبذل الأخلاقى يكون بإسداء النصائح المخلصة والإرشاد التقويمى للطباع والتوجيه إلى سبيل الخير والفضيلة وقصد السبيل، ومن ذلك أيضاً الأدب في الحديث وفى المعاملة والصبر على هفوات الناس والغض عما يرتكبونه في حق النفس من إهانات أو مضايقات "[1] وإذا كانت مجالات الإحسان من وجهة النظر الإسلامية تتسع دائرتها لتشمل كل نشاط إنسانى، فإننا نلمح لهذا الخلق الفاضل فوائد وثمرات فردية وجماعية في مجال المهنة وغيرها من هذه الثمرات:

١- أن خلق الإحسان يولد في الفرد شعوراً بأنه جزء من الجماعة وليس فرداً منعزلاً عنهم، فنراه معهم يعين منهم ذا الحاجة بجسمه أو جاهه أو ماله أو شفاعته في الحق أو عواطفه ومشاعره وتعبيراتها، ومتى ساد هذا الخلق بصورته تلك فإنه يمثل في واقعه الجسدية الواحدة للأمة المسلمة.

٢- أن خلق الإنسان يزكى الأنفس ويطهرها من رزائل الأنانية المقيته، والأثرة القبيحة، والشح الذميم، فالممتهن أيا كان موقعه إذا ما بذل من جهده وماله ووقته فوق ما كُلف لقاء وجه ربه، هو إنسان ربى نفسه على التزكية والطهارة وصهرها في نار الفضيلة حتى خلعها من شوائب الأثرة والأنانية، يقول الله تعالى " فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَى إِلَّا ابْتِغَاء وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى وَلَسَوْفَ يَرْضَى " الليل (١٤: ٢١). وهذه التزكية لا تكون إلا بمخالفة أهواء النفس وشهواتها، وقضية مخالفة أهواء النفوس يمكن أن تكون بتحويل ذكى فيه ارتقاء وشىء من المشقة عند الصعود، بيد أن في هذا الارتقاء الشاق لذات لا يظفر بها متبعوا أهواء نفوسهم، المنحدرون إلى أدناس الأخلاق وقبائح السلوك، مما يجدون فيه بعض متع زائلة منغصة بالأكدار والآلام.

٣- ومن ثمرات خلق الإحسان في مجال المهنة وغيرها، حل لمشكلة حاجات الملهوفين من أفراد المجتمع، فالمريض الذى لا يملك أجر الطبيب إذا ما عامله الطبيب بالفضل والإحسان، فلم ينتظر منه الأجر المادى ورضى جزاء ربه له في الدنيا والآخرة، قد فرج عن هذا المريض كربته وأغاث لهفته، وقس على ذلك سائر المهن في شتى التخصصات. فقضاء الحاجات فيها، وإغاثة لهفة أصحابها، له أثره في تجسيد وحدة الجماعة المسلمة. أضف إلى ذلك أن غياب الإحسان عن جمهرة من الناس، احتاجت إلى التعامل به في شتى المهن والتخصصات، من شأنه أن يعرض المجتمع إلى عواقب وخيمة

(١) د/ عبد الرحمن بدوى الأخلاق النظرية ص٢٠٠، ٢٠١ ويراجع الأخلاق الإسلامية وأسسها ج٢ ص٣٦٠.

وويلات جسيمة منها: أن يتولد بين أفراد المجتمع الحقد والحسد والشحناء والميل إلى العدوان والجريمة.....، لذا كان خلق الإحسان في المهنة، و في كل معاملة -على النحو الذى قرره الإسلام- يعد عاملاً حاسماً في القضاء على تلك الرزائل والشرور.

٤- أن في تربية النفوس على خلق الإحسان إقامة سد واق يمنع النفس من الركون إلى المادة وحبها، وجعلها عنواناً للحياة لا تسير إلا ب.ه لأنه والحالة تلك لن تصبح المادة وسيلة يتحقق من خلالها منافع الحياة ومصالحها فحسب، بل في هذه الحالة سيعيش الإنسان أسيراً لداء الجمع والمنع حتى تكون بئس الخاتمة وسوء المصير.

ولتربية الإنسان على خلق الإحسان انطلاقاً من الفوائد العظيمة لهذا الخلق في حياة الفرد والمجتمع، وعلى الصعيدين العام والمهنى، نجد الإسلام قد وضع خططاً وترتيبات من خلالها يمكن غرس هذا الخلق في النفوس ليثمر بكل صنوف الفضيلة التى تلقى ظلالها على شتى المستويات، ومختلف المجالات.ويمكن أن نجمل ملامح التربية على هذا الخلق في النفس الإنسانية في في التصور الإسلامى من خلال عدة خطوات:

١- التعويل على عنصر حب الإنسان لذاته، وهو عنصر متمكن في النفس الإنسانية بحسب تكوينه الفطرى.
٢- تعهد هذا العنصر حتى يتولد عنه حب الإنسان لكل ما يفيده وينفعه.
٣- إضافة عنصر العقل الواعى، ذى البصيرة النافذة والنظر البعيد، ليقارن مقارنه صحيحة بين العاجل والآجل، وبين الدنيا والآخره.
٤- ستطفو على السطح شوائب الأهواء، ومجموعات من زبد النزوات النفسيه، التى تؤثر العاجلة على الآجله.
٥- العمل على طرح شوائب الأهواء، ومجموعات زبد النزوات النفسية، بوسائل تحفها الحكمه وتحكمها البراعة، حتى يتم نقاء المَرَكب النفسى مما لا نفع فيه، ومما يجب أن يذهب جفاء.
٦- إضافة عنصر الطمع فيما أعد الله تعالى يقيناً للمحسنين في سبيله وابتغاء مرضاته، من نعيم مقيم وجزاء عظيم، في جنة الخلد، ومن إخلاف وبركه للمحسنين في سبيله في الدنيا
٧- الترهيب من غياب هذا الخلق من النفس البشرية وما يجره ذلك من آثار سلبية على الفرد والمجتمع، وما يتبعه من عقاب أعده الله تعالى لكل من بخل بالبذل من وقته وجهده وماله لينفع مجتمعه، ويقيل عثرة مكروب فيه ويذهب لهفة ملهوف من أبنائه.

٨- مزج العناصر السابقة مزجاً جيداً، مع رفع درجة حرارتها بوقود الإيمان بالله واليوم الآخر ثم نعدل هذه الحرارة ببرد اليقين الذى لا يمازجه شك أو اضطراب"[١].

بعد هذه العملية التربوية الإسلامية الذكيه، لابد أن تندفع نفس المؤمن بالجود والإحسان ابتغاء لمرضاة الله، وطمعاً فيما أعده سبحانه للمحسنين من ثواب في الدنيا والآخره. وحين يتكرر في نفس المؤمن هذا الانفعال الخلقى نحو الإحسان والعطاء ابتغاء لما عند الله، يصبح هذا الخلق هيئة راسخة في النفس الإنسانية يصدر عنها فعل الإحسان بلا تدبر أو روية.

الوسائل التربوية الإسلامية لغرس خلق الإحسان:

لقد اتخذت التربية الإسلامية عدة وسائل من خلالها نضبط الغلبه المادية على النفس الإنسانية، وحصرها ضمن إطارها النافع والمفيد، ومنعها من التحول في نفس صاحبها إلىَ مرض خبيث يفتك بصاحبه وبالمجتمع من حوله. و لقد اتخذت التربية الإسلامية لتحقيق ذلك عدة وسائل منها:

الوسيلة الأولى:

تغذية الدوافع الفطرية المعدله للدوافع الماديه في النفس الإنسانية.كالدافع الجماعى الذى يتولد عنه مقدار من الغيره، ويتولد عنه حب الإحسان والعطاء. إذ إن بروز الدوافع الفطريه المختلفه إذ نُميت وفق مقاديرها النافعه، أحدثت حالة من التوازن فيما بينها، وكان كل منها معدلاً للآخر، وحاصراً له عن أن ينموا نمواً ضاراً على حساب مواقع غيره في خريطة النفس الإنسانية.

الوسيلة الثانية:

تقييد دافع حب المادة والمعاملة المادية عن الإنطلاق الحر في كل ميادين المهن والكسب، ومنعه من أن ينطلق إلا في حدود ما أذن الله به، من وجوه كسب لا ظلم فيها ولا عدوان ولا ضرر ولا إثم.

الوسيلة الثالثة:

تكليف المسلم بجملة من الحقوق المتعلقة بما يكسب من مهنته أو مما يمكن أن ينفع به الآخرين على سبيل التطوع والنافلة، وتذكيره بحق مصلحة المسلمين العامة وإلزامه بالإتيان بذلك طائعاً راضياً، ففى هذا محاصرة لغلبة الدوافع المادية داخل النفس الإنسانية.

الوسيلة الرابعة:

(١) الأخلاق الإسلامية وأسسها ص٣٧٢ ج٢ بتصرف وزيادات.

إقامة منافس في داخل نفس المسلم من شأنه أن يشكل قوة حصار تكبح باستمرار محاولات غلبة المادة على النفس. ولعل في الإحسان والبذل والعطاء أقوى منافس لطغيان المادة على النفس البشرية.

الوسيلة الخامسة:

الغوص في أعماق نفس المسلم إلى حيث يستقر الإيمان، ثم تحريك جانب الإيمان باليوم الآخر وتحريك محورى الطمع والخوف فيه بالترغيب والترهيب، وتصعيد مطامع النفس في المادة والتملك، حتى تتوجه للرغبة بامتلاك ما هو أجل وأعظم في جنة الخلد حيث لا منتهى لملكية المؤمن فيها كماً أو كيفاً، هنا تصغر الدنيا بماديتها في عينه، ويهون في نفسه أن يتنازل عن بعض مما يملك ليس لقاء مادة زائلة أو نزوة عابرة وإنما ابتغاء مرضاة الله تعالى.

هنا سيشتد في نفسه خلق الإحسان فيجيب داعيه إذا ما هتف به ذو حاجة. وبهذا يكون التوازن للشخصية المؤمنة أمام الأنانية المقيتة[1].

(١) الأخلاق الإسلامية وأسسها ج٢ ص٣٧٤ بتصرف كبير وزيادات.

الوسيلة السادسة:

تدريب النفس على الإحسان والبذل ولو على طريق الإلزام. فهذه وغيرها وسائل لها مرتكزاتها من ثوابت العقيدة من إيمان بالله واليوم الآخر، ومن تشريعات الإسلام الداعية لفعل كل ما هو خير. من شأنها أن تغرس خلق الإحسان في النفس ليقوى أثره في حياة الناس عامة، وفى الحياة المهنية -حيث يحتاجه الناس- خاصة.هكذا جعل الإسلام من " الكفاءة، والأمانة والإحسان " معياراً لتولى المهن والمناصب، فإذا قام الممتهن بما يجب عليه حسب ما تمليه عليه كفاءته وأمانته، وما يمليه عليه إحسانه في العمل والوظيفة، وجب الوفاء بما له من حقوق سواء كانت هذه الحقوق عند أفراد، أم مؤسسات حكومية أو غير حكومية.فقد نهانا الله سبحانه وتعالى أن نبخس الناس أشياءهم، كما أمرنا بالوفاء بالعقود لهم، يقول سبحانه " وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ " الشعراء (١٨٣).ويقول المولى عز وجل " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَوْفُواْ بِالْعُقُودِ" المائدة (١). ويقول النبى صلى الله عليه وسلم " قال الله تعالى:ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة رجل أعطى بى ثم غدر، ورجل باع حراً فأكل ثمنه، ورجل استأجر أجيراً فاستوفى ولم يوفه أجره"[(١)]. بل يجب على المؤسسات والأفراد أن يفرضوا مكافآت تشجيعية مجزية لكل من أجاد في مهنته وأتى بمتطلباتها على الوجه الأكمل، نظراً لما نعايشه من تدن في الأخلاقيات المهنية في الوظائف المختلفة، وهذا على سبيل الحرص على نهضة هذه الأمة وإقالتها من عثرتها وكبوتها، ولكى يتمايز المحسن والمسيء في المجال المهنى لتنشرح النفس ويعم التفانى والإبداع.وقد رأينا الإسلام وقد فرض للمؤلفة قلوبهم سهماً ونصيباً في أموال الزكاة ليتخذ منهم لبنات لبناء المجتمع الأول، فحرى بنا أن نتأسى بذلك لنقيم ما تهدم من صرح هذه الأمة ولتنهض المجتمعات المسلمة من ثباتها وأينما تكون المصلحة فثم شرع الله.

مع العلم أن الإسلام قد حث على ذلك ولم يمنعه بحال من الأحوال حيث قال تعالى

" هَلْ جَزَاء الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ" وبناء على هذا يقابل الإحسان بالإحسان سواء من الله تعالى أو من الجماعة المسلمة. ويقول النبى صلى الله عليه وسلم " من صنع إليكم معروفا فكافئوه، فإن لم تجدوا ما تكافئونه– فادعوا له حتى تروا أنكم قد كافأتموه"[(٢)] ويقول صلى الله عليه وسلم " من لا يشكر الناس لا يشكر الله"[(٣)]. وشكر الناس يأخذ صوراً متعددة تبعاً لمختلف المواقف والأحوال.وإذا كان الإسلام قد أوجب التعذير فيما لا نص فيه من المخالفات، فإنه من باب أولى أحرى بنا أن نوجب التقدير لكل من أجاد وأحسن في آداء عمله، لاسيما في أزمنة الانحطاط الخلقى في مجال المهنة والعمل.

(١) رواه البخارى رقم ٢٢٧٠.
(٢) رواه الإمام أحمد وابن، وابن حبان عن ابن عمر كنز العمال ١٦٠٧٥.
(٣) رواه البيهقى عن النعمان بن بشير كنز العمال ٦٤١٨.

المبحث الخامس
نماذج تطبيقية للأخلاق المهنية في التراث الإسلامى

إن المتتبع لتراث مفكرى الإسلام يجده وقد حفل بالعديد والعديد من الأخلاقيات التى يجب توافرها في كل مهنة من المهن، وما عرضناه من صفات "الكفاءة، والأمانة، والإحسان " لهى صفات وأخلاقيات مهنية يجب توافرها فيمن يتبوء منصباً من المناصب، أو وظيفة من الوظائف أياً كان مسمى هذه الوظيفة.

والآن سنعرض بمشيئة الله تعالى لبعض النماذج التطبيقية التى حفل بها التراث الإسلامى بالنسبة لما يتعلق بالأخلاق المهنية لبعض الأعمال والوظائف:

أولا: مهنة الطب:

وتظهر أخلاقيات هذه المهنة في تراثنا الإسلامى من خلال:

(١) القسَم الطبى:

حيث يشترط على كل من يريد ممارسة الطب أن يؤدى قسماً طبياً يقطع به عهداً وميثاقاً على نفسه بتطبيق بنوده، ويشتمل هذا القسم على الآداب المهنية التى ينبغى أن يلتزم بها الطبيب في مهنته في ضوء المفاهيم الإسلامية الداعية للطهارة والفضيلة في ممارسة مهنة الطب. هذاولم يكن هناك قَسَمُ واحد يلتزم به جميع الأطباء بل إن المطالع لكتب الطب التراثية يلمح أنماطاً مختلفة للقسم الطبى، بيد أنه يدور في نفس المفهوم الأدبى والأخلاقى المشدد على الالتزام بقدسية المهنة وعدم الخروج عن حدودها المرسومة.وهذا نص القسم في الدولة العباسية " أقسم بالله رب الحياة والموت، وواهب الصحة وخالق الشفاء وكل علاج، وأشهده على أن أفى هذا اليمين، وهذا الشرط، وأرى أن المعلم لى هذه الصنعة بمنزلة آبائى وأواسيه في معاشى، وإذا احتاج إلى مال واسيته، ووصلته من مالى، وأما الجنس المتناسل منه فأرى أنه مساو لإخوانى وأعلمهم هذه الصناعة إن احتاجوا إلى تعلمها بغير أجرة ولا شرط، وأشرك أولاد المعلم لى والتلاميذ لى الذين كتب عليهم الشرط وحلفوا بالناموس الطبى في الوصايا والعلوم وسائر ما في الصناعة، وأما غير هؤلاء فلا أفعل به ذلك " " واقصد بجميع التدبير بقدر طاقتى منفعة المرضى، وأما الأشياء التى تضر بهم وتدنى منهم بالجور عليهم فامنع منها بحسب رأيى..... ولا أعطى إذا طلب منى دواء قتالاً ولا أشير أيضاً بمثل هذه المشورة، وكذلك أيضاً لا أرى أن أدنى من النسوة فرزجة تسقط الجنين، واحض نفسى من تدبيرى وصناعتى على الزكاة والطهارة ولا أشق أيضاً عمن في مثانية حجارة لكن أترك هذا إلى من كانت حرفته هذا العمل.... وكل المنازل التى ادخلها انما ادخل إليها لمنفعة المرض وانا بحال خارجة عن كل جور وظلم وفساد ادارى مقصود اليه سائر الاشياء، وفى الجماع للنساء والرجال الأحرار منهم والعبيد، اما الأشياء

التى اعانيها في اوقات علاج المرض أو اسمعها أو غير أوقات علاجهم في تصرف الناس من الأشياء التى لا ينطق بها خارجاً فامسك عنها وأرى أن مثالها لا ينطق به.... فمن أكمل هذا اليمين ولم يفسد منها شيئاً كان له أن يكمل تدبيره وصناعته على أفضل الأحوال وأجملها وأن يحمده جميع الناس فيما يأتى من الزمان دائماً ومن تجاوز ذلك كان بضده"[1].

إن الأخلاق المهنية للطبيب قد عرفها التراث الإسلامى وضمنوها قسم الطبيب ومن خلالها وضعوا شروطاً وأخلاقيات يجب توافرها في كل من يتصدى لمهنة الطب، و يجب عليه الإلتزام حيث تضمنت الكفاءة، والأمانة، والإحسان في قمة صوره إذ جعل لمعلم مهنة الطب حقاً على تلاميذه أن يواسوه بأموالهم إن احتاج لذلك.وقد تبنت كليات الطب هذا القسم في عصرنا الحاضر، وأوجزت صياغته وبترت منه أشياء كفرض المسئولية المادية والأدبية الكاملة من الطبيب تجاه أبناء أستاذه.ونذكر على سبيل المثال صيغة القسم الذى يقسمه خريجوا كليات الطب في الجامعات المصرية ونصه " أقسم بالله وأشهده أن أحترم مهنتى وأن أعتبر أساتذتى بمنزلة والدى، وأن اتبع في العلاج الطريقة التى أؤمن أنها مجدية ومفيدة، وأن أمتنع عن كل ما هو ضار أو مؤذ، ولا أعطى دواء قاتلاً أو اسدى نصيحة ضارة.وسوف أقضى حياتى في ممارسة فنى في طهر وقداسة وأن أحترم البيت الذى أدخله ولا أفشى سراً اطلعت عليه ولا أبوح بشىء يجب الاجابة عليه مما أراه وأسمعه عن مرضاى في نطاق عملى، وأن اعتبر هذه الأشياء من الأسرار المقدسة.

أما القسم الذى أقره الدستور الإسلامى للمهن الطبية والذى أقره المؤتمر العالمى الأول للطب الإسلامى فنصه ما يلى:

بسم الله الرحمن الرحيم

"أقسم بالله العظيم أن أراقب الله في مهنتى، وأن أصون حياة الإنسان في كافة ادوارها في كل الظروف والأحوال، باذلاً وسعى في استنفاذها من الموت والمرض والألم والقلق، وأن أحفظ للناس كرامتهم، وأستر عوراتهم، وأكتم سرهم، وأن أكون على الدوام من وسائل رحمة الله باذلاً رعايتى الطبية للقريب والبعيد والطالح والخاطىء والصديق والعدو، وإن أثابر على طلب العلم واسخره لنفع الإنسان لا لأذاه، وأن أوقر من علمنى، وأعلم من يصغرنى، وأكون أخاً لكل زميل في المهنة الطبية في نطاق من البر والتقوى، وأن تكون حياتى مصداق إيماني في سرى وعلانيتى نقياً مما يشيننى أمام الله ورسوله والمؤمنين والله على ما أقول شهيد[2]. وهكذا لم يخرج القسم الطبى في الآونة الحاضرة عن ما ورد من قسم في تراثنا الإسلامى، ويروى لنا ابن أبى أصيعة عن على بن رضوان ت٤٥٣

(١) ابن أبى أصيعة، عيون الأنباء فى طبقات الأطباء ص١٥ منشورات مكتبة الحياة ١٩٦٥.

(٢) الطبيب المسلم د / هشام الخطيب وآخرون ص ٦٧، ٦٨

هجرى/١٠٦١م نقيب أطباء القاهرة الأخلاقيات المهنية التى يجب أن يتحلى بها الطبيب المسلم فيقول "فإن الطبيب هو الذى اجتمعت فيه سبع خصال:

الأولى: أن يكون تام الخلق صحيح الأعضاء حسن الذكاء جيد الروية عاقلاً ذكوراً خير الطبع.

الثانية: أن يكون حسن الملبس طيب الرائحة نظيف البدن والثوب.

الثالثة: أن يكون كتوماً لأسرار المرضى لا يبوح بشيء من أمراضهم.

الرابعة: أن تكون رغبته في إبراء المرضى أكثر من رغبته فيما يلتمسه من الأجره، ورغبته في علاج الفقراء أكثر من رغبته في علاج الأغنياء.

الخامسة: أن يكون حريصاً على التعليم والمبالغة في منافع الناس.

السادسة: أن يكون سليم القلب عفيف النظر صادق اللهجة لا يخطر بباله شيء من أمور النساء والأموال التى شاهدها في منازل الأعلاء، فضلاً عن أن يتعرض إلى شيء منها.

السابعة: أن يكون مأموناً ثقة على الأرواح والأموال لا يصف دواء قتالاً ولا يعلمه، ولا دواء يسقط الأجنة، يعالج عدوه بنية صادقة كما يعالج حبيبه.

فالمعلم لصناعة الطب هو الذى اجتمعت فيه هذه الخصال بعد استكماله صناعة الطب[١]. ولم يقف على بن رضوان فيما كتبه عن أخلاق مهنة الطب عند حد الطبيب الممارس لها بل ذكر أيضاً أخلاقيات أخرى في متعلم هذه المهنة حيث قال " والمتعلم هو الذى فراسته تدل على أنه ذو طبع خير ونفس ذكية وأن يكون حريصاً على التعليم ذكياً ذكوراً لما قد تعلمه"[٢].

وبالنظر لما تقدم من أخلاقيات مهنية للطبيب في التراث الإسلامى يمكن أن نوضح عدداً من الأخلاقيات التى يجب أن يتحلى بها الطبيب فيما يلى:

١) الكفاءة:

فلا ممارسة لمهنة الطب إلا عن كفاءة وتمام في المؤهلات، يقول صلى الله عليه وسلم

" لا حكيم إلا ذو تجربة "[٣] ويقول صلى الله عليه وسلم أيضاً " إن الله كتب الإحسان في كل شيء "[٤] وقد مر بنا تفصيل الحديث عن الكفاءة في المبحث السابق.

٢) الأمانة في بذل النصح والمشورة:

(١) عيون الأنباء ج٣ ص٣٢.
(٢) عيون الأنباء ج٣ ص٣٢.
(٣) رواه الإمام أحمد وابن حبان وغيرهما عن أبى سعيد.كنز العمال ٥٨٢٧
(٤) رواه الإمام مسلم عن شداد بن أوس حديث رقم ١٩٥٥

فإذا استشاره المريض، عليه أن يلتزم الأمانة في إبداء المشورة ويحافظ على ما استشير فيه، يقول صلى الله عليه وسلم " المستشار مؤتمن"[١]، وقد سبق تفصيل لذلك وسيأتى إن شاء الله تفصيل آخر في أخلاقيات المهن الاستشارية.

٣) المحافظة على السر الطبى:

وهو أمر أساسى في الحياة العامة فضلاً عن المجال الطبى، حيث يطَّلِع الطبيب على كثير من اسرار المريض التى يهمس بها إليه كجزء من البحث عن التشخيص والعلاج السليم فلا يجوز للطبيب أن يفشها، يقول ابن هبل ".... وكذلك يأخذون عليهم العهود في حفظ الأسرار فإنهم يطلعون على ما لا يطلع عليه الآباء والأولاد من أحوال الناس، وأن يلزموا العفة وغض الطرف، وإذا دخلوا بيوت الناس لا تكون همومهم مصروفة إلا إلى ما يعود بمصالح المرضى[٢]".وقد مر ما يؤيد ذلك. ولا يجوز للطبيب أن يفصح عن سر مريضه إلا لضرورة قصوى، ويكون الإفصاح بقدر ما تستدعيه تلك الضرورة، كما في حالات الضرر العام، ووجود الأمراض المعدية، وكما إذا كانت مصلحة المريض الخاصة مهددة بالخطر في حالة كتمان السر المرضى، كأن يعتريه محاولات انتحار ناتجة عن أمراض نفسية، أو في حالة دفاع الطبيب عن نفسه، أو في حالة استدعاء للشهادة أمام الجهات القضائية وما شابه ذلك[٣].

٤) احترام التخصص المهنى:

وهذا مطلب مهنى من الأهمية بمكان في الجانب الطبى وقد حث عليه النبى صلى الله عليه وسلم بممارسته اياه عندما نادى للمريض المفئود " الحارث بن كلدة"[٤]، وحث صلى الله عليه وسلم عندما دعى إلى توسيد الأمور إلى أهلها. واحترام التخصص الهنى هو عين ذلك. يقول صلى الله عليه وسلم: " إذا وسد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة"[٥].

٥) المحافظة على الكفاءة:

وهذا أمر لاغنى عنه لأى ممتهن فضلا عن الطبي إذ ينبغى عليه المحافظة على كفاءته العلمية بالتعليم المستمر، وعلى الطبيب المسلم أن يبقى في مضمار التطور العلمى الحديث، متماشياً مع ما وصل إليه العلم الحديث من " تطورات واختراعات، يقول المولى عز وجل " وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا" طه (١١٤).

---

(١) رواه البخارى فى الأدب المفرد ٢٥٦
(٢) الطبيب المسلم ص ٦٧، ٦٨
(٣) الطبيب المسلم ص٢٢ ويراجع ا.د/ محسن الحازمى أخلاقيات الاسترشاد الوراثى فى المجتمعات الإسلامية ص٣٨.
(٤) روى ذلك أبو داود حديث رقم٣٨٥٧
(٥) فيض القدير ٨٨٧

ويقول الفاروق عمر" لا تقفوا بأبناءكم عند علومكم فإنهم قد خلقوا لزمان غير زمانكم " وقد رأينا النبى صلى الله عليه وسلم وقد مارس ذلك عندما طور القدرات القتالية لجماعة المسلمين في غزوة الأحزاب، حين أمر صلى الله عليه وسلم بحفر الخندق وهو فكرة فارسية لم يعهدها العرب من قبل في قتالهم.

٦) أن يذيع الطبيب ما يكتشفه من جديد في العلاج تعميما للفائدة، ولا يحتكر طريقة في العلاج بقصد الكسب منها، يقول النبى صلى الله عليه وسلم " لا يحتكر إلا خاطىء"[١].

ويقول صلى الله عليه وسلم " كاتم العلم ملعون"[٢]، ويقول صلى الله عليه وسلم " من كتم علماً ألجمه الله بلجام من نار يوم القيامة"[٣]، ويقول صلى الله عليه وسلم " المحتكر ملعون"[٤]. كذلك في إذاعة الطبيب لما توصل إليه من معارف وفاء لحق الزميل وحق المريض على السواء وإثراء للمهنة على تعاقب الأجيال، قال صلى الله عليه وسلم " إذا مات ابن آدم إنقطع عمله إلا من ثلاث، صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له"[٥].

٧) استشعار الطبيب دوره كسبب في الشفاء:

ومن خلال هذا الخلق يستشعر الطبيب دوره الحقيقى في المسألة العلاجية فهو سبب، والشافى الحقيقى هو الله تعالى، يقول تعالى على لسان الخليل عليه السلام " وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ " الشعراء (٨٠). ويقول تعالى " وَإِن يَمْسَسْكَ اللّهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ " الأنعام (١٧).وجاء أبو رمثة[٦]، فقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم:دعنى أعالج ما بظهرك فإنى طبيب، فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم " أنت رفيق والله طبيب"[٧]. وهذا الخلق من شأنه أن يجعل الطبيب دائم الصلة بالله تعالى يسأله التوفيق في عمله، كما أنه يقيه من الغرور المهنى عند نجاحه في العمل[٨]. يقول الرازى " ويتكل الطبيب في علاجه على الله تعالى ويتوقع البرء منه ولا بحسب قوته وعمله ويعتمد في كل أموره عليه، فإن فعل بضدد ذلك ونظر إلى نفسه وقوته في الصناعة وحذقه بها، حرمه الله البرء"[٩].

٨) أن يمنح الطبيب مريضه دفعة روحية:

وذلك بالشد من أزره وطمأنته، وذلك لما تحدثه هذه الدفعة من أثر حاسم، في إحداث البرء والشفاء.ومن ثم كانت الأوامر الإسلامية في هذا الجانب حيث يقول

(١) رواه الإمام أحمد وغيره عن عبد الله بن عمرو كنز العمال ٩٧٣٢.
(٢) أخرجه ابن الجوزى فى العلل عن أبى سعيد.كنز العمال رقم٢٨٩٢٦..
(٣) أخرجه الإمام أحمد وأصحاب السنن وغيرهم بألفاظ متقاربه كنز العمال٢٩٠٠٢
(٤) كنز العمال ٩٧٢٢.
(٥) رواه الإمام مسلم ١٦٣١
(٦) طبيب فى عهد النبوة.
(٧) رواه الإمام أحمد كنز العمال ٢٨٠٧٣
(٨) الطبيب المسلم ص١٦ بتصرف.
(٩) الرازى أخلاق الطبيب نقلاً عن الطبيب المسلم ص٥.

صلى الله عليه وسلم " بشروا ولا تنفروا "[١]. فعن أبى سعيد الخدرى قال، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إذا دخلتم على مريض فنفسوا له في أجله فإن ذلك لا يرد شيئاً ويطيب نفسه "[٢]، ويقول صلى الله عليه وسلم " إن من تمام عيادة أحدكم أن يضع يده عليه فيسأله كيف أصبح وكيف أمس"[٣].

ويقول صلى الله عليه وسلم رافعاً من روح سلمان رضى الله عنه " يا سلمان شفى الله سقمك، وغفر ذنبك، وعافاك في دينك وجسدك إلى مدة أجلك"[٤]، وتنظر الأخلاقيات الطبية أيضاً إلى أحباء المريض بعين الاعتبار فتعمل على إعطاءهم كذلك دفعات معنوية بها يطمئنون على من يحبون، فعن ابن عباس رضى الله عنهما قال " ما أن عليا خرج من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم في وجعه الذى توفى فيه، فقال الناس كيف أصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم قال أصبح بحمد الله بارئاً"[٥] وهكذا ينظر الإسلام إلى الدفعات المعنوية التى يحتاجها المريض من طبيبه كبعد أخلاقى في مهنته لما لها من أثر في شفاءه بل يتعدى بهذه الدفعة إلى كل من لهفت قلوبهم عليه والاطمئنان على حاله.

٩) عدم الإضرار:

ويعد عدم الإضرار أحد الأركان الأساسية في المجال الطبى سواء كان ذلك في وصف الدواء، أو في إقراره كدواء معتمد ومعتبر من خلال خضوعه للاختبارات والتجارب في المعامل ثم الحيوانات، وقد حث الإسلام على ذلك حيث قال النبى صلى الله عليه وسلم " لا ضرر ولا ضرار "[٦] وينطبق ذلك على مرحلتى العلاج والوقاية حيث نص على ذلك من خلال عدد من القواعد الفقهية منها (الضرر يدفع بقدر الإمكان) ويستفاد من هذه القاعدة اتخاذ الاجراءات والاحتياطات الكفيلة بالوقاية، فإذا ما حل الضرر لسبب ما من الأسباب فنأتى للقاعدة الأخرى (الضرر يزال) وبجانب ما تقدم يمكن الاستشهاد بجملة من القواعد المفيدة في هذا المجال منها (الضرر لا يزال بمثله) (يختار أهون الشرين) أو أخف الضررين و(دفع المفاسد مقدم على جلب المصالح) و (المشقة تجلب التيسير) و (الأمر إذا ضاق اتسع) و(الضرورات تقدر بقدرها) و (الحاجيات تنزل منزلة الضرورات)

وقد أرسل سلمان الفارسى رضى الله عنه – إلى أبى الدرداء رضى الله عنه – بعد ما تولى الثانى القضاء في دمشق رسالة جاء فيها: (....وقد بلغنى أنك جعلت

(١) رواه الإمام مسلم ١٧٣٢
(٢) أخرجه الترمذى كتاب الطب رقم ٢٠٨٧
(٣) رواه الترمزى
(٤) كنز العمال ٢٥١/٥٤.
(٥) كنز العمال ٢٥٢٠٠.
(٦) رواه أبو نعيم، والإمام مالك، وابن ماجه كنز العمال رقم٩١٦٧

طبيباً تداوى، فإن كنت تبرىء فنعما لك، وإن كنت متطيباً فاحذر أن تقتل إنساناً فتدخل النار "[1].

١٠) المسئولية الطبية:

الأصل في كل عمل الإتقان وألزم ما يكون الإتقان للعمل الطبى، نظراً لتعامله مع الكيان الإنسانى المتصف بالروح والحياة، ولذا كان من الأمثال السائرة "اعمل في هذا عمل من طب لمن حب"[2]، واقترن بذلك مسئولية الطبيب عن عمله المهنى، يقول صلى الله عليه وسلم "من تطبب ولم يكن بالطب معروفا فإذا أصاب نفسا فما دونها فهو ضامن"[3]. و يقول صلى الله عليه وسلم في الحديث الذى رواه عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده " من تطبب ولم يعلم منه الطب قبل ذلك فهو ضامن"[4] وقوله صلى الله عليه وسلم "من تطبب" دون "من طب" لأن لفظ التفعل دال على أن المقصود هنا هو المتكلف في الطب وغير المأذون له فيه، لذا اعتبر خطؤه مضاعفاً لأنه بجهله أقدم على إتلاف الأنفس، كما أنه بدعواه الباطلة لما ليس فيه قد غرر الناس بالتعامل معه، لذا هو مسئول من جهتين، جهة جهله، وجهة تغريره.فلزمه ضمان التلف الناتج عن تطببه.وقد قسم الإمام ابن القيم المسئولية الطبية المقترنة بالضمان إلى ما يلى:

١- طبيب حاذق أعطى الصنعة حقها ولم يرتكب خطأ، فتولد من فعله المأذون فيه من جهة الشارع ومن جهة مريضه تلف العضو أو النفس، أو أدى إلى ذهاب صفة من الصفات، فهذا لا ضمان عليه اتفاقاً لأنها سراية الواجب وسراية الواجب مهدورة بالاتفاق.ومثال ذلك ختان الصبى من قبل طبيب حاذق، أعطى الصنعة حقها، ولكن حدثت مضاعفات أو تلف العضو أو موت الصبى، فإن الطبيب لا يضمن. أما إذا كان الإذن بالفعل مشروطاً بالسلامة، وقبل الطبيب بهذا الشرط كان الإذن مسقطاً لشرط السلامة فالشرط باطل إذ ليس في وسعه ذلك، ويعتبر الطبيب في هذه الحالة غير ضامن على الرغم من اقتران الإذن بشرط السلامة.

٢- طبيب حاذق أذن له وأعطى الصنعة حقها لكنه أخطأ بيده، فهذا يضمن، لأنها جناية خطأ ويقابل ذلك الخطأ الفاحش في عرف اليوم.

٣- طبيب حاذق، ماهر بصناعته اجتهد فوصف للمريض دواء فأخطأ في اجتهاده، وأدى ذلك إلى تلف النفس أو ذهاب صفة من الصفات، فهذا يخرج على روايتين، أن دية المريض على بيت المال. والثانية على الطبيب. ونتبين مما تقدم أن الإسلام ضمن دية المريض في كل حال وجعلها إما على عاتق الطبيب أو على بيت المال.

---

(١) الإمام مالك الموطأ ص٥٤٦ تح أحمد راتب ط- دار النفائس بيروت.
(٢) لسان العرب ج١ ص٥٥٣.
(٣) رواه ابن عدى، وابن السنى، وأبو نعيم كنز العمال ٢٨٢٢٢
(٤) رواه أبو داوود وابن ماجه والنسائى كنز العمال ٢٨٢٢١.

٤- طبيب حاذق أعطى الصنعة حقها فقطع سعلة من رجل بإذنه فتلف أو أدى ذلك إلى ذهاب صفة من الصفات فإنه لا يضمن التلف.

٥- طبيب حاذق أعطى الصنعة حقها فقطع سعلة من صبى أو مجنون بعد إذن وليه فتلف أو أدى ذلك إلى ذهاب صفة من الصفات فإنه لا يضمن التلف مطلقاً.

٦- طبيب حاذق أعطى الصنعة حقها فقطع سعلة من رجل أو صبى مجنون بغير إذنه أو إذن وليه فتلف أو أدى ذلك ذهاب صفة من الصفات فإنه يضمن لأن التلف تولد من فعل غير مأذون فيه.

٧- متطبب جاهل باشرت يده من يطبه فتلف به، فهذا إن علم المجنى عليه أنه جاهل ولا علم له، وأذن له في طبه لم يضمن، ولا تخالف هذه الصورة ظاهر الحديث، فإن السياق وقوة الكلام يدل على أنه غرر العليل وأوهم أنه طبيب وليس كذلك وإن ظن المريض وأذن له في طبه لأجل معرفته، ضمن الطبيب ما جنت يده وكذلك إن وصف له دواء يستعمله والعليل ظن أنه وصفة لمعرفته وحذقه، فتلف به ضمن الطبيب ما جنتبت يده، والحديث ظاهر وصريح.

وقد أجمع الفقهاء على وجوب منع الطبيب الجاهل الذى يخدع الناس بمظهره ويضرهم بجهله من العمل، ومن القواعد المقرره في الحجران ثلاثة يحجر عليهم، أى يمنعون عن العمل " المفتى الماجن، والطبيب الجاهل، والمكارى المفلس" وفى ذلك يقول الإمام أحمد " إذا قام باعمال التطبيب شخص غير حاذق في فنه، يعتبر عمله محرماً، وقد رتب علماء الشريعة الإسلامية على ذلك أن الطبيب الجاهل إذا أوهم المريض بعمله فأذن له بعلاجه لما ظنه من معرفته، فمات المريض أو أصابه ضرر من جراء هذا العلاج، فإن الطبيب يلزم بدية النفس أو بتعويض الضرر على حسب الأحوال ولكنهم ينفون عنه القصاص استناداً إلى أن الطبيب الجاهل إذا كان قد عالج المريض فقد عالجه بإذنه وفى ذلك يقول الخطابى " لا أعلم خلافاً في أن المعالج إذا تعدى فتلف المريض كان ضامناً"ولم يكتف الشارع بتحديد المسئولية الطبية القانونية بالنسبة للخطأ الذى يقع فيه الطبيب وإنما حدد من هو الطبيب والمريض وولى المريض ومتى يدفع الضمان ومن أين يدفع الضمان"[1].

١١) الاستقلالية والذاتية:

من الأمور التى يجب مراعاتها في الأخلاقيات المهنية الطبية الاستقلالية والذاتية حيث إنها أساس بموجبه يتمتع كل فرد في المجتمع بالحق في اختيار من يشاء من الأطباء ليقصده للعلاج. بل إن التشريع الإسلامى أعطى المريض الحق في اختيار الطبيب الأكثر مهارة وحذقاً، فقد ذكر الإمام مالك أن رجلاً في زمن

(١) ابن القيم الطب النبوى ص٢٠ وما بعدها ط- مؤسسة الرسالة ويراجع الطبيب المسلم ص٥٩، ٦٠ بتصرف كبير.

رسول الله صلى الله عليه وسلم جرح فاحتقن الدم فجيء بطبيبين فلما نظرا إليه قال لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم " أيكما أطب"[١].

وإذا كان الإسلام قد أعطى المريض هذا الحق في استقلال ذاتيته في اختيار من يعالجه فإنه بموجب ذلك يجب عليه أن لا يرفض أى علاج يوصف له مما يقصد به إسعاف حياته، أو أى اجراء تقتضيه الصحة العامة لمنع إضرار المريض بغيره لأن من القواعد الشرعية " لا ضرر ولا ضرار، وأن درء المفسدة مقدم على جلب المصلحة" ولا يتعين إذن المريض أو وليه في الحالات الطارئة التى تنذر بهلاك المريض، ولا يعتبر الطبيب مسئولاً مهما كانت النتائج ما دام قد أجرى ما توجبه الأصول الطبية بأسلوب سليم وبذل قصارى جهده وطاقته.

ويعلل الإمام ابن القيم ذلك بقوله " إن الطبيب محسن وما على المحسنين من سبيل"[٢].

١٢) العدالة:

ويقصد بالعدالة هنا المساواة في توزيع الخدمات الصحية بحيث لا تكون مقصورة على الأغنياء وذوى النفوذ والجاه، ويحرم منها الفقراء والضعفاء والمساكين.وقد اعتبر الفقهاء مهنة الطب من فروض الكفاية بحيث إذا لم يوجد من يقوم بها عموماً أو لطائفة أو طبقة من الناس كالفقراء مثلاً يأثم المسلمون جميعاً.

وعدل الطبيب مندرج في قول الله تعالى " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ لِلّهِ شُهَدَاء بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ " المائدة (٨). وقد مر بنا من قبل ما حمله قسم مهنة الطب في الدولة العباسية، وذكره على بن رضوان من أخلاقيات ينبغى توافرهافي مهنة الطب، ما يدل على ذلك. والمطالع لكتب تراجم الأطباء مثل " عيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن أبى أصيعة، وطبقات الأطباء لابن حيان وغيرهما.... يجدها مليئة بالقصص والحكايات التى تبين حرص الخلفاء والأمراء والوزراء والأطباء في الدولة الإسلامية على إيصال الخدمات الطبية لكل فرد في الأمة.

١٣) الإحسان والرحمة:

وقد أمر بهما القرآن الكريم فقال تعالى "وَأَحْسِنُوَاْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ" البقرة (١٩٥) وهذا عام في كل شيء والإحسان في أخلاقيات مهنة الطب قد مر الحديث عنه أما الرحمة في المجال المهنى الطبى فيشير إليها قول النبى صلى الله عليه وسلم لطبيب قدم عليه "... لست بطبيب ولكنك رفيق "[٣] أى ترفق بالمريض وتتلطف به، ويقول صلى الله عليه وسلم حثاً لرجل كان يرقى من العقرب"... من

(١) الطب النبوى ج٣ ص٢٣
(٢) الطب النبوى ٢٢
(٣) رواه الإمام احمد ١١/٦٨٢ والنسائى ٨/٥٣.

استطاع أن ينفع أخاه بشيء فليفعل "[1]ويقول اسحاق الرهاوى في أدب الطبيب " وينبغى للطبيب أن تكون فيه رحمة، ولا يتم ذلك إلا بتقى وخوف من الله عز وجل، وإذا كان الطبيب كذلك لم يسمع منه إلا الصدق ولم يفعل إلا الخير مع سائر الناس..... وليس ينبغى للطبيب أن يمنع المريض من كثرة ما يشتكيه فيظهر ضجراً من ذلك، لأنه ربما أورد في كلامه علامات يستدل منها الطبيب على ما ينتفع به ويستهد بها على صحة مرضه "[2].

١٤) تجنب الممارسات المحرمة:

ويتمثل ذلك في الاجهاض أو الجراحات التى يتأتى من وراءها الغرر وما شابه، وقد تقدم في القسم الطبى في الدولة العباسية وغيره ما يدل على ذلك.

١٥) تجنب ما حرم الله تعالى في العلاج:

وذلك تنفيذاً لقول النبى صلى الله عليه وسلم " إن الله لم يجعل شفاءكم فيما حرم عليكم "[3] ويستثنى من هذا العنصر والمتقدم عليه حالات الضرورة الملحة التى يحددها الطبيب المسلم مع الأخذ في الاعتبار أن الضرورة تقدر بقدرها.

١٦) فحص الطبيب للمريضة بحضور ممرضة أو أحد المحارم:

وهذا إقرار وترسخ للعفة في مهنة الطب وحرص على طهارتها وتنفيذاً لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم " لا يخلوا رجل بامرأة إلا ذو محرم"[4]وهذا الخلق المهنى يعد نوعاً من الاحتياط الواجب لكل من الطبيب والمريضة فهو حماية للطبيب من التقول عليه، أو اتهامه بما هو منه براء. وصيانة للمرأة من الشك والريبة إضافة إلى ذلك هو سد لنوازع الشيطان ويستثنى من ذلك الحالات الطارئة النادرة.

١٧) إحسان الصلة بين الزملاء في المهنة:

وذلك لما يعود من خير على صالح الأفراد والجماعة في هذه المهنة على وجه الخصوص.فالطبيب المسلم يعامل زملائه كما يحب أن يعاملوه به فلا منازعة ولامشاحنه ولا اختلاف إلا في حدود الأدب الذى يراد به تحقيق المصلحة يقول صلى الله عليه وسلم " لا تباغضوا ولا تقاطعوا وتدابروا ولا تحاسدوا وكونوا عباد الله إخوانا كما أمركم الله، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام "[5] أضف إلى ذلك ما يجب أن يتحلى به الطبيب من صفات عامة أوجبها الإسلام على أفراده من صدق، وتواضع، ومراقبة..... وغير ذلك.هكذا اهتم التراث الإسلامى بالأخلاقيات المهنية الطبية بصورة تفوق ما حث عليه المحدثون من إقرار

(١) الإمام مسلم ٢١٩٩ والإمام احمد فى المسند رقم ١٤٢٣١.
(٢) أدب الطبيب ١٦١ ويراجع أخلاقيات الاسترشاد الوراثى ص٣٦.
(٣) البخارى عن ابن مسعود غطب عن مسلمه كنز العمال ٢٨٣١٩
(٤) رواه الإمام مسلم ١٣٤١
(٥) رواه مسلم عن ابى أيوب الأنصارى ٢٥٦٠

لأخلاقيات مهنة الطب، ونختم حديثنا بأقوال لأطباء أثروا حياة الأمة بعلمهم تدل على حثهم بالتمسك بالأخلاق المهنية، منهم على بن العباس الذى يقول " ينبغى لمن أراد أن يكون طبيباً فاضلاً أن يتخلق بالأخلاق الفاضلة، وأن لا يتهاون فيها إن فعل ذلك كانت مداواته للمرضى مداواة صواب"[1] ويقول نظامى عروضى مبيناً للشروط التى يجب توافرها في الطبيب " وأما الطبيب فينبغى أن يكون رقيق الخلق حكيم النفس جيد الحدس والحدس حركة نفسية توحى بالآراء الصائبة، أعنى سرعة الانتقال من المجهول إلى المعلوم ولا يكون الطبيب رقيق الخلق ما لم يعرف شرف الإنسانية ولا يكون حكيم النفس ما لم يعرف المنطق كما أنه لا يكون جيد الح ما لم يكن مؤيداً بالتأييد الإلهى، والطبيب الذى لا يكون جيد الحدس لا يصل إلى معرفة العلة، وذلك أنه يستدل على حالة المريض بالنبض، والنبض حركة الانقباض والانبساط وما بينهما من سكون"[2].

ثانيا أخلاقيات المهن الاستشارية

لعل من المبررات القوية التى تجعلنا نقدم المهن الاستشارية كنموذج اهتم به التراث الإسلامى من حيث أخلاقياته، مالها من أثر بالغ وانعكاس واضح على حياة الأفراد والجماعات. فالأفراد كثيراً ما يتخذون قرارات تمثل منحنيات خطيرة في حياتهم بناء على استشارة في مجال ما من المجالات.فالمريض مثلاً يحتاج إلى استشارة عن كفء من الأطباء قبل أن يحسم أمره لخوض جراحة من الجراحات. ورب المال يحتاج إلى استشارة خبير قبل أن يبذل ماله في مشروع من المشروعات وهكذا..... أما بالنسبة للجماعة فإنه ينعكس عليها قرارات أولى الأمر فيها بناء على ما يشير عليهم به أعوانهم وبطانتهم فتسعد أو تشقى.لذلك رأينا الرئيس الأمريكى الأسبق "روز فلت " يتخذ له عشرة مستشارين يطلق عليهم "مؤسسة الأدمغة" من أجل هذا وغيره سيكون حديثنا عن أخلاقيات المهن الاستشارية كما صورها تراثنا الإسلامى.

أهمية الاستشارة في الإسلام:

لقد نظر الإسلام إلى المهن الاستشارية على أنها أمر لا بد منه وشىء لا غنى عنه لأجل هذا أمر الله سبحانه وتعالى نبيه بالمشورة، مع ما تكفل به سبحانه من إرشاده ووعد به من تأييده، فقال تعالى "وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ" آل عمران (١٥٩). ووصف سبحانه الجماعة المسلمة بقوله " وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ" الشورى (٣٨). ولأهميتها أنزل سبحانه سورة باسمها هى سورة" الشورى "، يقول الضحاك في تعليل أمر الله لنبيه بالشورى " أمره بمشاورتهم لما علم فيها من الفضل". وقال الحسن البصرى" أمره بمشاورتهم ليستن به المسلمون، ويتبعه فيها

(١) الطبيب المسلم ص١٠٥.
(٢) المرجع السابق ص١٠٥

المؤمنون، وإن كان عن مشاورتهم غنيا"[١]. ويقول صاحب غرر الخصائص الواضحة في تعليقه على أمر الله لنبيه بالمشورة " إن العاقل من اهتدى بمشورة نصحائه... وخطاب الله لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم ليعلم أصحابه ما في المشورة من البركة لا لحاجة منه لرأيهم إذ هو المؤيد في حركاته وسكناته بالوحي من ربه والمستغنى بما يلقى من الرأى المصيب عن آراء صحبه"[٢]، وعن أهمية المشورة يقول الإمام على رضى الله عنه " نعم الموأزرة المشاورة، وبئس الاستعداد الاستبداد " ويقول الفاروق عمر رضى الله عنه " الرجال ثلاثة:رجل ترد عليه الأمور فيسددها برأيه، ورجل يشاور فيما أشكل عليه، وينزل حيث يأمره أهل الرأى، ورجل حائر بائر لا يأتمر رشداً ولا يطيع مرشدا"[٣].

وقال بعض البلغاء: من حق العاقل أن يضيف إلى رأيه آراء العقلاء، ويجمع إلى عقله عقول الحكماء، فالرأى الفذ ربما زل والعقل الفرد ربما ضل"[٤].

أخلاقيات المهن الاستشارية:

(١) الكفاءة والعلم:

فالمستشار لا بد وأن يكون ذا "عقل كامل وتجربة سالفة فإنه بكثرة التجارب تصح الروية"[٥].

ومعنى هذا أن من يقصد بالاستشارة لا بد فيه من رجاحة العقل وطول الخبرة، ولذلك روى أبو الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال " استرشدوا العاقل ترشدوا، ولا تعصوه وتندموا"[٦]، وعن تخير الكفاءات الناضجة في المجال المهنى الاستشارى يقول عبد الله بن الحسن لابنة محمد " احذر مشاورة الجاهل وإن كان ناصحاً، كما تحذر عداوة العاقل إذا كان عدواً، فإنه يوشك أن يورطك بمشاورته، فيسبق إليك مكر العاقل وتوريط الجاهل"[٧].

(٢) الأمانة والدين:

وهى من الأخلاقيات المهمة التى يجب توافرها في كل صاحب مهنة وقد مر تفصيل الحديث عنها وبيان قدرها في المجال الاستشارى ومن ثم يقول الإمام الماوردى مجلياً أهميتها في العمل الاستشارى " ويجب أن يكون –أى المستشار –

(١) الإمام الماوردى أدب الدنيا والدين ص٣٥٩ تح محمد فتحى بكر –ط- الدار المصرية اللبنانية
(٢) الوطواط غرر الخصائص الواضحة ص٤٨ ط بيروت.
(٣) محاضرات الأدباء ص٧
(٤) أدب الدنيا والدين ص٣٦٠
(٥) أدب الدنيا والدين ص٣٦٠
(٦) خط في رواية مالك عن أبى هريرة كنز العمال ٧١٨٠
(٧) أدب الدنيا والدين ويراجع الإمام الغزالى بداية ونهاية تح الشيخ أحمد عبد الهادى الأبيض ص٦٦ وما بعدها ط- مجلة الأزهر

ذا دين وتقى، فإن ذلك عماد كل صلاح وباب كل نجاح، ومن غلب عليه الدين فهو مأمون السريرة، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " من أراد أمراً فشاور فيه امرأمسلماً وفقه الله لأرشد أموره"(١)، ويقصد بالمسلم هنا من استجمع أوامر الله في نفسه.

(٣) النصح والمودة:

لأن النصح والمودة يصدقان الفكرة ويمحضان الرأى لأجل هذا قال بعض الحكماء لا تشاور إلا الحازم غير الحسود، واللبيب غير الحقود"(٢).

(٤) سلامة الفكر من الهموم والشواغل عند إبداء المشورة:

فباذل المشورة لكى يصح الرأى منه ينبغى أن يسلم فكره من هم قاطع، وغم شاغل فإن من عارضت فكره شوائب الهموم لا يسلم له رأى ولا يستقيم له خاطر ولذلك قال صالح بن عبد القدوس:

ولا مشير كذى نصح ومقدرة في مشكل الأمر فاختر ذاك منتصحا(٣)

(٥) التنزه عن الأغراض والأهواء:

وهذا ما ينبغى أن يكون عليه باذل النصيحة، إذ الأغراض والأهواء تميلان بالإنسان عن جادة الحق والصواب، يقول الإمام الماوردى في وصف من طلبت منه المشورة " وينبغى ألا يكون له في الأمر المستشار غرض يتابعه، ولا هوى يساعده، فإن الأغراض جاذبة والهوى صاد، والرأى إذا عارضه الهوى وجاذبته الأغراض فسد"(٤).

(٦) التأكيد على أهمية الرأى الجماعى في المشورة:

وذلك لأنه قد يدرك الفرد الأمر من جهة واحدة، فتأتى الجماعة بمشاورتها لتضيف عقلها إلى عقله فيتبين الأمر من كل جهته، يقول الإمام الماوردى " وينبغى أن نكثر من استشارة ذوى الألباب، لاسيما في الأمر الجليل، فقلما يضل عن الجماعة رأى، أو يذهب عنهم الصواب لإرسال الخواطر الثاقبة وإجالة الأفكار الصادقة فلا يعزب عنها ممكن، ولا يخفى عليها جائز وقيل في منثور الحكم: من أكثر المشورة لم يعدم عند الصواب مادحا، وعند الخطأ عاذراً"(٥).

(٧) السلامة من أمراض القلوب:

لأن أمراض القلوب تعمى عن الحق، وتصم عن سماع صوته، فتجعل أهل المشورة لا يذعن كل واحد منهم للحق إذا لاحت معالمه على يد الآخر، يقول الإمام

(١) الطبرانى فى الأوسطعن ابن عباس كنز العمال ٧١٧٩
(٢) أدب الدنيا والدين ص٣٦١ وكذا محاضرات الأدباء ص٧
(٣) أدب الدنيا والدين ص٣٦٢
(٤) المرجع السابق ص٣٦٢ويراجع غرر الخصائص الواضحة
(٥) أدب الدنيا والدين ص٣٦٣

الماوردى " ينبغى أن يسلم أهل الشورى من حسد أو تنافس، فيمنعهم من تسليم الصواب لصاحبه"[١].

(٨) إخلاص السريرة وعدم العجب بالرأى:

لأن هذه أدعى إلى استقامة الرأى وصحة المشورة " فينبغى لمن أنزل منزلة المستشار وأحل محل الناصح المواد حتى صار مأمول النجح، مرجو الصواب، أن يؤدى حق هذه النعمة بإخلاص السريرة، ويكافىء على الاستسلام ببذل النصح فقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم " إن من حق المسلم على المسلم إذا استنصحه أن ينصحه"[٢] وربما أبطرته المشاورة فأعجب برأيه فاحذره في المشاورة فليس للمعجب رأى صحيح ولا روية سليمة وربما شح في الرأى لعداوة أو حسد فورى أو مكر فاحذر العدو ولا تثق بحسود ولا عذر لمن استشاره عدو أو صديق أن يكتم رأياً وقد استرشد، ولا أن يخون وقد اؤتمن.فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " المستشير معان، والمستشار مؤتمن"[٣].

(٩) عدم التبرع بالمشورة إلا فيما لزم:

ومعنى ذلك أن لا يبدى الإنسان رأيه إلا إذا طلب منه ذلك ويتثنى من ذلك حالات الضرورة التى يعظم من وراءها الخطر، يقول الإمام الماوردى " ولا ينبغى أن يشير قبل أن يستشار إلا فيما مس، ولا أن يشرع بالرأى إلا فيما لزم، فإنه لا ينفك من أن يكون رأيه متهما، أو مطرحاوفى أى هذين كان وصمة، وإنما يكون الرأى مقبولاً إذا كان عن رغبة وطلب، أو كان لباعث وسبب"[٤].

(١) المرجع السابق ص٣٦٤ ويراجع الأخلاق والسير ص٤٠ وما بعدها
(٢) الحكيم، والطبرانى وابن النجار عن ابي ايوب كنز العمال٢٤٨٣٩
(٣) أدب الدنيا والدين ص٣٦٥، محاضرات الأدباء ص٨
(٤) أدب الدنيا والدين ص٣٦٦

(١٠) المشاركة في الرأى والنظر فيه:

فينبغى على طالب المشورة أن يعرض ما قاله المستشارون على نفسه، مع مشاركتهم في الارتياء والاجتهاد فإذا تصفح أقاويل جميعهم كشف عن أصولها وأسبابها، وبحث عن نتائجها وعواقبها، حتى لا يكون في الأمر مقلداً، ولا في الرأى مفوضاً، فإنه يستفيد بذلك مع ارتياضه بالاجتهاد ثلاث خصال: إحداهن: معرفة عقله وصحة رويته، والثانية: معرفة عقل صاحبه وصواب رأيه، والثالثة: وضوح ما استعجم من الرأى وافتتاح ما أغلق من الصواب فإذا تقرر له الرأى أمضاه ولا يؤاخذهم بعواقب الإكدار فيه، فإنما على الناصح الاجتهاد، وليس عليه ضمان النجاح لاسيما والمقادير غالبة"[١].

(١١) ثقة المستشير بنفسه:

قد يتوهم البعض قلة الحيلة وضعف الفكر في طالب الاستشاره، وهذا ظن خاطىء فينبغى على المستشير أن يثق بنفسه ويوقن أنه بطلبه المشورة يبغى الوقوف على أصوب الأموروأقومها وأهداها.يقول الإمام الماوردى " ولا ينبغى أن يتصور – المستشير – في نفسه أنه إن شاور في أمره ظهر للناس ضعف رأيه وفساد رويته، حتى افتقر إلى رأى غيره فإن هذه معاذير النوكى[٢]" وليس يراد الرأى للمباهاة به وإنما يراد للانتفاع بنتيجته، والتحرز من الخطأ عند زلله.وكيف يكون عاراً ما أدى إلى صواب وصد عن خطأ..... وقال بعض الحكماء: من كمال عقلك استظهارك على عقلك، وقال بعض البلغاء:إذا أشكلت عليك الأمور وتغير لك الجمهور، فارجع إلى رأى العقلاء، وافزع إلى استشارة العلماء، ولا تأنف من الاسترشاد ولا تستنكف من الاستمداد. فلأن تسأل وتسلم خير لك من أن تستبد وتندم"[٣].

(١) ادب الدنيا والدين ص٣٦٤ ويراجع الأخلاق والسيرة ص٤٥ وما بعدها
(٢) النوكى: الحمقى وهى جمع لأنواك أى الأحمق قال قيس بن الحطيم داء الجسم ملتمس شفاء وداء النوك ليس له شفاء
(٣) أدب الدنيا والدين ص٣٦٣ ومحاضرات الأدباء ص٨

ثالثا:مهنة التعليم

إن المتتبع للدراسات الحديثة الغربية منها والعربية يجدها وقد تناولت أخلاق مهنة التعليم من زاوية واحدة[1]، ألا وهى "المعلم". بيد أن المتصفح لتراثنا الإسلامى يجده وقد تناول أخلاقيات مهنة التعليم بصورة تكاملية من مختلف زواياها.فإذا ما نظرت إلى أى من كتب التراث التى جعلت من السلوك والأخلاق محورا لمادتها تجدها وقد تناولت مهنة التعليم من خلال زواياها المختلفة حيث بينت فضل العلم، وفضل التعليم والتعلم، وأخلاقيات العالِم والمتعلم.... الخ وغير ذلك مما يتعلق بالعملية التعليمية. والآن نوضح ذلك بصورة عملية.

أولاً: فضل العلم:

لقد تناول التراث الإسلامى فضل العلم من خلال صريح المنقول في كتاب الله سبحانه وتعالى، وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، ومأثورات العلماء والنابهين من أبنائه، بل ومن جهة دلالة العقل على فضله ومنزلته، فمن ذلك ما قاله الإمام الماوردى " اعلم أن العلم أشرف ما رغب فيه الراغب، وأفضل ما طلب وجد فيه الطالب وأنفع ما كسبه واكتسبه الكاسب لأن شرفه ينم على صاحبه، وفضله ينمى على طالبه"[2]. أما دلالة النقل على فضله فنجد في سياق ذلك قول الحق سبحانه " قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ " الزمر (٩).فمنع سبحانه وتعالى المساواة بين العالم والجاهل لما خص به العالم من فضيلة العلم، وقال تعالى " وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ " العنكبوت (٤٣) هذا من القرآن، أما السنة فنجد قول النبى صلى الله عليه وسلم " فضل العالم على العابد كفضلى على أدناكم رجلاً"[3] وأما من المأثور فقد قال مصعب بن الزبير لابنه: تعلم العلم فإن يكن لك مالا كان لك جمالا، وإن لم يكن لك مال كان لك مالا. وقال عبد الملك بن مروان لبنيه:يا بنى تعلموا العلم فإن كنتم سادة فقتم، وإن كنتم وسطاً سدتم، وإن كنتم سوقة عشتم. وقال بعض الأدباء: العلم أفضل خلف والعمل به أكمل شرف. وقال بعض البلغاء: تعلم العلم فإنه يقومك ويسددك صغيراً ويقدمك ويسودك كبيراً، ويصلح زيفك وفسادك، ويرغم عدوك وحاسدك، ويقوم عوجك وميلك ويصحح همتك وأملك. وقال ابن المعتز في منثور الحكم:العالم يعرف الجاهل، لأنه كان جاهلاً والجاهل لا يعرف العالم لأنه لم يكن عالماً[4].

أما من جهة العقل فيقول الإمام الغزالى في ذلك " أعظم الأشياء رتبة في حق الآدمى السعادة الأبدية، وأفضل الأشياء ما هو وسيلة إليها ولن يتوصل إليها

(١) ينظر فى ذلك إعلان مكتبالتربية العربى لدول الخليج الذى أقره المؤتمر الثامن الذى انعقد فى الدوحة.
(٢) أدب الدنيا والدين ص٤٩
(٣) رواه الترمزى كنز العمال ٢٨٧٤٠
(٤) أدب الدنيا والدين ص٥٠، ٤٩

إلا بالعلم والعمل، ولا يتوصل إلى العمل إلا بالعلم بكيفية العمل، فأصل السعادة في الدنيا والآخرة هو العلم فهو إذاً أفضل الأعمال، وكيف وقد تعرف فضيلة الشيء أيضاً بشرف ثمرته، وثمرة العلم القرب من رب العالمين والالتحاق بأفق الملائكة، هذا بالآخرة، وأما في الدنيا فالعز والوقار ولزوم الاحترام في الطباع"[١]، واحترام الطباع معناها سير الإنسان بالتي هى أقوم في كل شيء في حياته.ويقول ابن حزم " لو لم يكن من فضل العلم إلا أن الجهال يهابونك ويجلونك، وأن العلماء يحبونك ويكرمونك لكان ذلك سبباً إلى وجود طلبه، فكيف بسائر فضائله في الدنيا والآخره!

ولو لم يكن من نقص الجهل إلا أن صاحبه يحسد العلماء ويغبط نظراءه من الجهال، لكان ذلك سبباً إلى وجود الفرار عنه، فكيف بسائر رزائله في الدنيا والآخرة"[٢] من هذا يتبين لنا مدى اهتمام التراث الإسلامى ببيان فضل العلم، ويمكن أن نعلل ذلك بأن:

١- صلاح المجتمعات وقوام نهضتها لا سبيل إليها إلا بالعلم لذا اهتم به الإسلام.

٢- أن قوام الكفاءة التى هى سبيل تقلد المهن والمناصب مرجعه إلى العلم، فإذا ما عدم العلم زالت الكفاءة وإذا ما زالت الكفاءة انعدمت الأهلية للوظيفة والمنصب.ومما ينبغى استحضاره في هذا المقام أن أفضل العلم هو ما دعت حاجة المجتمع إليه.ويكون في هذه الحالة فرض عين.يقول الإمام الغزالى " العلم الذى هو فرض عين هو العلم بكيفية العمل الواجب، فمن علم العلم الواجب ووقت وجوبه فقد علم العلم الذى هو فرض عين.."[٣].

ثانياً: فضيلة التعلم وطلبه:

لقد عمل الإسلام على إزالة الجهل فحث اتباعه على التعلم، يقول سبحانه " فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي الدِّينِ " التوبة (١٢٢). ويقول تعالى " فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ " النحل (٤٣).فكل إنسان في مجال تخصصه المهنى هو من أهل الذكر.يقول النبى صلى الله عليه وسلم " من سلك طريقاً يطلب فيه علماً سلك الله به طريقاً إلى الجنة"[٤] ويقول صلى الله عليه وسلم " إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضاء بما يصنع"[٥]، ويقول صفوان بن عسال المرادى "أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت يا رسول الله "إنى جئت أطلب العلم فقال:مرحباً يا طالب العلم، إن طالب العلم لتحفه الملائكة وتظله

(١) إحياء علوم الدين ج١ ص١٩ وكذا الإمام الغزالى الرسالة اللدنيةص١٩٨
(٢) الأخلاق والسير ص٢١
(٣) إحياء علوم الدين ج١ ص٢٠
(٤) رواه الإمام مسلم عن ابى هريرة ٢٦٩٩
(٥) اخرجه احمد كنز العمال ٢٥٧٤٨وابن حيان والحاكم وصححه

بأجنحتها، ثم يركب بعضهم بعضاً حتى يبلغوا سماء الدنيا من حبهم لما يطلب"[١].
وروى عن معاذ بن جبل أنه قال " تعلموا العلم فإن تعلمه لله خشية، وطلبه عبادة، ومدارسته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وتعليمه من لا يعلم صدقة، وبذله لأهله قربة..."[٢]. ويقول أبو الدرداء رضى الله عنه" لأن أتعلم مسألة أحب إلى من قيام ليلة "، وقال أيضاً كن عالماً أو متعلماً أو مستمعاً ولا تكن الرابع فتهلك "ويقول الإمام الشافعى " طلب العلم أفضل من النافلة"[٣]، وعن فائدة تعلم العلم وطلبه يقول الإمام ابن حزم " لو لم يكن من فائدة العلم والاشتغال به إلا أنه يقطع المشتغل به عن الوساوس المضنية، ومطارح الآمال التى لا تفيد غير الهم وكفاية الأذكار المؤلمة للنفس، لكان ذلك أعظم داع إليه، فكيف وله من الفضائل ما يطول ذكره"[٤].

وهكذا بين الإسلام فضل التعلم ليجد الإنسان في طلب العلم رافعا حرج الجهل عن نفسه.

(١) رواه احمد والطبرانى باسناد جيد وابن حيان والحاكم وقال صحيح الاسناد ووافقه الذهبى ج١ ص١٠
(٢) رواه ابو نعيم والخطيب كنز العمال ٢٨٨٦٧
(٣) إحياء علوم الدين ج١ ص١٦
(٤) الأخلاق والسير ص٢١

ثالثاً:أدب المتعلم وأخلاقه:

إن طالب العلم هو محور العملية التعليمية، وهو معلم المستقبل من أجل ذلك اهتم الإسلام بتهذيب أخلاقه متعلماً، ليؤهله بذلك أن يكون معلما. وليخرج في تخصصه المهنى على خير حال من الأدب والأخلاق والدين. ومن ثم حرص الإسلام فيما تواتر من تراثه بتحلية المتعلم بعدد من الآداب والأخلاقيات التى تعينه على الوصول إلى ذلك منها:

١- إخلاص النية:

ومن خلال ذلك ينبغى على من طلب علما أن يقصد بذلك وجه الله سبحانه وتعالى، وتهذيب نفسه وتحليتها بالفضائل، ورفع الجهل عنها بتجميلها بالعلم والأدب، يقول الإمام الغزالى في حديثه عما يجب أن يتحلى به المتعلم " أن يكون قصد المتعلم في الحال تحلية باطنه وتجميله بالفضيلة وفى المآل القرب من الله سبحانه، ولا يقصد به الرياسة والمال والجاه ومماراه السفهاء ومباهاة الأقران "[١] ويقول الإمام الآجرى" فمن صفته لإرادته في طلب العلم.... أن يعلم أن العلم فريضة عليه، ويعلم أن المؤمن لا يحسن به الجهل فليطلب العلم لينفى عن نفسه الجهل... معتقداً الإخلاص في سعيه و ألا يرى لنفسه الفضل في سعيه، بل يرى لله – عز وجل – الفضل عليه..."[٢]. ويقول الإمام الماوردى في شأن طالب العلم وما ينبغى أن يكون عليه من تصفية نفسه لمطلوبه قاصداً بذلك وجه الله تعالى." ويقصد طلب العلم واثقاً بتيسير الله تعال، قاصداً وجه الله تعالى بنية خالصة، وعزيمة صادقة... وليحذر أن يطلبه لمراء أو رياء، فإن الممارى به مهجور لا ينتفع، والمرائى به محقور لا يرتفع... واعلم أن لكل مطلوب باعثاً والباعث على المطلوب شيئان: رغبة أو رهبة، فليكن طالب العلم راغباً راهباً.أما الرغبة ففى ثواب الله تعالى لطالب مرضاته وحافظى مفترضاته. وأما الرهبة فمن عقاب الله تعالى لتاركى أوامره ومهملى زواجره – فإذا اجتمعت الرغبة والرهبة أدتا إلى كنه العلم وحقيقة الزهد، فالرغبة أقوى الباعثين على العلم"[٣]، ويستشهد الإمام الماوردى على كلامه السابق بجملة من الآثار الواردة عن النبى صلى الله عليه وسلم منها قوله صلى الله عليه وسلم " من تعلم علماً لغير الله وأراد به غير الله فليتبوأ مقعده من النار"[٤]، وقوله صلى الله عليه وسلم " لا تعلَموا العلم لتماروا به السفهاء، ولا تعلموا العلم لتجادلوا به العلماء، فمن فعل ذلك منكم فالنار مثواه"[٥].

(٢) أن يتحلى بجميل الأخلاق حال مشيه لطلب العلم:

(١) إحياء علوم الدين ج١ ص٥٤ ويراجع رسالة أيها الولد مجموع القصور العوالى ص١٦٤
(٢) أخلاق العلماء ص٥٠
(٣) أدب الدنيا والدين ص٦٤
(٤) رواه الترمذى رقم ٢٦٥٥
(٥) أخرجه ابن ماجه، وابن حبان عن جابر كنز العمال ٢٩٠٣٣

لأنه بهذا يعرف للعلم قدره ومنزلته، وبهذا يظهر ما أثمره العلم في سلوكه من تربية وتهذيب.يقول الإمام الآجرى في ذكره لصفة طالب العلم حال مشيه إلى العلماء " يمشى برفق، وحلم، ووقار، وأدب، مكتسبا في مشيه كل خير.تارة يحدث نفسه بنعم الله –عز وجل – عليه ويقتضى منها الشكر، ويستعيذ بالله من شر سمعه، وبصره، ولسانه، ونفسه، وشيطانه"[1].

(٣) أن يتخير الصحبة الطيبة التى تعينه على صلاح حاله:

فطالب العلم وملتمس الفضيلة ينبغى عليه أن يصاحب من يشد من أزره ويساعده على الوصول إلى غايته.وكل يصاحب من هو على شاكلته، يقول ابن حزم " من طلب الفضائل لم يساير إلا أهلها، ولم يرافق في تلك الطريق إلا أكرم صديق من أهل المواساة والبر، والصدق، وكرم العشيرة، والصبر، والوفاء، والأمانة، والحلم، وصفاء الضمائر وصحة المودة"[2]، ويقول الآجرى في حق طالب العلم وما يجب عليه أن يلتمس من صحبه " فإن بلى –طالب العلم- بمصاحبة الناس في طريقه، لم يصاحب إلا من يعود عليه نفعه. وقد أقام الأصحاب مقام ثلاثة: إما رجل يتعلم منه خيراً إن كان أعلم منه، أو رجل هو مثله في العلم فيذاكره العلم لئلا ينسى مالا ينبغى أن ينساه، أو رجل هو أعلم منه فيعلمه ما يريد الله عز وجل بتعليمه إياه لا يمل من صاحبه لكثرة صحبه، بل يحب ذلك لما يعود عليه من بركته"[3].

(١) أخلاق العلماء ص٥٠
(٢) الأخلاق والسير ص٢٤
(٣) أخلاق العلماء ص٥٠

(٣) ضبط العلم بميزان الشرع:

وهذا أمر مطلوب في كافة العلوم لأنه ينعكس على السلوك المهنى للإنسان وما ضل الناس في مهنهم وحرفهم إلا حين تخلو عن مراد الشرع، وأمره ونهيه فيها، يقول الإمام الغزالى فيما بثه لتلميذه " أيها الولد ينبغى أن يكون قولك وفعلك موافقاً للشرع إذ العلم والعمل بلا اقتداء الشرع ضلاله"[١].

(٤) بذل الجهد مع طلب التوفيق من الله:

فينبغى على طالب العلم أن يبذل جهده مع عدم ركونه كلية إليه، بل يبذل الجهد بطلب التوفيق من الله سبحانه وتعالى، يقول الإمام الغزالى "أيها الولد ما لم تعمل لم تجد الأجر " قال على رضى الله عنه " من ظن أنه بدون الجهد يصل فهو ممتن، ومن ظن أنه ببذل الجهد يصل فهو مستغن"[٢].

(٥) أن يأخذ العلم من المشهور وغير المشهور من العلماء:

وبهذا يعلم طالب العلم أن الحكمة ضالته فأنى وجدها كان أحق بها، فلا يفرق في طلبها بين عالم زاع صيته وآخر جانبه ذلك، يقول الإمام الماوردى " وليأخذ المتعلم حظه ممن وجد طلبته عنده من نبيه وخامل، ولا يطلب الصيت وحسن الذكر باتباع أهل المنازل من العلماء إذا كان النفع بغيرهم أعم إلا أن يستوى النفعان، فيكون الأخذ عمن اشتهر ذكره وارتفع قدره أولى، لأن الانتساب إليه أجمل والأخذ عنه أشهر"[٣].

(٦) طهارة النفس عن مذموم الأخلاق:

وهذا أدب يجب أن يتحلى به طالب العلم فيطهر نفسه عن أمراضها، يقول الإمام الغزالى " ومن أدب المتعلم تقديم طهارة النفس عن رزائل الأخلاق ومذموم الأوصاف إذ العلم عبادة القلب وصلاة السر وقربة الباطن إلى الله تعالى، وكما لا تصح الصلاة التى هى وظيفة الجوارح الظاهرة إلا بتطهير الظاهر عن الأحداث والأخباث، فكذلك لا تصح عبادة الباطن وعمارة القلب بالعلم إلا بعد طهارته عن خبائث الأخلاق وأنجاس الأوصاف"[٤].

(٧) أن يقتدى بمعلمه ويتشبه به:

فالاقتداء بالاخيار والصالحين فلاح، يؤدى بصاحبه إلى السير على دربهم عله أن يكون يوماً بين صنوفهم وصفوفهم.يقول الإمام الماوردى في حديثه عن

(١) رسالة أيها الولد ص١٦٧
(٢) المرجع السابق ص١٦٣
(٣) أدب الدنيا والدين ص٩٨
(٤) إحياء علوم الدين ج١ ص٥٠

أدب طالب العلم " وليكن مقتدياً بهم في أخلاقهم، متشبهاً بهم في جميع أفعالهم، ليصير لهم آلفا، وعليها ناشئا، ولما خالفها مجانبا"[١].

ويؤيد الإمام الماوردى كلامه السابق بما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم من قوله " من تشبه بقوم فهو منهم"[٢].

(٨) أن يتودد إلى معلمه:

إذ إن التودد للمعلم يورث القرب منه وهذا أدعى لتحصيل العلم والوقوف عليه.يقول الإمام الماوردى "اعلم أن للمتعلم تملقاً وتذللاً فإن استعملها غنم، وإن تركها حرم، لأن التملق للعالم يظهر مكنون علمه، والتذلل له سبب لإدامة صبره، وبإظهار مكنونه تكون الفائدة وباستدامة صبره يكون الإكثار"[٣]، ويعضد الإمام الماوردى قوله بعدد من الآثار منها: ما روى عن عبد الله بن عباس رضى الله عنه: "ذللت طالبا فعززت مطلوباً "، وقال بعض الحكماء " من لم يحتمل ذل التعلم ساعة بقى في ذل الجهل أبدا"[٤].

(٩) أن يشكر لمعلمه جميل فعله:

وهذا أدب من شأنه أن يربى طالب العلم على الاعتراف بالفضل وشكر الجميل لمن أحسن إليه، يقول الإمام الماوردى في حق أدب طالب العلم " وليعرف له فضل علمه، وليشكر له جميل فعله " فقد قال على بن أبى طالب رضى الله عنه " لا يعرف فضل أهل العلم إلا أهل الفضل " ولا يمنعه من ذلك علو منزلة إن كانت له، وإن كان العالم خاملاً فإن العلماء بعلمهم قد استحقوا التعظيم، لا بالقدرة والمال"[٥].

(١٠) أن يحذر مجاوزة الحد مع أستاذه:

قد يجد المتعلم نفسه قريباً من أستاذه أو قديم عهد بصحبته، فيحمله ذلك على مجاوزة الحد مع معلمه وأستاذه وهذا أمر لا يليق.من أجل هذا كان من أدب المتعلم مراعاة تلك الحال حتى لا يقع في شيء يخل بأدب الصحبة أو التعلم، يقول الإمام الماوردى " وليحذر المتعلم البسط على من يعلمه وإن آنسه، والإدلال عليه وإن تقدمت صحبته"[٦]. ويقول الإمام الآجرى في حديثه عن جملة من الأخلاق التى يجب أن يتحلى التلميذ بها مع معلمه" فإذا أحب مجالسة العلماء جالسهم بأدب، وتواضع في نفسه وخفض صوته عند صوتهم وسألهم بخضوع... ويخبرهم أنه فقير إلى علم ما يسأل عنه فإن استفاد منهم علماً أعلمهم: أنى قد أفدت خيراً كثيراً،

(١) أدب الدنيا والدين ص٩٤
(٢) رواه الإمام أحمد والطبرانى عن ابن عمر كنز العمال ١٠٥٢٨
(٣) أدب الدنيا والدين ص٩٣
(٤) أدب الدنيا والدين ص٩٣
(٥) المرجع السابق ص٩٤، ٩٣
(٦) المرجع السابق ص٩٤

ثم شكرهم على ذلك، وإن غضبوا عليه لم يغضب عليهم، ونظر إلى السبب الذى من أجله غضبوا عليه، فرجع عنه واعتذر إليهم، لا يضجرهم في السؤال، رفيق في جميع أموره، لا يناظرهم مناظرة من يريهم أنى أعلم منكم. وإنما همته البحث لطلب الفائدة منهم، مع حسن التلطف لهم لا يجادل العلماء ولا يمارى السفهاء"[١].

(١١) عدم إظهار كفايته بنفسه، واستغنائه عن معلمه:

ففعل ذلك إساءة للأدب ونكران للجميل، وهذا مما لا ينبغى أن يدرج طالب علم عليه، يقول الإمام الماوردى" ولا يظهر لمعلمه الاستكفاء منه والاستغناء عنه فإن في ذلك كفراً لنعمته، واستخفافاً بحقه. وربما وجد بعض المتعلمين قوة في نفسه لجودة ذكائه وحدة خاطره فقصد من تعلمه الإعنات له والاعتراض عليه، إزراءً به، وتبكيتاً له فيكون كمن تقدم فيه المثل السائر لأبى البطحاء:

أعلمه الرماية كل يوم فلما اشتد ساعده رمانى

وهذه من مصائب العلماء وانعكاس حظوظهم أن يصيروا عند من يعلمونه مستجهلين، وعند من قدموه مسترزلين"[٢]، ويقول ابن حزم " إذا حضرت مجلس علم فلا يكن حضورك إلا حضور مستزيد علما وأجراً لا حضور مستغن بما عندك، طالباً عثرة تشيعها، أو غريبة تشنعها فهذه أفعال الأرزال الذين لا يفلحون في العلم أبداً"[٣].

(١٢) أن لا يستحى من إعلان عدم فهمه:

لأنه بهذا يحصل العلم ويرفع الجهل.يقول الإمام الماوردى " ينبغى لطالب العلم أن يكشف عن الأسباب المانعة عن فهم المعنى ليسهل عليه الوصول إليه"[٤].

(١٣) أن يتبين ما استغلق عليه بالسؤال عنه:

إذ السؤال مفتاح التعلم، ومن ترك السؤال عما استغلق عليه بقى في عمى الجهل والضلال.يقول الإمام الماوردى " وليس كثرة السؤال فيما التبس إعناتاً ولا قبول ما صح في النفس تقليداً " وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال " العلم خزائن، ومفتاحها السؤال، فاسألوا رحمكم الله، فإنما يؤجر في العلم ثلاثة القائل، والمستمع والآخذ"[٥]، وقال صلى الله عليه وسلم"ألا سالوا اذا لم يعلموا فانما شفاء العي السؤال"[٦]، فأمر بالسؤال والحث عليه..... وإذا كان السؤال في

(١) أخلاق العلماء ص٥٢
(٢) ادب الدنيا والدين ص٩٥
(٣) الأخلاق والسير ص٩٢
(٤) أدب الدنيا والدين ص٨٩
(٥) أبو نعيم فى الحلية عن على ٢٨٦٦٢
(٦) رواه أبودود عن جابر ٣٣٢

موضعه أزال الشكوك ونفى الشبهة، وقد قيل لابن عباس رضى الله عنهما: بم نلت هذا العلم؟ قال: بلسان سئول وقلب عقول"[1].

(١٤) أن يَقصِد بسؤاله التعلم:

وهذا أدب يجب مراعاته فإذا كان السؤال هو هو السبيل إلى العلم وإزالة للجهل فليكن مقصد السائل طلب التعلم والإفادة بسؤاله لا إعنات معلمه واختبار علمه، يقول ابن حزم " وليسأل سؤال المتعلم ليحصل على استزادة العلم، وصفة سؤال المتعلم أن تسأل عما لا تدرى لا عما تدرى، فإن السؤال عما تدريه سخف، وقلة عقل، وشغل لكلامك، وقطع لزمانك بما لا فائدة فيه لا لك ولا لغيرك وربما أدى إلى اكتساب العداوات، وهو-بعد- عين الفضول.فيجب عليك أن لاتكون فضوليا فإنها صفة سوء، فإن أجابك الذى سألت بما فيه كفاية لك، فاقطع الكلام، وإن لم يجبك بما فيه كفاية أو أجابك بما لم تفهم، فقل له لم أفهم واستزده، فإن لم يزدك بياناً وسكت، أو أعاد عليك الكلام الأول ولا مزيد فأمسك.وإلا حصلت على الشر والعداوة، ولم تحصل على ما تريد من الزيادة"[2].

(١٥) أن يطلب الحق بدليله:

وهذه صفة يجب أن يتجمل بها طالب العلم لئلا يقبل شبهة عن تقليد، أو يصل بمعلمه إلى غلو غير مقبول. يقول الإمام الماوردى " ولا ينبغى له أن يبعثه معرفة الحق له على قبول الشبهة منه، ولا يدعوه ترك الإعنات له على التقليد فيما أخذ عنه، فإنه ربما غلا بعض الأتباع في عالمهم حتى يروا أن قوله دليل وإن لم يستدل، وأن اعتقاده حجة وإن لم يحتج فيفضى بهم الأمر إلى التسليم له فيما أخذوا منه، فلا يبعد أن تبطل تلك المقالة إن انفردت، أو يخرج أهلها من عداد العلماء فيما شاركت، لأنه قد يرى لهم من يأخذ عنهم ما كانوا يرونه لمن أخذ عنه، فيطالبهم بما قصروا فيه فيضعفوا عن إبانته، ويعجزوا عن نصرته، فيذهبوا ضائعين، ويصيروا عجزة مضعوفين. ولقد رأيت من هذه الطبقة رجلاً يناظر في مجلس حفل، وقد استدل عليه الخصم بدلالة صحيحة فكان جوابه عنها أن قال: إن هذه دلالة فاسدة، وجه فسادها أن شيخى لم يذكرها، وما لم يذكره الشيخ لا خير فيه. فأمسك عنه المستدل تعجباً، ولأن شيخه كان محتشما وقد حضرت طائفة يرون فيه مثل ما أرى هذا الجاهل، ثم أقبل المستدل علىَ وقال لى: والله لقد افحمنى بجهله، وصار سائر الناس المبرئين من هذه الجهالة ما بين مستهزىء ومتعجب ومستعيذ بالله من جهل مُغرِب فهل رأيت كذلك عالماً أوغل في الجهل وأدل على قلة العقل، وإذا كان المتعلم معتدل الرأى فيمن يأخذ عنه، متوسط الاعتقاد فيمن يتعلم منه حتى لا يحمله الإعنات على اعتراض المبكتين، ولا يبعثه الغلو على تسليم المقلدين،

(١) أدب الدنيا والدين ص٩٧
(٢) الأخلاق والسير ص٩٣

برىء المتعلم من المذمتين، وسلم العالم من الجهتين"[١]، ويقول الإمام الغزالى " اعرف الحق بالحق، ولا تعرف الحق بالرجال".

(١٦) أن يحذر في بداية أمره أن يتعرض لما اختلف الناس فيه:

وهذا الأمر في كل تخصص يطلبه انسان لأنه في هذه الحالة سيشتت ذهنه ويذبذب عقله لأنه تعرض لأمر لا طاقة له به، يقول الإمام الغزالى " يجب أن يحترز الخائض في العلم في مبدأ الأمر عن الإصغاء إلى اختلاف الناس، سواء كان ما خاض فيه من علوم الدنيا أو من علوم الآخرة:فإن ذلك يدهش عقله ويحير ذهنه ويفتر رأيه ويؤيسه عن الإدراك والاطلاع بل ينبغى أولاً أن يتقن الطريق الحميدة الواحدة المرضية عند أستاذه، ثم بعد ذلك يصغى إلى المذاهب والشبه....."[٢].

(١٧) التدرج والترتيب في مدارسة العلوم:

وهذا أمر من الأهمية بمكان لطالب العلم، فمن خلاله يراعى الترتيب بين العلوم في تخصصه المهنى فلا يرتقى إلى علم إلا إذا حصل ما أدى إليه من العلوم، وإلا كان كمن أراد أن يصعد على السطح دون الترقى على الدرج فسقط في منتصف الطريق، يقول الإمام الغزالى " ولا يخوص المتعلم في فن حتى يستوفى الفن الذى قبله، فإن العلوم مرتبة ترتيباً ضرورياً وبعضها طريق إلى بعض، والموفق من راعى ذلك الترتيب والتدرج، فلا يجاوز فناً حتى يحكمه علماً وعملاً، وليكن قصده في كل علم يتحراه الترقى إلى ما هو فوقه "[٣].

(١٨)أن لا يحكم على علم بالفساد لوقوع خطأ من أصحابه أو خلف بينهم:

ومن خلال هذا الصفة يربى طالب العلم على الموضوعية في مدارسة العلوم وطلبها، فلا يعادى علماً لوقوع خطأ فيه من أصحابه، أو وجود خلف فيما بينهم، بل يجب عليه أن يحكم على العلم من خلال ذاتيته ومفرداته.يقول الإمام الغزالى " ينبغى على طالب العلم أن لا يحكم على علم بالفساد لوقوع الخلف بين أصحابه فيه ولا بخطأ واحد أو آحاد فيه ولا بمخالفتهم موجب عليهم بالعمل، فترى جماعة تركوا النظر في العقليات والفقهيات متعللين فيها بأنها لو كان لها أصل لأدركه أربابها.وترى طائفة يعتقدون بطلان الطب لخطأ شاهدوه من طبيب، وطائفة اعتقدوا صحة النجوم لصواب اتفق لواحد، وطائفة اعتقدوا بطلانه لخطأ اتفق لآخر والكل خطأ، بل ينبغى أن يعرف الشيء في نفسه، فلا كل علم يستقل بالإحاطة به كل شخص، ولذاك قال على رضى الله عنه: لا تعرف الحق بالرجال.أعرف الحق تعرف أهله"[٤].

(١) أدب الدنيا والدين ص٩٦
(٢) إحياء علوم الدين ج١ ص٥٢
(٣) إحياء علوم الدين ج١ ص٥٢
(٤) احياء علوم الدين ص٥٣

(١٩) أن يلم من كل فن بطرف:

ومعنى هذا أن أن تتشكل عقلية طالب العلم بثروة ثقافية من خلالها يلم بشيء عن كل شيء وهذا سمت العلماء والنابهين.يقول الإمام الغزالى " أن لا يدع طالب العلم فناً من العلوم المحمودة ولا نوعاً من أنواعه إلا وينظر فيه نظراً يطلع به على مقصده وغايته، ثم إن ساعده العمر طلب التبحر فيه وإلا اشتغل بالأهم منه واستوفاه وتطرف من البقية، فإن العلوم متعاونة وبعضها مرتبط ببعض، ويستفيد منه في الحال الانفكاك عن عداوة ذلك العلم بسبب جهله، فإن الناس أعداء ما جهلوا"[١]. وهذه دعوة إلى التكاملية العلمية التى هى أساس تقدم العلوم في العصر الحديث.

(٢٠) أن يتعهد ما تيسر له من علم فينميه ويجوده:

وذلك لكى يحسن منه الآداء بعد الأخذ عن العلماء، يقول الإمام الماوردى " وإذا قرب منك العلم فلا تطلب ما بعد، وإذا سهل من وجه فلا تطلب ما صعب.وإذا حمدت من خبرته فلا تطلب من لم تختبره، فإن العدول عن القريب إلى البعيد عناء، وترك الأسهل بالأصعب بلاء، والانتقال من المخبور إلى غيره خطر" قال بعض الحكماء " القصد أسهل من التعسف والكف أودع من التكلف، وربما تتبع نفس الإنسان من بعد عنه استهانة بمن قرب منه، وطلب ما صعب احتقاراً لما سهل عليه، وانتقل إلى من لم يخبره ملاً لمن خبره فلا يدرك محبوباً ولا يظفر بطائل "[٢].

(٢١) التفرغ لطلب العلم:

والتفرغ لطلب العلم أدعى إلى حسن التحصيل، وحسن القيام بأعباء هذه المرحلة، إذ إنها مرحلة بناء للعقل ولن يبنى عقل بعلم سليم وقد داهمته الشواغل وتوزعت به الأهواء، يقول الإمام الغزالى " ومن صفات طالب العلم أن يقلل علائقه من الاشتغال بالدنيا... فإن العلائق شاغلة وصارفه " مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ " الأحزاب (٤).

ومهما توزعت الفكرة قصرت عن درك الحقائق ولذلك قيل " العلم لا يعطيك بعضه حتى تعطيه كلك، فإذا أعطيته كلك فأنت من إعطائه إياك بعضه على خطر " والفكرة المتوزعة على أمور متفرقة كجدول تفرق ماؤه فنشفت الأرض بعضه واختطف الهواء بعضه فلا يبقى منه ما يجتمع ويبلغ المزدرع "[٣].

(١) الإحياء ج١ ص٥٢
(٢) أدب الدنيا والدين ص٩٨
(٣) إحياء علوم الدين ج١ ص٥١

وهكذا تناول التراث الإسلامى أدب المتعلم من حيث ذاته، ومن حيث علاقته معلمه، وعلاقته بأقرانه، وعلاقته بعلمه ووتنمية أخلاقه أملاً في أن يثمر ذلك عالماً تفاخر بعلمه الأمة وينتفع به الناس خلقا وعلما.

رابعاً:فضل التعليم وبذله للناس:

إن مهنة التعليم من أجل المهن التى يمكن أن يمتهنها الإنسان لأن صاحبها يرفع الجهل عن مجتمعه، ويبث فيهم ما يحتاجون في أمور الدنيا والآخرة في مختلف المهن والصناعات. ومن خلالها يقوى المجتمع المسلم ويستغنى بما فيه من علم عن غيره من المجتمعات التى يمكن أن تتحكم في مصيره ومقدراته. و لعظم شرف هذه المهنة وجدنا الحث عليها من الكتاب والسنة وآثار العلماء وشواهد العقل التى مر جانب منها، أما الكتاب فنجد قول الله سبحانه وتعالى " وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُواْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ " التوبة (١٢٢). والمراد هنا التعليم والارشاد، وقوله تعالى " وَإِذْ أَخَذَ اللّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلاَ تَكْتُمُونَهُ" آل عمران (١٨٧). وفى هذا دليل على إيجاد التعليم وبذله للناس.وفي تحريم كتم العلم نجد قول الحق سبحانه " الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءهُمْ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ " البقرة (١٤٧، ١٤٦). ونجد قول الحق سبحانه" إِنَّمَا يَخْشَى اللّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ" فاطر (٢٨).أى مطلق العلماء وإن كان الأولى بالخشية هنا ممتهنوا العلوم المادية لأنهم رأوا قدرة الله بأعينهم. وقوله سبحانه " يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاء وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ " البقرة (٢٦٩). وقوله تعالى " وَلَـكِن كُونُواْ رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ" آل عمران (٧٩). أما من السنة فنجد قول النبى صلى الله عليه وسلم " فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، وإن العلماء لهم ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً ولكنهم ورثوا العلم، فمن أخذه فقد أخذ بحظ وافر "١ويقول صلى الله عليه وسلم " إن مثل العلماء في الأرض كمثل نجوم السماء يهتدى بها في ظلمات البر والبحر فإذا انطمست النجوم يوشك أن تضل الهداة"(٢). وهذا ينسحب على كل علم في كل مجال وتخصص، ويقول صلى الله عليه وسلم " ما أتى الله عالماً علماً إلا وأخذ عليه من الميثاق ما أخذ على النبيين أن يبينوه للناس ولا يكتموه"(٣). ويقول صلى الله عليه وسلم " من علم علماً فكتمه ألجمه الله بلجام من نار يوم القيامة"(٤). وقال صلى الله عليه وسلم " إن الله سبحانه وملائكته وأهل سماواته وأرضه حتى النملة في حجرها وحتى الحوت في البحر ليصلون على معلم الناس الخير"(٥). ويقول صلى الله عليه وسلم " إن الله لا يقبض

(١) الخطيب الفقيه والمتفقه ج١ ص١٧ طـ م أنس بن مالك
(٢) المرجع السابق ج١ ص٧
(٣) أخرجه أبو نعيم عن ابن مسعود فى خصل العالم العفيف
(٤) رواه أبو داوود والترمذى وابن ماجة وابن حيان والحاكم وصححه.
(٥) أخرجه الترمذى وقال حسن صحيح

العلم انتزاعاً ينتزعه من الناس ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتى إذا لم يترك عالماً اتخذ الناس رؤساً جهالاً فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلو"[1]. ويقول صلى الله عليه وسلم " إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث علم ينتفع به..... "[2] إلى آخر الحديث، أما الآثار فقد أخبر عطاء بن محمد الحرانى عن بعض أصحابه قال، قال كعب " عليكم بالعلم قبل ان يذهب فإن ذهاب العلم موت أهله، موت العالم نجم طمس، موت العالم كسر لا يجبر وثلمة لا تسد" وروى أن سفيان الثورى رحمه الله قدم عسقلان فمكث لا يسأله إنسان فقال اكروا لى لأخرج من هذا البلد، هذا بلد يموت فيه العلم. وإنما قال ذلك حرصاً على فضيلة التعليم واستبقاء العلم به. وفى تخير المواهب القادرة على حمل العلوم في شتى التخصصات، يقول عكرمة " إن لهذا العلم ثمناً قيل وما هو ؟ قال:أن تضعه فيمن يحسن حمله ولا يضيعه "[3].

(١) رواه الإمام مسلم كتاب العلم
(٢) رواه مسلم عن ابى هريرة
(٣) يراجع إحياء علوم الدين ج١ ص١٩ وكذا أخلاق العلماء ص٣٠ وما بعدها

خامساً:أدب العالم وأخلاقه:

إذا كان قد تبين فضل المعلم وفضل ما يبذله، فإنه كى يكون أهلاً لهذا الفضل لا بد أن يتحلى بعدد من الآداب والصفات والأخلاقيات التى تليق به وبما يحمله من علم. من هذه الأخلاقيات:

(١) الكفاءة:

لأنه من خلالها يكون أهلاً لبذل العلم للناس وتعليمهم إياه. أما أدعياء العلم فهم أشد ما يكون خطراً على العلم وطلابه بل وعلى مقدرات الأمة بأسرها، يقول ابن حزم " لا آفة على العلوم وأهلها أضر من الدخلاء فيها وهم من غير أهلها، فإنهم يجهلون، ويظنون أنهم يعلمون، ويفسدون، ويقدرون أنهم يصلحون"(١).

(٢) التواضع:

ويعد من أهم صفات العلماء وآدابهم فبه يبسط علمه لكافة الناس، وبه يستمع للآخرين ويقبل صواب آرائهم مما لم يهتدى إليه، وبه يعرف خطأ نفسه وما قصر فيه من علمه، وبه يتقرب لتلاميذه وطلابه فيرغبون تلقى العلم على يديه. يقول الإمام الماوردى " فأما ما يجب أن يكون عليه العلماء من الأخلاق التى بهم أليق ولهم ألزم، فالتواضع ويجانبه العجب، لأن التواضع عطوف والعجب منفر، وهو بكل أحد قبيح وبالعلماء أقبح، لأن الناس بهم يقتدون، وكثيراً ما يداخلهم الإعجاب لتوحدهم بفضيلة العلم، ولو أنهم نظروا حق النظر وعملوا بموجب العلم لكان التواضع بهم أولى، ومجانبة العجب بهم أحرى لأن العجب نقص ينافى الفضل "٢، ويدل على ما تقدم قول النبى صلى الله عليه وسلم"ليس بالخير أن يقضي العبد القول بلسانه والعجب في قلبه"٣ وقول النبى صلى الله عليه وسلم" إن العجب ليحبط عمل سبعين سنة."٤وعلة ذلك أنه لا يفى ما أدركوه من من فضيلة العلم بما لحقهم من نقص العجب والكبر. ويقول عمر بن الخطاب رضى الله عنه " تعلموا العلم وتعلموا للعلم السكينة والحلم، وتواضعوا لمن تعلَمون منه، وليتواضع لكم من تعلمونه، ولا تكونوا من جبابرة العلماء فلا يقوم علمكم بجهلكم " ويقول بعض السلف " من تكبر بكلمة وترفع وضعه الله به، ومن تواضع بعلمه رفعه الله به " ويقول الإمام الآجرى في حديثه عن التواضع كسمت للعلماء يجب عليهم لجميع خلق الله " فإذا نشر الله له –للعالم- عند المؤمنين أنه من أهل العلم واحتاج الناس إلى ما عنده من علم ألزم نفسه التواضع للعالم وغير العالم. فأما تواضعه لمن هو مثله في العلم، فإنها محبة كتبت له في قلوبهم وأحبوا قربه، وإذا غاب عنهم حنت

(١) الأخلاق والسير ص٢٣
(٢) أدب الدنيا والدين ص٩٩
(٣) رواه الدراقطنى عن ابن عباس كنز العمال ٧٦٧٤
(٤) الفردوس للديلمى كنز العمال ٧٦٩٦

إليه قلوبهم.وأما تواضعه للعلماء فواجب عليه إذا أراد العلم ذلك وأما تواضعه لمن هو دونه في العلم فشرف العلم له عند الله وعند أولى الألباب"(١).

(٣) أن يقصد بتعليمه وجه الله تعالى:

وهذا الخلق أدعى إلى القضاء على أمراض القلوب من حسد ومباهاة....الخ وأدعى إلى قطع شبهة الاستغلال عن العلم، يقول الإمام الماوردى " ومن آدابهم أن يقصدوا وجه الله بتعليم من علموا ويطلبوا ثوابه بإرشاد من أرشدوا "[٢]،ويقول في موضع آخر في حديث له عن ما يعود على العالم من نفع من جراء تعليمه" ثم له بالتعليم نفعان أحدهما:ما يرجوه من ثواب الله تعالى، حيث قال النبى صلى الله عليه وسلم" الناس رجلان: عالم او متعلم هما في الاجر سواء ولا خير فيما بينهما من الناس"[٣]. ويقول صلى الله عليه وسلم "يا ايها الناس عليكم بالعلم قبل ان يقبض وقبل ان يرفع، العالم والمتعلم شريكان في الاجر ولا خير في سائر الناس بعد"[٤].
ويقول الإمام الآجرى " ومن صفته في علمه وصدقه وحسن إرادته أن يريد الله بعلمه.فمن صفته أنه لايطلب بعلمه شرف منزلة عند الملوك، ولا يستقضى به الحوائج ولا يقرب أبناء الدنيا ويباعد الفقراء، بل يتواضع للفقراء والصالحين ليفيدهم العلم"[٥].

ويقول الإمام الغزالى في حق المعلم " ويجب أن يقتدى بصاحب الشرع صلوات الله عليه وسلامه فيتعلم لوجه الله تعالى وطلباً للتقرب إليه، ولا يرى لنفسه منة عليهم وإن كانت المنةلازمة عليهم، بل يرى الفضل لهم إذ هذبوا قلوبهم لأن تتقرب إلى الله تعالى بزراعة العلوم فيها كالذى يعيرك الأرض لتزرع فيها لنفسك زراعة فمنفعتك بها تزيد على منفعة صاحب الأرض، فكيف تقلده منة وثوابك في التعليم أكثر من ثواب المتعلم عند الله تعالى"[٦] ويقول النبى صلى الله عليه وسلم " العالم إذا أراد بعلمه وجه الله تعالى هابه كل شيء، وإذا أراد أن يكنز به الكنوز هاب من كل شيء "٧.

(٤) التخصص:

وهذا من شأنه أن يجود العلم ويعود بالنفع على طالبه، فإذا ما علم الإنسان في غير تخصصه لم يفد المتعلم مثل إنسان تبحر في هذا التخصص وبرع فيه، يقول الإمام الماوردى " واعلم أن كل العلوم شريفة، ولكل علم منها فضيلة، والإحاطة بجميعها محال، قيل لبعض الحكماء:من يعرف كل العلوم؟ فقال كل

(١) أخلاق العلماء ص٥٢ وكذا ادب الدنيا والدين ص١٠٨
(٢) أدب الدنيا والدين ص.٥٢
(٣) الطبرانى في الأوسط عن ابن مسعود كنزالعمال ٢٨٨٧٠
(٤) الطبراني والخطيب عن أبى أمامه كنز العمال ٢٨٨٦٨
(٥) أخلاق العلماء ص٥٢
(٦) إحياء علوم الدين ص٥٦ ج١
(٧) الفردوس للديلمى عن أنس كنز العمال ٢٩٣٤٢

الناس " لهذا أمر القرآن بطلب العلوم عند المتخصصين فيها، يقول تعالى "فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ " النحل (٤٣).

وأهل الذكر هم المختصون في كل علم من العلوم وفن من الفنون"[١]، ونرى النبى صلى الله عليه وسلم قد حث المتعلم على أخذ علمه عند المختصين من العلماء في كل فن، فيقول " إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذونه"[٢]. وقد مارس النبى صلى الله عليه وسلم ذلك في حياته في حادث الهجرة فهو مع علمه عليه السلام وصاحبه بالطريق إلى المدينة إلا أنهما لن يكونا في حذق المختص في هذا المجال، لذا استعان عليه الصلاة والسلام بعبد الله بن أريقط –وهو كافر- دليلاً له عليه الصلاة والسلام في رحلته، لمهارته وتخصصه. وفى الحث على أن يلزم الإنسان تخصصه يقول عبد الله بن مسعود رضى الله عنه إن" من يفتى الناس في كل ما يستفتونه لمجنون" ويقول الأعمش "إن من الكلام كلام جوابه السكوت" ويقول الإمام مالك " من إزالة العلم –أى إهانته ووضعه- أن يجيب عن كل ما يسأل عنه"[٣].

(٥) الاستزادة من العلم وعدم استنكاف سؤال الغير:

وهذا من شأنه أن ينمى قدرات المعلم ومن خلاله يلاحق وقع الحياة ويساير كل جديد فيها فلا يجمد على علم ألم به واطلع عليه. ويلحق بهذا أن لا يستنكف عن سؤال غيره إذا عُمى أمر عليه، فقد سأل من هو أفضل منه ليتعلم.هكذا فعل موسى مع الخضر، وهكذا كان يفعل النبى صلى الله عليه وسلم عندما كان يسأل فيما لا إجابة له عنده، كان يقول لا أعلم حتى أسأل ربى وهكذا كان يقول جبريل عليه السلام، والقاعدة في ذلك قول الله تعالى " وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ " يوسف (٧٦).لأجل هذا كان من سمت العلماء ما عبر عنه الحق تعالى بقوله "وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا" طه(١١٤). لأجل هذا أيضا كانت وصية النبى صلى الله عليه وسلم لأهل العلم في كافة الأزمنة " تناصحوا في العلم، ولا يكتم بعضكم بعضاً فإن خيانة في العلم أشد من خيانة في المال"[٤] وهذا يدل على الإخلاص في إسداء العلم عند طلب الاستزادة منه، و هذامن شأنه أن يقضى على أمراض القلوب التى قد يثيرها التنافس العلمى سواء عند توحد التخصص أو تعدده، يقول ابن حزم فيما سره من أهل العلم " وسرنى أهل العلم مرتين من عمرى: أحدهما بتعليمى أيام جهلى، والثانية بمذاكرتى أيام علمى"[٥]، ويقول الإمام الآجرى في حق عالم اشتبه عليه القول في مسألة " وإن سأل عن مسألة اشتبه القول عليه فيها قال سلوا غيرى..... وإذا سئل عن علم لا يعلمه لم يستح أن يقول لا أعلم.... وإن احتاج إلى علم مسألة قد أشكل عليه معرفتها لاختلاف العلماء فيها لا بد له من أن يجالس العلماء

(١) أدب الدنيا والدين ص٥١
(٢) الجامع لأحكام القرآن ج٥ ص٨٨
(٣) أبو طالب المكى قوت القلوب ص٢١٨ ط- بيروت
(٤) حل عن ابن عباس كنز العمال ٢٩٢٨٦
(٥) الأخلاق والسير ص٢٤

ويناظرهم حتى يعرف القول فيها على صحته"[1]، وفى الاستزادة من العلم يقول الإمام الماوردى " ولا ينبغى للرجل وإن صار في طبقة العلماء الأفاضل أن يستنكف من تعلم ماليس عنده، ليسلم من التكلف " وقد قال عيسى ابن مريم على نبينا وعليه السلام:يا صاحب العلم تعلم من العلم ما جهلت وعلم الجهال ما علمت"[2]، وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه خمس خذوهن عنى منها " ولا يستنكف العالم أن يتعلم ما ليس عنده، وإذا سئل أحدكم عما لا يعلم فليقل: لا أعلم " وقال عبد الله بن عباس رضى الله عنهما "لو كان أحد يكتفى من العلم لاكتفى منه موسى، على نبينا وعليه السلام، ولما قال: "هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا" الكهف (٦٦).وقيل للخليل بن أحمد:بم أدركت هذا العلم؟قال: كنت إذا لقيت عالماً أخذت منه وأعطيته، وقال المنصور لشريك: أنى لك هذا العلم ؟ قال:لم أرغب عن قليل أستفيده ولم أبخل بكثير أفيده، على أن العلم يقتضى ما بقى منه ويستدعى ما تأخر عنه وليس فيه قناعة ببعضه.

وروى عن عون بن عبد الله عن ابن مسعود رضى الله عنه، أنه قال: منهومان لا يشبعان:طالب علم، وطالب دنيا:أما طالب العلم فإنه يزداد للرحمن رضاً ثم قرأ " إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء" فاطر (٢٨).وأما طالب الدنيا فإنه يزداد طغياناً ثم قرأ " كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى " العلق (٧، ٦).وليكن مستقيا للفضيلة منه ليزداد منها، ومستنكرا للنقيصة فيه لينتهى عنها، ولا يقنع من العلم بما أدرك، لأن القناعة فيه زهد والزهد فيه ترك والترك له جهل. وقد قال بعض الحكماء:عليك بالعلم والاكثار منه فإن قليله أشبه شيء بقليل الخير، وكثيره أشبه شيء بكثيره، ولن يعيب الخير إلا القلة، فأما كثرته فإنها أمنية "[3].

(٦) عدم تكلف الإجابة عما لا يعلم:

وهذا أدب ينبغى أن يلزمه العلماء فبدونه يضل العالم ويضل بل ينبغى عليه أن يزيل جهله في هذه المسألة بنور العلم واليقين وربما تكلف إجابة لشيء لا علم له به فهلك مستفتيه بسببها فباء بوزره وخسر.يقول الإمام الماوردى " وحق على من ترك العجب بما يحسن أن يدع التكلف لما لا يحسن.فقديماً نهى الناس عنهما، واستعاذوا بالله منها ومن أوضح ذلك بياناً استعاذة الجاحظ في كتاب البيان حيث يقول " اللهم إنا نعوذ بك من فتنة القول، كما نعوذ بك من فتنة العمل، ونعوذ بك من التكلف لما لا نحسن، كما نعوذ بك من العجب بما نحسن ونعوذ بك من شر السلاطة والهذر، كما نعوذ بك من شر العى والحَصَر ونحن نستعيذ بالله تعالى من مثل ماستعاذ فليس لمن تكلف مالايحسن غاية ينتهى إليها، ولاحد يقف عنده.ومن كان تكلفه غير محدود فأخلق به أن يَضل ويُضل. وقد روى عن النبى صلى الله

(١) أخلاق العلماء ص٥٦
(٢) أدب الدنيا والدين ص١٠٢
(٣) أدب الدنيا والدين ص١٠٢، ١٠٣

عليه وسلم أنه قال "من افتى بغير علم لعنته ملائكة السماء والارض"[١]، وقال بعض الحكماء: من العلم ألا تتكلم فيما لا تعلم بكلام من يعلم، فحسبك جهلاً من عقلك أن تنطق بما لا تفهم.فإذا لم يكن إلى الإحاطة بالعلم سبيل فلا عار أن يجهل بعضه، وإذا لم يكن في جهل بعضه عار لم يقبح به أن يقول:لا أعلم، فيما ليس يعلم. وروى أن رجلاً قال:يا رسول الله، أى البقاع خير وأى البقاع شر ؟ فقال: لا أدرى حتى أسأل جبريل.وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه: وما أبردها على القلب إذا سئل أحدكم فيما لا يعلم أن يقول:الله أعلم. وإن العالم من عرف أن ما يعلم فيما لا يعلم قليل. وقال عبد الله بن عباس رضى الله عنهما: إذا ترك العالم قول لاأدرى أحييت مقاتله. وقال بعض العلماء: هلك من ترك قول لاأدرى. وقال بعض الحكماء:ليس لى من فضيلة العلم إلا علمى بأنى لست أعلم.وقال بعض البلغاء:من قال لاأدرى علم فدرى، ومن انتحل مالا يدرى أهمل فهوى"[٢].

ويقول الإمام الآجرى في حق العالم إذا عرض عليه مالا علم له به ".... وإن سئل عن مسألة اشتبه القول عليه فيها، قال سلوا غيرى ولم يتكلف مالا يتقرر عليه"[٣].

(٧) الرجوع إلى الحق عند تبين الخطأ:

وهذا أدب تربوى تتعدد فوائده، فمن جهة العالم يكون به التواضع وقبول رأى الغير، ومن جهة المتعلم تكون تربيته على قبول وجهات النظر المختلفة مع قبول رأى الآخرين إذا ما تبين الحق فيه، يقول الإمام الآجرى في حق ما يكون عليه المعلم من أدب " وإن قال قولاً فرده عليه غيره ممن هو أعلم منه أو مثله أو دونه فعلم أن القول كذلك، يرجع عن قوله وحمده على ذلك وجزاه خيراً "[٤].

(٨) الصبر:

ويعد صفة ضرورية للمعلم لأنه يعامل صنوفاً متعددة من البشر، فهناك من يجهل ما يقول فلابد أن يصبر عليه، وهناك من يأخذ العلم منه وليس عنده قداحة في الذهن فليصبر عليه أيضا من أجل هؤلاء وغيرهم كان الصبر ألزم للمعلم وأخلق له، يقول الإمام الآجرى " فأما أخلاقه مع مجالسيه فصبور على من كان ذهنه بطيئاً عن فهم حتى يفهم عنه، صبور على جفاء من جهل علمه حتى يزيده بحلم"[٥].

(٩) أن لا يقبح عند تلاميذه تخصصات غيره:

(١) رواه ابن عساكر كنز العمال٢٩٠١٨
(٢) أدب الدنيا والدين ص١٠١
(٣) أخلاق العلماء ص٥٤
(٤) المرجع السابق ص٥٤
(٥) أخلاق العلماء ص٥٣

وهذا أدب رفيع يجب أن يسود بين العلماء، به يحسن المعلم توجيه طلابه إلى ما هو أقوم، ومن خلاله يرى غيره من العلماء في تخصصاتهم إخوة له يسير معهم على الدرب، وبه يكون تكاملية العملية التعليمية إذ يتبين من خلاله أن كل العلوم مفض بعضها إلى بعض، ويعاون بعضها بعضاً من أجل النهوض بعقليات الأمة.يقول الإمام الغزالى " إن المتكفل ببعض العلوم ينبغى أن لا يقبح في نفس المتعلم العلوم التى وراءه، كمعلم اللغة إذ عادته تقبيح علم الفقه، ومعلم الفقه عادته تقبيح علم الحديث والتفسير وأن ذلك نقل محصن وسماع وهو شأن العجائز ولا نظر للعقل فيه، ومعلم الكلام ينفر عن الفقه ويقول ذلك فروع..... فهذه أخلاق مذمومة للمعلمين ينبغى أن تجتنب بل المتكفل بعلم واحد ينبغى أن يوسع على المتعلم طريق العلم في غيره"[١].

(١٠) أن لا يبخل بتعليم ما يجيد ويحسن:

فمن أخلاق العلماء أن لا يبخلوا على من قصدهم ببذل العلم إليهم. كل في تخصصه لأنه في بذل العلم إحياء له وفى مدارسته نشر له بين الناس، وليس أى علم في أى تخصص يبذله الإنسان وإنما الذى يبذله وينشره ما يحسن ويجيد من العلوم، لأنه يتعهد عقولاً مسئولية الغد موكولة إليها فإذا ما ربت على يد عالم هذا شأنه لن تحسن أو تبدع فيما تخصصت فيه.يقول الإمام الماوردى " ومن آداب العلماء أن لا يبخلوا بتعليم ما يحسنون، ولا يمتنعون من إفادة ما يعلمون.فإن البخل به لوم وظلم، والمنع منه حسد وإثم. وكيف يسوغ لهم البخل بما منحوه جوداً من غير بخل وأتوه عفواً من غير بذل. أم كيف يجوز لهم الشح بما إن بذلوه زاد ونما، وإن كتموه تناقص ووهى، ولو استن بذلك من نقدهم لما وصل العلم إليهم، ولا نقرض عنهم بانقراضهم، ولصاروا على الأيام جهالاً، وبتقلب الأحوال وتناقصها أرزلا"[٢]. ويستشهد الإمام الماوردى على ما سبق من كلامه بقول الله تعالى "وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلاَ تَكْتُمُونَهُ " آل عمران (١٨٧).وبقوله تعالى " إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَـئِكَ يَلعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ" البقرة (١٥٩).وقوله صلى الله عليه وسلم " من كتم علماً يحسنه ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار"[٣]، ويقول الإمام على رضى الله عنه " ما أخذ الله العهد على أهل الجهل أن يتعلموا، حتى أخذ العهد على أهل العلم أن يعلموا"[٤]. وفى هذا السياق يقول ابن حزم " الباخل بالعلم ألأممن الباخل بالمال، لأن الباخل بالمال أشفق من فناء ما بيده، والباخل بالعلم بخل بما لا يفنى على النفقة، ولا يفارقه مع البذل"[٥].

(١) إحياء علوم الدين ج١ ص٥٧
(٢) أدب الدنيا والدين ص١٠٧
(٣) أبو داوود كتاب العلم رقم ٣٦٤١
(٤) أدب الدنيا والدين ص١٠٧
(٥) الأخلاق والسير ص٢٢

(١١) العمل بالعلم:

ومن سمات المعلم الصالح أن ينفعه الله تعالى بعلمه فيعمل به وإلا كان محل مقت من الله وازدراء من الناس وكان سبباً في زهد الناس في العلم على يديه إذ لم يتطهر سلوكه بما وعى من علم، يقول الإمام الغزالى " ومن صفة المعلم أن يكون عاملاً بعمله فلا يكذب فعله قوله لأن العلم يدرك بالبصائر والعمل يدرك بالأبصار وأرباب الأبصار أكثر، فإذا خالف العمل العلم منع الرشد.وكل من تناول شيئاً وقال للناس لا تتناولوه فإنه سم مهلك سخر الناس به والتهموه وزاد حرصهم على ما نهوا عنه، فيقولون لولا أنه أطيب الأشياء وألذها لما كان يستأثر به.ومثل المعلم المرشد من المسترشدين مثل النقش من الطين والظل من العود فكيف ينتقش الطين بمالا نقش فيه ومتى استوى الظل والعود أعوج ؟ ولذلك قال الله تعالى " أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ " البقرة (٤٤). ولذلك كان وزر العالم في معاصيه أكبر من وزر الجاهل إذ يزل بزلته عالم كثير ويقتدون به. ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها ولذلك قال على رضى الله عنه " قصم ظهرى رجلان عالم متهتك وجاهل متنسك، فالجاهل يغر الناس بنسكه، والعالم يغرهم بتهتكه"[١].ويقول الإمام الماوردى " وليكن من شيمته –المعلم- العمل بعلمه وحث النفس على أن تأتمر بما يأمر به، ولا يكن ممن قال الله تعالى فيهم "مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا " الجمعة (٥). فقد قال قتادة في قوله تعالى "وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ " يوسف (٦٨).ومعنى هذا أنه عامل بما علم، وروى عبد الله بن وهب عن سفيان أن الخضر {على نبينا وعليه السلام } قال لموسى عليه السلام: ياا بن عمران، تعلم العلم لتعمل به، ولا تتعلمه لتحدث به فيكون عليك بوره ولغيرك نوره.وقال على بن أبى طالب: إنما زهد الناس فى طلب العلم لما يرون من قلة انتفاع من علم بما علم. وقال أبو الدرداء:أخوف ما أخاف إذا وقفت بين يدى الله أن يقول:قد علمت فما عملت بما علمت"[٢].

(١٢) أن لا يقول مالا يفعل:

والتحلى بهذا يعود الإنسان على صلاح الحال فلا يعتاد الكذب فى حديثه بأن يزعم لنفسه ما ليس فيه وقد ابتليت الأمة فى هذه الأيام بهذا الصنف الذى يروج لنفسه بمعسول حديثه فى حين أنه مفارق لما يقول وهذا أمر له خطره فى توسيد الأمور إلى غير أهلها وتفشى طبقات المتسلقين والوصوليين فى المجتمع.يقول الإمام الماوردى فى وصف المعلم " ثم ليجتنب أن يقول مالا يفعل وأن يأمر بما لا يأتمر به، وأن يسر غير ما يظهر... فإصرار النفس على ذلك يغريها ويحسن لها مساويها وإن من قال مالا يفعل فقد مكر، ومن أمر بما لا يأتمر فقد خدع، ومن أسر غير ما يظهر فقد نافق.... على أن أمره بما لا يأتمر مطرح، وإنكاره ما ينكره من

(١) إحياء علوم الدين ج١ ص٥٧ ويراجع أيها الولد ص١٦٥
(٢) أدب الدنيا والدين ص١٠٤

نفسه مستقبح. بل ربما كان ذلك سبباً لإغراء المأمور بترك ما أمر به عنادا أو ارتكاب ما نهى عنه كيادا"[١].

(١٣) القناعة وعزة النفس:

وهذا الخلق إن كان مطلوباً للناس أجمعين فهو أشد طلباً للعلماء والمعلمين، لأنه به ينفى عنهم الاستغلال والاتجار بالعلم.إذ الاتجار به مفضى إلى تكييفه على حسب الطالب و الراغب والباذل.يقول الإمام الماوردى " ومن آدابهم –العلماء- نزاهة النفس عن شبه المكاسب والقناعة بالميسور عن كد المطالب، فإن شبهة المكسب إثم، وكد الطلب ذل، والأجر أجدر به من الإثم، والعز أليق به من الذل"[٢].

وعن قناعة المعلم، وصيانة علمه عن بذله لمن يدفع من الأموال أكثر، يقول ابن الجوزى " إن العالم يشتغل بالعلم، وقد يكون له عائلة فربما تعرض بالسلطان ففسد حاله فينبغى للعالم أن يتحرك فى معاش كنسخ بأجره....وإن فتح له بشيء اقتنع....، كما كان أحمد بن حنبل له أجره لعلها لا تبلغ ديناراً يتقوت بها، ومتى لم يقنع أفسدت مخالطة السلاطين والعوام دينه"[٣].

(١٤) الاعتزاز بنفسه وعلمه عند أولى الأمر:

لأن العالم إذا لم يعرف قدر نفسه وقدر ما فضل به من علم فلن يعرف له أحد قدراً ولن يقيم له أحد وزناً.يقول الإمام الماوردى " وربما كان لبعض السلاطين رغبة فى العلم، لفضيلة نفسه، وكرم طبعه، فلا يجعل ذلك ذريعة فى الانبساط عنده، والإدلال عليه، بل يعطى ما يستحقه بسلطانه وعلو يده، فإن للسلطان حق الطاعة والإعظام، وللعالم حق القبول والإكرام، ثم لا ينبغى أن يبتدئه إلا بعد الاستدعاء، ولا يزيده على قدر الاكتفاء، فربما أحب بعض العلماء إظهار علمه للسلطان فأكثره، فصار ذلك ذريعة إلى مللله ومفضياً إلى بعده، فإن السلطان متقسم الأفكار، مستوعب الزمان، فليس له فى العلم فراغ المنقطعين إليه، ولا صبر المتفردين به.... وليخرج تعليمه مخرج المذاكرة والمحاضرة لا مخرج التعليم والإفادة لأن لتأخير التعلم خجلة تقصير يجل السلطان عنها، فإن ظهر منه خطأ أو زلل فى قول أو عمل لم يجاهره بالرد وعرض باستدراك زلله وإصلاح خلله"[٤]، ويقول الإمام الآجرى " من صفة العالم أنه لا يطلب بعمله شرف منزلة عند الملوك، ولا يحمله إليهم، صائن للعلم إلا عن أهله"[٥].

(١) المرجع السابق ص١٠٥
(٢) أدب الدنيا والدين ص١١٢
(٣) ابن الجوزى صيد الخاطر ص٤٥ ط- بيروت
(٤) ادب الدنيا والدين ص١١١
(٥) أخلاق العلماء ص٥٢

(١٥) أن لا يشايع بعلمه أولو الأمر فى باطل:

وهذا الخلق من شأنه أن يبرز دور العالم أو المعلم فى تقويم المنكر، ومعالجة الخلل الاجتماعى على كافة مستوياته عند أصحاب المناصب والنفوذ وغيرهم.يقول الإمام الماوردى فى وصفه لما ينبغى أن يكون عليه العلماء " ثم ليحذر اتباعه-أى السلطان- فيما يجانب الدين ويضاد الحق، موافقة لرأيه ومتابعة لهواه، فربما زلت أقدام العلماء فى ذلك رغبة أو رهبة فضلوا وأضلوا مع سوء العاقبة وقبح الآثار، وقد روى الحسن البصرى " لا تزال هذه الأمة تحت يد الله وفى كنفه مالم يمار قراؤها أمراءها ولم يزك صلحاؤها فجارها، ولم يمار أخيارها أشرارها ". فإن فعلوا ذلك رفع عنهم يده، ثم سلط عليهم جبابرتهم فساموهم سوء العذاب، وضربهم بالفاقة والفقر، وملأ قلوبهم رعبا"[١].

(١٦) أن يكون له فراسة يعرف بها طاقة المتعلم:

فطلاب العلم ليسوا على قدم المساواة فى العقل والفهم، لذا ينبغى أن يراعى أحوالهم فلا يسوى فى معارفه وبذلها لهم بين صاحب عقل متفذ وآخر صاحب فهم بطىء.يقول الإمام الماوردى " وينبغى أن يكون للعالم فراسة يتوسم بها المتعلم ليعرف مبلغ طاقته وقدر استحقاقه ليعطيه ما يتحمله بذكاءه أو يضعف عنه ببلادته فإنه أروح للعالم وأنجح للمتعلم فقد قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه " إذا أنا لم أعلم مالم أر فلا علمت ما رأيت... وإذا كان العالم فى توسم المتعلمين بهذه الصفة وكان بقدر استحقاقهم خبيراً، لم يضع له عناء، ولم يخب على يديه صاحب. وإن لم يتوسمهم وخفيت عليه أحوالهم ومبلغ استحقاقهم، كانوا وإياه فى عناء مكد، وتعب غير مجد، لأنه لا يعدم أن يكون فيهم ذكى محتاج إلى الزيادة، وبليد يكتفى بالقليل، فيضجر الذكى منه، ويعجز البليد عنه، ومن يردد أصحابه بين عجز وضجر ملّوه وملهم.... وقال بعض العلماء: كل علم كثر على المستمع ولم يطاوعه الفهم ازداد القلب به عمى. وإنما ينفع سمع الآذان، إذا قوى فهم القلوب فى الأبدان"[٢]. وهذا يكون أيضاً فى لغة الخطاب حتى يستطيع أن يفهم السامع، يقول الإمام الغزالى " وصفاته-المعلم- أن يقتصر بالمتعلم على قدر فهمه فلا يلقى إليه مالا يبلغه عقله فينفره أو يخبط عليه عقله اقتداء فى ذلك بسيد البشر صلى الله عليه وسلم حيث قال " نحن معاشر الأنبياء أمرنا أن ننزل الناس منازلهم ونكلمهم على قدر عقولهم"[٣] فليبث إليه الحقيقة إذا علم أنه يستقل بفهمها..."[٤].

(١٧) توجيه المتعلمين إلى الاهتمام بما يعنيهم:

(١) ادب الدنيا والدين ص١١٢
(٢) أدب الدنيا والدين ص١
(٣) رواه أبو داوود عن عائشة رضى الله عنها
(٤) إحياء علوم الدين ج١ ص٥٨

ففى هذا ترك للفضول، وطلب لما هو مأمول، يقول الإمام الآجرى " وإن سألهمنهم سائل عما لا يعنيه رده عنه، وأمره أن يسأل عما يعنيه، فإذا علم أنهم فقراء إلى علم قد أغفلوه عنه أبداه إليهم وأعلمهم شدة فقرهم إليه..."(١).

(١٨) أن لا يدع من نصح المتعلم شيئاً إلا وجهه إليه:

وهذا دليل على مدى حرص المعلم على إفادة طالبه عنوان ذلك أن المعلم لا يترك أى شىء دق أو عظم إلا وأرشده إلى وجه الحق فيه بازلاً جهده فى النصح والتوجيه.يقول الإمام الغزالى " ومن صفة المعلم أن لا يدع من نصح المتعلم شيئاً وذلك بأن يمنعه من التصدى لرتبة قبل استحقاقها، والتشاغل بعلم خفى قبل الفراغ من الجلى ثم ينبهه على أن الغرض بطلب العلوم القرب إلى الله تعالى دون الرياسة والمباهاة والمنافسة"(٢).

(١٩) أن لا يمنع طالباً ولا ييأس متعلما:

وهذا من كمال تعهد طالب العلم بالعناية والرعاية، فإذا ما أتاه من يطلب علما كان قوله مرحباً يا طالب العلم كما فعل النبى صلى الله عليه وسلم، وإن أبطأ بمتعلم فهمه أقاله من عثرته زارعا فى نفسه الأمل، ومؤكدا له أن العلم إنما ينال بالجد والمثابرة.يقول الإمام الماوردى " ومن آدابهم أن لا يمنعوا طالباً ولا يؤيسوا متعلماً لما فى ذلك من قطع الرغبة فيهم، والزهد فيما لديهم واستمرار ذلك مفض إلى انقراض العلم بانقراضهم"(٣).

(١) أخلاق العلماء ص٥٣
(٢) إحياء علوم الدين ج١ ص٥٧
(٣) أدب الدنيا والدين ص١١٤

(١٩) نصح المتعلم والاعتناء بأمره:

قد يتلقى المتعلم درسه على يد كثر من المعلمين، بيد أن الذى يوثر فيه ويترك بصمة فى ذاكرته هو من أولاه العناية وبذل له الرعاية فكان له مخلصاً ناصحاً أميناً فجمع له بذلك بين تربيته وتعليمه. يقول الإمام الماوردى " ومن آدابهم –أى المعلمين- نصح من علموه والرفق بهم، وتسهيل السبل عليهم، وبذل المجهود في رفدهم، ومعونتهم، فإن ذلك أعظم لأجرهم، وأسنى لذكرهم، وأنشر لعلومهم، وأرسخ لمعلومهم.وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال" والله لان يهدى بهداك رجل واحد خير لك من حمر النعم"[١].

(٢٠) الرفق بالمتعلم وعدم التحقير من شأنه:

وهذا الأدب من شأنه أن يحبب المتعلم فيما يطلبه من علم، ويعطيه دفعة نفسية ومعنوية بها يثابر على طلبه له.يقول الإمام الماوردى " ومن آدابهم أن لا يعنفوا متعلماً، ولا يحقروا ناشئاً، ولا يستصغروا مبتدئاً، فإن ذلك أدعى إليهم، وأعطف عليهم، وأحث على الرغبة فيما لديهم. وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال " علموا ولا تعنفوا، فإن المعلم خير من المعنف"[٢]. ويقول صلى الله عليه وسلم" اطلبوا العلم واطلبوا العلم السكينة والحلم ولينوا لمن تعلمونه ولمن تعلمتم منه، ولا تكونوا من جبابرة العلماء فيغلب جهلكم علمكم"[٣]. ويقول الإمام الغزالى " ومن أدب المعلم ووظائفه الشفقة على المتعلمين وأن يجريهم مجرى بنيه"(٤)، ويدلل الغزالى على ذلك بقول النبى صلى الله عليه وسلم " إنما أنا لكم مثل الوالد لولده"[٥].

ويستفادمن قول النبى صلى الله عليه وسلم وما سبق من كلام الإمام الغزالى وغيره من أعلام الأمة: الشفقة بالمتعلم والاعتناء به وسع الجهد والطاقة.

(١) أبو داود كنز العمال٢٨٧١٣
(٢) رواه ابن عدى والبيهقى كنز العمال٢٩٣٣١
(٣) الديلمى عن أبى هريره كنز العمال ٢٩٢٦٧
٤ إحياء علوم الدين ج١ ص٥٦
(٥) أخرجه أبو داوود والنسائى وابن ماجة وابن حيان من حديث أبى هريرة كنز العمال٢٧٢٠٨

(٢١) استخدام طريقة التعريض فى زجر المتعلم:

وهذا أسلوب تربوى يستخدمه المعلم ما أمكن، ليرفع به الحرج عن المتعلم بين أرانه و زملائه. وفى هذا مراعاة للجانب الوجدانى للمتعلم، وهو أسلوب تربوى نبوى كثيراً ما ورد فى السنة المطهرة فكثيراً ما صدر النبى صلى الله عليه وسلم توجيهاته النبوية بقوله "ما بال أقوام" ومن ثم كان التأكيد عليه كخلق ينبغى أن ينتهجه المربون فى تعليمهم. يقول الإمام الغزالى " ومن دقائق صناعة التعليم أن يزجر المتعلم عن سوء الأخلاق بطريق التعريض ما أمكن ولا يصرح. وبطريق الرحمة لا بطريق التوبيخ فإن التصريح يهتك حجاب الهيئة.ويورث الجرأة على الهجوم بالخلاف ويهيج الحرص على الإصرار.... ولأن التعريض أيضاً يميل النفوس الفاضلة والأذهان الذكية إلى استنباط معانيه فيفيد فرح التفطن لمعناه رغبة فى العلم به ليعلم أن ذلك مما لا يعزب على فطنته"(١).

وهكذا أدركنا مدى اهتمام التراث الإسلامى بمهنة التعليم من خلال ما أرساه من أخلاقيات لها، نلمح فيها شمول النظرة وتكاملية المعالجة، إذ وجدنا من خلالها بيانا لفضيلة العلم فى ذاته، وفضيلة التعلم، ثم كان البيان لأخلاق المتعلم مع نفسه، وأقرانه، ومع معلمه ومادة درسه.ورأينا كذلك الاهتمام بالمعلم من خلال بيان فضله، والتأكيد على ما ينبغى أن يتمثله من أخلاق فى نفسه، وأدب مع ربه ومادة علمه، وأخلاق مع مجتمعه، وزملائه وكذلك مع تلاميذه وطلابه، وأولى الأمر وأصحاب المناصب فى مجتمعه مما يشعر بتكاملية المعالجة لأخلاق مهنة التعليم فى التراث الإسلامى، هذا والتراث الإسلامى حافل بالعديد والعديد من أخلاقيات المهن المختلفة، وما قدمناه إنما هى نماذج نبرز من خلالها مدى اهتمام التراث الإسلامى بهذا الجانب العملى من جوانب الأخلاق مؤكدين على قصب السبق له فى هذا المجال من الدراسات الغربية والحدثية التى عالجت هذا الموضوع زاعمة التفرد لنفسها وبجانب ما تقدم نجد التراث الإسلامى ملىء بأخلاقيات المهن المختلفة كالقضاء، والمهن الاقتصادية، ومهنة الناسخ وغير ذلك من المهن.... بل إننا نجد كتاباً للإمام السيوطى أطلق عليه اسم {صفة صاحب الذوق السليم } ضمنه أخلاقيات المهن المختلفة حتى الإنشاد والغناء، بل عد الشحاذة فيهمهنة لها أخلاقياتها، مما يدل على أسبقية التراث الإسلامى فى تناول ومعالجة هذا الجانب العملى من جوانب الأخلاق الذى لم يبدأ الإهتمام به إلا فى السنوات الأخيرة فى أوروبا.

(١) إحياء علوم الدين ج١ ص٥٦ ويراجع أخلاق العلماء ص٥٣

الخـــاتمة

بعد أن استعرضنا جانبا من تراثنا الإسلامي مما يتعلق بجانب الأخلاقيات المهنية يمكن أن نخلص بعدد من النتائج من أهمها:

١- أن التراث الإسلامى قداهتم بالمهن والأعمال المختلفة، ووضع لها ضوابط وأطر وأخلاقيات تنحو بها إلى الاتجاه الصحيح.

٢- إن الإسلام فى مجال الأخلاق المهنية لم يقف عند وضع قواعد أخلاقية تحكم الأعمال والمهن، وإنما أراد أن تتحول هذه القواعد إلى خلق عنده يصدر السلوك المهنى بلا تردد أو روية.

٣- أن الإسلام لا ينظر إلى المهن باعتبار الحقارة أو الشرف، وإنما يفاضل بين وجود المهنة وعدمها، فوجودها عين شرف انعدامها عين الخسة والانحطاط.

٤- أن المعايير الوضعية التى يمكن الاحتكام إليها فى المجال المهنى لا تتصف بالشمول أو العموم، بل هى مختلفة باختلاف الزمان والمكان والأشخاص ولذا لاتصلح كأساس للحكم الخلقى فى مجال المهنة.

٥- أن حالات الانهيار الأخلاقى للأمم والشعوب لم تستطع المعايير الوضعيه أن تقدم طرحاً بديلاً يغنى عن تشريع السماء، وهذا من أقوى البراهين على تهافتها.

٦- أن الإسلام لا يقف موقف الرافض من التشريعات الوضعية أو العقل أو المنفعة فى مجال الأخلاق المهنية، بل يقف منها موقف المنتقى الموجه، ومن ثم فإنه يقبلها فى ضوء ضوابط ومعايير تضمن حسن عملها.

٧- أن قانون الأخلاق المهنى فى الإسلام له من السمات والمؤهلات التى تجعله جديراً بصياغة الأطر التى تحكم الأخلاقيات فى كافة مجالات المهن والوظائف والأعمال.

٨- أن الإسلام جعل مدار تولى المهن والمناصب مرجعه إلى الكفاءة، والأمانة والإحسان.

٩- أن الإسلام لا يمنع غير المسلمين من تولى المهن، ما داموا قد استجمعوا شروطها.

١٠- أن الإسلام أضفى على المهنة بعداً أخلاقياً بتأكيده على الأمانة فى مجال المهنة، وبعداً إنسانياً بتأكيده على خلق الإحسان فيها.

١١- أن التفريط فى أخلاقيات ومعايير المهنة يعد فى نظر الإسلام خيانة لله ورسوله.

١٢- أن الإسلام يبيح أن يعطى المحسن فى مجال مهنته ما يتناسب مع إجادته وإحسانه، بحيث يكون بذلك قدوة لغيره.

١٣- أن التراث الإسلامى حفل بتفاصيل أخلاقيات المهن المختلفة كما تعارف المحدثون عليها، بل زاد عليها ما يقومها ويجعل منها رسالة تؤدى للبشرية

أسمى الخيرات والمنافع، لذا نراه اهتم بأخلاقيات الطب، القضاء، المهن الاستشارية، التعليم ،..... وغير ذلك من المهن.

١٤- أن الإسلام عالج تفاصيل الأخلاقيات للمهن بصورة تكاملية، فتراه عندما تعرض لمهنة التعليم مثلاً اهتم بأخلاقيات العملية التعليمية من كافة جوانبها، إذ تعرض للحث على العلم وبيان فضله، كذا تعرض لبيان فضيلة التعلم وأخلاقيات طالب العلم، وكذا فضيلة التعليم وأخلاقيات المعلم..... الخ مما يدل معه على تكاملية النظرة الإسلامية فى مجال الأخلاق المهنية.،،، ،،،

هذا والله ولى التوفيق.